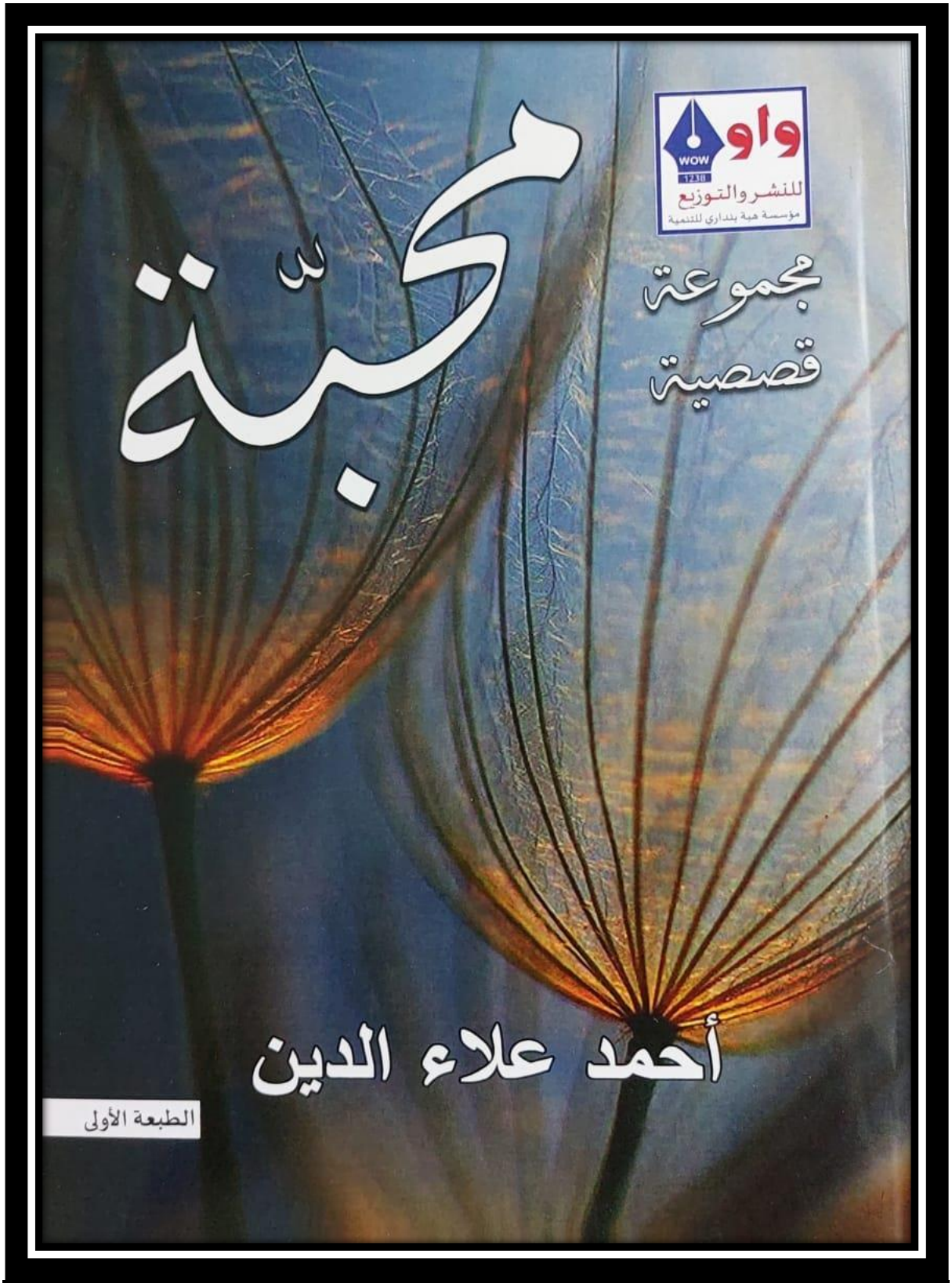
محبة
واو
WOW
للنشر والتوزيع
مؤسسة هبة بنداري للتنمية
مجموعة
قصصية
أحمد علاء الدين
الطبعة الأولى

محبّة

مجموعة قصصية

أحمد علاء الدين محمد

مصر

الطبعة الأولى 2021 م – 1442 هـ

الكتاب: **محبّة** - مجموعة قصصية
الكاتب: **أحمد علاء الدين محمد - مصر**
مقاس الكتاب: 14 x 21 سم
الإيداع القانوني: 2021/2410
الترقيم الدولي: 978-977-85824-0-6
عدد الصفحات: 184 صفحة
تدقيق، تنسيق، إخراج وغلاف: بلقيس محمد balqeis@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة
يُمنع نشر أو طبع هذا الكتاب أو جزء منه بأي وسيلة من الوسائل الورقية أو الالكترونية أو الصوتية أو المرئية أو غيرهم، إلا بإذن من الناشر.

الطبعة الأولى : 2021 - دار النشر

واو للنشر والتوزيع – مؤسسة هبة بنداري للتنمية
15 شارع فريد السباعي - الأريزونا - الهرم - مصر.
البريد الإلكتروني:
foundation.hebabendary@yahoo.com
موبايل: 01554196484

الصفحة الرسمية على فيسبوك: مؤسسة هبة بنداري للتنمية
الهاش تاج على فيسبوك: #مؤسسة_هبة_بنداري_للتنمية

جميع ما ورد في محتوى الكتاب يُعبّر عن آراء الكاتب وليس له علاقة بدار النشر.

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

(مجموعة قصصية ورواية قصيرة)

مَـحَـبَّـة

أحمد علاء الدين محمد

إلى كُلَّ من زَرَعَ ولَم يَحصُد, عَمَل ولَم يجنِ, صبر ولَم يَنل..

محتويات المجموعة القصصية :

1- قصة: عصري الذهبي
2- قصة: وصية الحاج ربيع
3- قصة: لقمــة وحشيــة
4- قصة: أمسية عشاء
5- قصة: رحلة عودة
6- قصة: في ثوان
7- قصة: دواء فــعـــال
8- قصة: ثورة المهندس بديع
9- قصة: لم يكن كابوسًا ياحبيبتي
10- قصة: اقتفاء صوت
11- قصة: سهرة زفاف
12- قصة: الـــسـبـــاق
13- قصة نور خافت
14- رواية: الكـابـــوس

عَصْرِي الذَهَبِيّ

كُلَّما أصَحو أجد الأرض تبتعد عني, أنام أكثر فأطول أكثر حتى حَسِبتُ أن ذبابة (التيسي تيسي), المُسببة لمرض النوم قد طارت من كِتاب الدرَّاسات الاجتماعيّة ولدَغتني, استمتع ولا أجد لمَنْ خوَّفني من المُراهَقة عُذر, وسط نَشْوَة بالِغة تَغمُرني, وأنا أرى حَجم جَسَدي يتضاعف وكأنه صُنع من المَطَّاط, يَبدُو أني دخلتُ العَصْر الذَهَبِيّ لحياتي, وبات كل شيء أجمل من ذي قبل, جَميعُ من في البيت؛ شقيقتي الكبرى وأمي وأبي اِنضَمَّوا لأخي الصغير وعادوا يرفعون رُءوسهم حين يُخاطبوني, جارتي التي أحبها والتي تصغرني بعامٍ, لم تعد تتهرب من ملاحقاتي كما كان, بل أَمسَت ترَقُبني بنظراتِ إعجابٍ, وذَّراعي التي راحتْ تَنشَف وتتكوَّر عَضَلاتها حتى مع حَمْل الأقلام, عَادتْ حبيبتي تتعمد ملامستها في الأحاديث العابرة بيننا, فيما تكون شُعَيْرات ذقني التي تكبر مُرادًا لأناملها الرقيقة, حين تصعد معي لأُريها كلبي فوق سَطح العمارة, كل الجمِيلات المُتمشيات في الشارع أصبحن في متناول يدي, كأهداف سهلة المنال, شعورًا بالزهو يُعضد قوتي ويُبَهجَني, حين أدفع إحداهن للأمام, أو أشد تنورتها للأسفل, أو حتى أميلُ عليها بجِذعي مُسمعًا إياها من جُمل المُغازَلة ما طاب, متفرسًا مَكامن جمَالها, فأرى مَلاَمحها تمخَر ارتعابًا, وترتجف يداها وتشرَع في البكاء, وتفرَّ من دائرتي هاربة, أما القبيحات بتن أمامي كأَوراق المناديل, يُمكنني أن أرفع أيًا منهن بيدٍ واحدة أَقَبِّلها, أو أَرمي بها إلى الحائط, ليس البنات فقط بل عدتُ أستطيع رَفَّع كل وَزنٍ وأي ثقلٍ, أصبحتُ لا أهلَع أو أخاف من أي شخصٍ بالمَدرَسة, سواء مُعلَّم أو مَدِير أو تِلميذ في الصَّفُّ الثالِث يكبُرني بعامٍ مثلما حَدَث وَقت دخولي المَدرَسة الإعداديَّة من سَنة, بل العكس هو ما صارَ يَحدُث؛ الجميع مني يخشى, فترة لحياتي أعيشها وأَستَمتع بها بين قُرنائي تَزْهُو فيها رَّايتي وترَفْرَفَ خَفّاقة ذَهَبِية للعيان, لَم يعد شيئًا فيها يُنغص علي حياتي غير أُسرتي, وما يفعلوه معي؛ في المُشكلِة الأخيرة معهم لَم تُعطِنِ أمي الفرصة لأعَبِّر عن ندمي, بعدما رفعتُ شقيقتي وأنا ألاعبها, لتنفيذ حركة (السوبلكس) بها, لكنها وللأسف, انحدرتْ وهوتْ على طرف السَرير فالتوت يدها وصَرخَتْ مُتأوهة بعنفوانٍ, لأجد أمي مباشرة تصيح: "ربنا يأخذك" وهي تهرع من المطبخ خارجة, قابِضةً على مِغرَفةٍ خشبية, ثم أقبلتْ على أختي الباكية تُربت عليها, فيما تُنزلني ببئرٍ سحيقٍ من اللَعَنات, فوجدتني غصبًا عني أقابل نفتها وسَخطها بشيء من اللامُبالاة والضَحْكات العَالِية, فاغتاظتْ ورمَتني بالمِغرَفة الملطخة بصَلصة الطَماطم, لتُخطئني وترتطم بالجدار مُبقَّعة إياه, استيقظ أبي على أصواتنا الصاخِبة, وبدون أن يَعرف ماذا جرى, كعادته, سبني وأهانني, وكأنني أنا الوحيد الذي أثير العَدَاوَة والبَغضَاء بهذا البيت! حاولتُ أن أشرح له أنه خطأ غير مقصودٍ مني, لكنه طوح يديه الخمسينية إلى صدري بضرباتٍ متلاحقة لم تهزني, ولكنها أثارت حنقي, وداهمني معها إحساسٌ بالقوة والسيطرة جعلني اشرئبُ له, وأتحداه واقفًا كالبنيان أمام ضرباته التي استحالت بعد استطالتي بردًا وسلامًا؛ حيث لم تعد تُبكيني أو تؤلمني مثلما مضى, وكما يتكرر بمشاجراتنا الأخيرات, إن دافعتُ عن نفسي وبسطتُ يداي على كتفيه مُبعدًا, يتحول إلى ممثلٍ قديرٍ بفيلمٍ قديم؛ يتراجع ويجلس على الكرسي متهدجًا الأنفاس مدعيًا المرض والإرهاق وكأنه سيموت بسببي, أعلم أنه يُمثل ويدعي, قبل أن يتَّهَمني بعدم التربية متوعدًا إياي قائلًا: "سأعلمك الأدب", بعدها يطردني من البيت, يوم, اثنين, أو ثلاثة أقضيهم عند عمتي حتى تبرد النار وتصطحبني لأعتذر له, كما يحدث كل مرة, لكني لن أعود هذه الكَرَّة, فأنا سئمت وبت أضيق ذرعًا من أفعال أبي, الذي لا يستنكف عن التدخل في ثغرات حياتي وجر خِناقي على كل شيء؛ إن تباطأتُ عن المدرسة, إن تأخرتُ من الدرس, إن لبستُ سلسلتي الفضية, إن خرجتُ مرتديًا (تيشيرت كت) بلا أكمام, إذا رآني أُدخن, رغم أنه رأى بنفسِه أم صديقي تُشعل معه السجائر, حتى وقتما عَمِلتُ بعد المدرسة مُدخلًا للبيانات في إحدى مقاهي الانترنت, لأعتمد على نفسي, سأل عني وتتبعني وتدخل لدى صاحب العمل ليُسرحني, كيلا يؤثر العمل على دراستي, هذا ما زعمه وقتها, أما الحقيقة فأنا أعرفها هو يريد أن يتحكم بشتى أموري, من أول صديقاي اللذين لا ينفكُ عن تشويه صورتهما أمامي, ويطلب مني مقاطعتهما, إلى كلبي الذي يهددني بتسميمه إن أنزلته من السطح وأدخلته البيت, أتذبذب في ردة فعلي, تارةٌ أفور وأزعق وأهينه فيعلو صوتينا بحدةٍ, حتى ينزل على كرسيه ممثلا دوره المُتقن ويطَّردني, ومرة أتجاهله وابتعد عنه, وانعزل مع أخي الصغير في غرفتنا, هذا الطفل الواشي, أيضًا كرهته, وهو يتجسس لصالح أبي وأمي, كُلَّما يتصل بي صديقاي أو جارتي التي أُحب, هذه العائلة كلها أصبحت لي كالكابوس بتفكيرهم القديم, جميعهم لا يبالون بأحلامي وما أصبو إليه, طالَما فكرتُ أن أترك لهم البيت, يبدو أن هذه المرة مناسبة لذلك, حتى لو اضطرَّتُ لترك بيت عمتي والمكوث عند أحد صديقاي اللذين يكرهما.

لأقابلهما نَزلتُ مساءً إلى المقهى الخاص بنا, وجدتُ معهما زميلًا عرض علينا مبلغًا من المال, في مقابل مساندته بعِراكٍ يستعد له هو وأخوه الكبير, وكأن حظي في هذا العَصْر الذَهَبِيّ يُقارب السحاب؛ فها هو مصدرٌ للمال يُفتح أمامي لن يستطيع أبي هذه المرة إغلاقه, أَنعشتنا النسائم الخريفية اللينة ونحن جالسين, فتفاكهنا وتذكرنا سامح صديقُنا البدين الذي ما فتئنا نؤذيه ونوسعه ضربًا, وننابزه بجسده حتى حوَّل أوراقه من المدرسة, لَعبنا الدومينو, وتبادلنا العبارات الماجنة فدَوَّت بسببها قهقهاتنا عالية إلى السحاب, ولفَتت معها أنظار الجميع وكأنهم يحسدونا على بهجتنا! بعد ذلك رأينا ثلاث فتيات من نفس عُمرنا, مُتمشيات أمام المقهى بمفردهُنَّ, كن ينادونا أو لعلنا توهمنا ذلك, فتركنا زميلنا وحيدًا مع أحجار الشيشة, وتتبعنهن حتى دخلن طريق جانبي خالٍ مظلمٍ, إلا من شظايا ضوء عمود, يبدو أنهن استسهلن المروق منه, وكأنهن يُسهلن علينا مهمة مزاولتِهن, وَسَعنا خَطواتنا حتى اقتربنا منهن, وقذف كل منا حجرًا صغيرًا عليهنّ, فتعالت منهن صيحات الهلع ولم تسعفهن خطواتهن بالابتعاد, فاقتربنا أكثر حتى باتت مفاتنهن في مرمى أيدينا, هرولن ارتعابًا, زعقتْ إحداهن ألمًا, وشتمتنا أخرى, فضحكنا ونحن نردُّ لها الشتائم, ونَسّبُ أمهاتهن وآبائهن, لم نتركهن وهُنَّ يُحاوِلن الفرار حتى انهارت ثالثتهنّ, وتعسَّرتْ قدميها لتتكَّب بوجهها على الأسفلت وتصرُخ, فتوقفتا الأخريان لإنقاذها, هنا استسلم شيطاننا, وانسحبنا مقهقهين على وهَوْهتهن وعَويلهن, فيما راح أحد صديقاي يهتف بهن: "سنغادر وأنتن الخاسرات".

ما كاد المقهى يلوح لنا ونحن عائدين, حتى شقَّت الشارع بسرعتها القصوى سيارة شرطة (بوكس) زرقاء, توقفتْ بفرملةٍ زاعقة أمامنا, وقبل أن نستوعب ما يجري, أشار شخصًا من كابينتها الأمامية عليّ: "الولد الطويل الذي يرتدي قميصًا أسود!" ليقفز أربعة مُخبرين برشاقة من صندوق السيارة الخلفي نحونا, فدارتْ أقدمنا لا شعوريًا, وركضنا بأقصى سرعة مُمكنة, قبل أن يذهب كل منا إلى ناحية, خلفي نظرتُ لأجد الأربعة يَجرون باتجاهي أنا فقط, وعلى وشك الإمساك بي, أسرعتُ أكثر, وبأنفاسٍ مبتورةٍ انحرفتُ في شارع متفرع تشتيتًا لهم, لكن لسوء الحظ الشارع كان مسدودًا, من جيبي سحبتُ (مطوتي) ومنها تخلصتُ, ثم توقفتُ واستدرتُ لأجد الأربعة بأجسادهم العريضة, وعصِيُّهم السميكة, يُحاصرونني فنعرتُ بهم محاولًا إنقاذ نفسي: "صديقاي اللذان ركضا هما من لامسا الفتيات وضرباهن.. أنا لم أؤذهن.. ابتعدوا عني" لكنهم اقتربوا أكثر, طفر في ذهني أن أتعامل كأحمد السقا؛ معهم اشتبك وعليهم انتصر, لكني أرجأت هذه الفكرة إلى أن أفشل في الفكاك من بينهم ركضًا, بَيْد أنهم كانوا أسرع, فجأة دنا مني أضخمهم ذي شارب كبير مُلتوي للأعلى, ضربني على رُكبتي بعَصاه ضربةٌ خبيرة, تهاويتُ جاثيًا من شدتها كعجل العيد, ولم يكن لدي خيار, قبل أن يُكتِّفني من الخلف, قاومتُ لكن عضلاتي أمام يديَّه كانت واهنة, لتتوالى عليّ صفعات غليظة موجهة إلى قفاي وخداي من الأربعة بلا توقف أو رحمة, حتى استسلمتُ تمامًا, حمَّلوني كالجوال وهم يسّبُوني ويطفِقون في ضربي, أَلْقوني في صندوق السيارة كخرقةٍ بالية لا تملك من أمرها شيئًا غير البكاء والتذلل! انحنيتُ على قدم ذي الشارب المُلتوي, أبكي كأخي الطفل الصغير متوسلًا أن يتركوني, فتوعدني: "أنت لا زلتُ لم ترَ شيئًا" في غفلة منهم تحسست تليفوني, وهاتَفتُ أمي باكيًا: "أنا في سيارة شرطة مقبوضٌ عليّ.. أنقذوني" قبل أن أتلقى رد, سحب مني أحدهم التليفون وصفعني.

ماله جسدي العريض يتضاءل؟! ومالها صلابتي تلين؟! وكيف لعَصْري الذَهَبِيّ أن يضمحلُّ سريعًا؟!

بداخل قسم الشرطة لم يَحدث معي شيئًا مما أشاهده في الأفلام؛ لم انتظر جالسًا مقيدًا بالأصفاد في ردهة طويلة, لم يحققوا معي ويأمروا باستدعاء الثلاث فتيات ليتعرفوا عليّ, ولم يأتِ أبي ليضربني أمام الضابط ويعتذر لأسر البنات ويُخلصني مما أنا فيه, كل ما حدث أنهم تركوني برهة في صندوق السيارة, حتى قبَّض أحدهم على ذراعي فاستحال بقوته في يده الثقيلة لعود قصبٍ ممصوص, حرَّكني من الخارج إلى غرفة صغيرة, مُحتوَاها مكتبٌ شاغر, المُخبر ذي الشارب المُلتوي كان بها حاضر, إستقبلني بصفعةٍ أعنفٍ من كل ما قبل, وكأنه إستَبدل يده بحجرٍ, فطَوَّحَني أرضًا, نعرتُ مجددًا بأني لم أفعل شيئًا, وأن صديقاي هما من تحرشا بهن, فسّبني ومعي أهلي وسُمعتي, غشيني إحساس بأنه لا خَلاَص من عذابي هذا, لَكِني فَجأة رَأَيتُه, إلتقت عيني بعينه, فتحي؛ أمين الشرطة الذي كان جار لنا, يَعرِفني ويَعرِف عائلتي, يَعبُر من أَمامَ الحُجرة, أُكسِجين سيضخ بصدرٍ مُختنقٍ كان لي, بصوت الغارق ناديتُ عليه: "فتحي باشا.. عمو فتحي.. عمو فتحي!" أكمل سيره, وكأنه لم يَرَاني أو يسمَعني, وكأن صوتي لَم يَخرُج من حَنجَرتي, أو ربما فتحي هذا سَرابٌ, خُيّل لبصري إنجادًا, لأجد صَفعة جديدة من المُخبر على وجهي تنزل, الأخيرة هذه لم أشعر معها بألم, بل دماءً في فمي, وتنميل في خدي الأيمن كأنها حقنة (بنج) للأسنان, قبل أن يأمُر عسكري بَدين بحجزي, فدفعني بخُشُونةٍ إلى زِنزانة ضيقة قذرة ومظلمة, بمجرد

دخولي إليها لَفحَتني رائِحة غريبة, كل الروائح الكريهة التي عرفتها يُمكن الهروب منها بسدَّ الأنف, أما هذه الرائحة فلا؛ التصقتْ بجلدي وملابسي كسَهك السجائر, نَتَّنة قوَامها صُنان وغائطٌ وبَول, شعرتُ بها في عيني وأنفي وفمي, اِخترقتني فتقيَّأتُ على يدي, وسألتْ دموعي, وأجفلتُ وأنا أسمع أحد المَحجوزين يأمُرني بشراسةٍ: "غور في الركن", حاولتُ أن أتماسك, لكن رائِحة القَيء في أنفي, وطعمه في فمي, حفزاني أن أقذف ما في أمعائي من جديد, وبشكلٍ أعنف, حتى استعدتُ جزئيًا سيطرتي على جسدي, فمسحتُ قَيئي في بنطالي, ووقفتُ مهزوزًا, أتفحص من خلال نُتفات ضوءٍ يُصدِّرها الخارج المَحجوزين, عَددهم تسعة جميعهم يفترشون أرض الزِنزانة ما بين سارح, ونائم, ومثرثر, ملابسهم كأشكالهم قذرة, مُمزَّقة, مُهترِئة يبين منها جلودهم الملآنة بالندبات, وآثار الغرز والجروح, وجوههم مُزيته من عوز التنظيف, إمعانًا في مخالفة الأفلام لم يقترب مني أحدهم أو يحاول سرقتي, وكأن كل منهم شُغل بحاله, ألم ركبتي المَضرُوبة بالعصا بات لا يُحتمل كادَ يُقعدني, لكني تَراجعتُ ولم أفعل؛ خفتُ أن أفترش الأرض مثلهم فأكون منهم, أنا لست منهم ولن أكون, سأخرج من هنا قريبًا, وسأواصل حياتي, اِستدرتُ هربًا من أشكالهم, ورفعتُ طرف قميصي على أنفي من الرائحة, يُعاقبني على ما اقتَرفه, بالتأكيد يفعل, ناجَيته بحنجرةٍ مغصوصةٍ قينًا: "يا رب", أُبرم معه توبةٍ في الرقعة الفارغة بيني وبين الجدار المتسخ: "يا رب" لو خرجتُ من هنا سأداوم على تأدية كل فروضي كما كنت, سأعتبرهن جميعًا كأختي لن أُخيف أو ألَمَس أي فتاة, واقفة أو متحركة في الشارع, لن أُمازح شقيقاي ضربًا, وسأعتَذِر لسامح, ولن اشتري سجائر, بل لن أُدخن من الأساس, ولن أُغضب أبي وسأقبل يده وأمي كل يومٍ وألتزم بتعليماته, وكما يُريد سأرافق الأخيار, وابتعد عن الأشرار قرناء السوء؛ صديقاي اللذان لم أحفظ لساني ووشيت بهما بسهولة قبل حتى أن يُقبض عليّ! هل لأني خائنٌ معيب؟! أم أن الفِتنة على الشُكس الفُجَّار لدْنَة؟! فجأة ارتعشتْ قدماي, حين لم أستطع السيطرة عليه لأول مرة منذ كنت أحبُو, تَسَلسَل من بين فَخذاي أصفرًا ساخنًا, دَبغَ ملابسي السُفلية وحذائي بغمٍ وعارٍ جديد, وَضَعتُ يداي أحاول إيقاف اِنهماره بلا فائدة, اِنسَرب من بين أصابعي حتى وصل لأحدهم فقام بفَورة غضَب قَذَعني بألفاظٍ بَذاءاتها مبتكرة وهو يَضَربني على قفاي, شعرتُ بإهَانةٍ حقيقية لم أتلمسها من قبل, "حَقَّك عليّ يا عمو" خرجتْ مني بوجهٍ متقلصٍ منكسرٍ, وأنا الذي كنتُ نسيتُ تعبيرًا كهذا, نظر إليّ بقَرفٍ وابتعد, الوقت في الخارج يمرَّ ويطير ويتبخر, أما هنا لا يمرّ حتى عجزتُ عن التَحمَّل, أبلستُ الخروج الليلة فجلستُ افترش الأرض مثلهم, ماذا لو غفلني أبي أو جَحَدني بما أفعل؟ هل سأقضي هنا حياتي؟ "يا رب.. يا رب" خفِفِ الألم "يا رب.. يا رب" أبي يأتي "يا رب.. يا رب" لم تعد تفارقني طوال وقتٍ لا يمرَّ أبدًا لا يمرَّ, حتى سَمعتُ نُعَّاق غربان, تبعه شُعاعين من ضوء النهار, نفذا من نافذتين كل منهما بمقاس بلاطة أعلى الزنزانة, ليَدخل بعد ذلك العسكري البَدين, أشار إليّ وندهني, وثَبتُ من مكاني قائمًا, ودنوتُ منه, لم يدفعني هذه المرة بخشونة كما فعل البارحة, نهاني قائلًا: "لا تُغضِب أباك ثانية" وهو يُغلق باب الزنزانة مستخدمًا مفتاحًا غليظًا, بغرفة الأمس وجدتُ أبي يجلس بمفرده ويُمسك بهاتفي الذي سحبوه, ما إن رأيته حتى دخلتُ في نوبةٍ من البكاء, هذا هو الأُكسِجين الحقيقي لصدري المُختَنِق وقلبي المُتوقّف, نَسيتُ أَلَم رُكبتي ورَكضتُ نحوه, رَفعتُ يده وقبلتها, حالفًا مُسمعًا العسكري البَدين: "والله لم أفعل لهن شيئًا" رَبتْ أبي على كتفي, واِصطَحبني خارج القسم, فعُدتُ للحياة ونجَّيتُ من قبري, من حولي كل شيء بدا جميل, قبضتُ على يده وكأني احتمي به حتى وصلنا, خلف باب الشَقَّة كانت أمي تنتظر بعينين حمّرهما البكاء, ما إن رأتني رَثَّ الهيئة بوجهٍ متورم, حتى ضَربتْ صدرها وصاحتْ بلهفةٍ: "يا ولدي يا حبيبي" أقبلتْ نحوي بمحبةٍ, غَطَّنتني وكأنها تحتضن روحي بقوة, مُفرقة بيني وبين أبي بسَّاعِدها, لم تنظَر إليه, ولم تسأله عن شيء, ولم تسألني, بدون كلام اِصطَحبتني للحَمّام.

عشرة أيّام نفذتُ فيهم كل ما نويته في الحجز, واِلتَزمتُ به, عُدتُ أَرى أبي وأمي بصورةٍ جديدة؛ صورة البَطَلين الخارقين في حياتي, صرتُ أشعر بتعلق حَميمي تجاههما, وكأني ولدتُ من جديد, أو بتُ أَميزُ الخَبِيثَ مِنَ الطيّبِ, عشرة أيّام عاد فيهم وجهي الذي أنتفخ لطبيعته, وشُفيتْ فيها رُكبتي, وإن لم تفعل رُوحي, الحجز, تَفكرتُ في تلك الكلمة التي كانت دَارِجة على مسامعي كخيال, واِستحالتْ حقيقة, تفهَّمتُ لِمَ ينطقونه بأولاء الحروف (ح, ج, ز)؟, قطعًا لبَشاعته؛ مُعوَّقات الحياة كثيرة أهونهم الكسل, أعظمهم المرض, جميعهم تجدي معهم المقاومة, إلا الحَجز؛ خلفه لن يُحجز الإنسان بجسده فقط بل بعاداته, ونوامِيسُ حياته, وأحلامه, وما يعجَز عنه وما يستطيع فعله, ولن يكون وقتها أمامه غير المُكُوث مكروبًا محسورًا.

اِصطحبني أبي إلى المقهى المفضل له؛ في محاولة للتخفيف عني, في بدايتها الجلسة كانت مُمتعة رُحتُ أحكي معه عن آمالي وأَحلامي في المُستَقبل ومشروع الصيدلية العملاقة التي أنتوي افتتاحها في المُستَقبل, لكن سرعان ما تحول هذا إلى ماضي, حين توقفتْ سيارة شرطة (بوكس) أمامنا فتوقفتْ معها حياتي, وتجمد الدم في أوردتي, وشعرتُ بضَغطٍ هائل على مثَانتي, واستعدتُ بلا إرادة رائحة الزنزانة النَتنة, ووجوه مساجينها القَذرة, ترجَّل من السيارة أمين الشرطة, فتحي جارنا القديم الذي نكرني, أَلقى السلام متحاشيًا النظر إليّ, فانتصب أبي مرتبكًا بربع ابتسامة, قبل أن يصنع حائلًا بظهره بينه وبيني وكأنه يحجب عني الرؤية, تمتم الاثنين بحديثٍ قصير, لم أسمع منه كلمة, قبل أن يُخرج أبي محفظته, ويُعطيه منها أربعمائة جنية, أَلتقطهم فتحي, وودعه بابتسامة صفراء قائلًا وهو يغادر بالسيارة: "سَلام يا عمُّنا.. أي خدمة"

أفهم الآن.. لِماذا نكلوا بي وتجاهلني فتحي؟ ولِمَ قال لي العسكري البدين لا تُغضِب أباك؟ وكيف أخذني بسهولة من هناك بدون إجراءات؟ ولماذا لكزته أمي وقاطعَته في الأيّام الماضية؟ كان يُعلمني الأدب!

نظر إليّ وبكلماتٍ مُضطرِبة, حاول التبرير بأنه يدفع لفتحي قسطًا ما, قبل أن يستَدرك بأنه قسط جمعية, فنكستُ عيني بلا مبالاة لِمَا يدعيه, شاعرًا بصَفعةٍ قاسية أثقل من كل ما سبق تجلد قفاي, حَاولتُ التَّغَلبُ عليه ومَنعه من النزول, لكن يبدو أن رَّاية عَصْري الذَهَبِيَّ بَهِتَت وارْتَخَتْ واتَّخذَت من لَوَّنَه لَوَّنَ, ومرَّة أخرى اِنْقَبَضَتْ مثَانتي وتَسَلسَل السَائل الأصفر من بين فَخذاي وكَفَّاي ساخنًا, مدَبغًا مَلاَبسي بعارٍ أكبر من كل سابقيه.

وَصيّةُ الحاجّ ربيع

لا إله إلا الله الحكيم العليم

لا إله إلا الله القوي المتين

لا إله إلا الله العزيز الرحيم

لا إله إلا الله الغفور الكريم

على هذه التهاليل, اعتاد سكان حارة (زبيبة) سابقًا ـ شارع اللواء مجدي علام حاليًا ـ أن يستيقظوا؛ حيث يشق بها الشيخ فتحي العتال إمام مسجد الجمعية الشرعية سكون ليلهم الراني, بالابتهال لله عز وجل, بصوته الرخيم المتأني, قبل أن يؤذن لصلاة الفجر, فيمس بكلماته الهادئة في قوة, أنوطة قلوبهم, فتسري الهمم في أبدانهم, ويستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ويقوموا ليدركوا الصلاة في ميقاتها.

أما الليلة وبعد أن أنهى الشيخ فتحي الابتهالات واستراح لدقيقتين, عاد لتشغيل الميكروفون من جديد, واقترب منه, فراح الميكروفون ينقل للسكان هسيس أنفاسه وحركات يداه, قبل أن يضبطه ويقف أمامه منتصبًا, وما أن رفع يداه إلى أُذناه وهمّ ليؤذن, حتى سمع صرخات عالية ملتاعة صعقته, لم يكن صعب عليه, أو على سكان الحارة تمييز ذاك الصوت الحاد لفاطمة, ولم يغلبوا أو يضلوا في تخمين عِلتها, فقد أحدسوا أن الابنة الصغرى قد فَّجعت للتو بوفاة أبيها, فهذه الوفاة لم تكن غيلة أو غدرًا فالمتوفى الحاجّ ربيع العطار صاحب ثمانون عامًا ونيف أكهلوه, إلى جانب أمراضٍ عضال أرهقته وأطفأت عزيمته ومراداته, فاطمة الصارخة لا تزال أنهت شكوكهم بتخصيص ولولتها لأبيها, فخرج الجميع من بيوتهم -كعادتهم في المُلمّات- مكفهرين الأوجه حزنًا, ينعون أقدمهم عمرًا, أطيبهم فعلًا, أقلهم لغوًا, حيث تجمع الرجال والشبان أمام منزل الفقيد, فيما ذهب اثنان منهم ليبلغوا الخبر لأبنائه الرجال الثلاثة, الذين يسكنون في الشارع الخلفي الموازي للحارة, النسوة أيضًا أتشحن بالسواد وتحركن لتعزية فاطمة ومواساتها, نزلن البيت المنخفض مدخله عن أرض الحارة بثلاث درجات واحدة بعد الأخرى, ففجر مرآهن لدى فاطمة مزيدًا من مشاعر الحزن والأسى, فأخذت تَلطّم وجهها, وهمت تضرب رأسها بالحائط, لكنهن تَدخلن سريعًا ليمنعنها عن إيذاء نفسها.

في الشارع الخلفي الموازي للحارة فاروق, الابن الأكبر للحاج ربيع, كان أول من عرف من الأبناء الرجال؛ حين دلف للنوم بعد عودته من سفر عملٍ مرهق, حيث يعمل سائق عربة توزيع لإحدى شركات الشوكولاتة, بدا جسده مجهدًا تمامًا, حينئذ جاءه الخبر, ارتجف وجهه, وجف حلقه مرة واحدة, وكأن الخطب قد روَّعه, (حوقل) قبل أن يتجرع لترًا من الماء المُثلج على مرة واحدة, كأنه يُطفئ نارًا وقدت بداخله, قبل أن يفتح أحد أدراج "الكومودينو" ويسحب رّزمة من النقود, وينزل على عَجَل بملابس البيت التي لم يبدلها؛ علّه يلحق والده!

أما حسن وحُسَين الابنان التوءمان اللذان يتناوبان العمل بدكان العطارة مع أبيهما, ويقطنان في بناية واحدة, لا تبعد عن شقة فاروق إلا قليلا لم يصدقا الخبر, وظلا يُكذبان مسامعهما فكيف ومتى حدث هذا؟! وقد كانا معه أمس حتى بعد العاشرة مساء, ظلا على حالتهما برهة حتى تمالكا نفسهما وتحاملا على بعضهما ولحقا بالجنازة.

لم تكن شقة الدكتور مجدي الصديق الوحيد للحاج ربيع بمنأى عن صرخات فاطمة, لوجودها في عمارة من صف عمارات شُيدت على مدخل الحارة, سمع الدكتور مجدي الصرخات والنشيج الحاد للنسوة, وهو قلقًا يتقلب بفراشه, إثر وحشة أصابته لزوجته الدكتورة تغريد الغاضبة في بيت أبيها من تسع ليالي, قام ونظر من النافذة,

يستوثق من الأمر, وعندما تأكد من الوفاة, ألّم به إلى جانب حزنه على الحاجّ ربيع خوفٍ وقلقٍ من العواقب, وكأن ما كان يخشاه حدث, توضأ وارتدى ثيابًا ملائمة ونزل لتأدية الواجب.

****

في صمتٍ جنائزي كئيب, أسود بلون السماء التي لم تنر بعد, وقف سكان حارة (زبيبة) وشبابها غارقين, مُطرقين, مُطأطئين الرقاب, يربطون أنظارهم بالأرض التي ستحتضن جسد جارهم العجوز بعد قليل وإلى الأبد, علّهم يحاولون إدراك كيف ستكون حارتهم بدونه, عَلِموا أن الأجل سيأتي, ليلبسها سوادٍ مستمدٍ من ظلمة قبر حُفر ليستقر فيه الحاجّ ربيع, رحم الله الحاجّ ربيع الورداني وأسكنه فسيح جناته, الآن افتقدوا أقدمهم في سُكنه الحارة, من ولد فيها, وشب فيها, وأشتد عوده فيها, وحوّل تجارة أبيه من داخل بيتهم إلى دكان مستقل بذاته, من ظلوا يعتبروه كبيرهم, وبركتهم, وحامل عبق الزمن الجميل لهم, من عاش بينهم بالخير جواد على الصغير والكبير, الآن مات ولم يعد بعد؛ مات بتنهدةٍ طويلةٍ في سلام دون أن يُشقي أحدًا بجواره, لعلهم يفكرون كيف أنهم من الغد عندما يخرجون من بيوتهم إلى صدر حارتهم الطويلة المتعرجة, لن يجدوه كما اِعتادوا في السنوات الأخيرة, أمام دكانه على مقعده الخشبي المميز, الذي صنعه له خصيصًا جارهم النجار شحاتة على هيئة كراسي الملوك والأمراء متسع ومبطن المسند والذراعين, بإسفنج مكسو بطبقة من الجلد الأحمر البرّاق, يجلس فيه الحاج متكئًا على انعقافة عصاه, يداري صلعته المضيئة بطاقية شبك في الصيف وأخرى صوفية بيضاء في شهور الشتاء, مادًا قدميه من تحت جلبابه المقلم -غالبًا- إلى طست من الماء الدافئ, وبجواره جوزته المحشوة بأفخر أنواع المعسل, يشد منها وينفث الأنفاس, سيفتقدون صوته النحاسي الخالي من التعبير, حين يردَّ عليهم سلاماتهم, ويجيب في ودّ حقيقي على استفهامات وأسئلة زبائنه, عن فوائد الأعشاب وكيفية تخفيف الأوجاع بها, ومن ثم يعرفون متى يضطرم صوته, عندما يُنادي على فاطمة لتُغير له ماء الطست, حينما يُبّدل الميمُ نونًا ويتبعها بياء بدل التاء: "فاطنيّ" ينادي عليّها بصوتٍ خفيض مرة ثم ينتظر لثوانٍ, ويكرر ندائه فإن لم ترد فيضطرج وجهه المُغصن بالتجاعيد, ثم يعلو صوته ويزعق من حنجرته الأجشّة وهو يربط اسمها بصفاتٍ من عينة أنها ابنة للكلاب وليست ابنته, وقتها تهرع فاطمة إليه بطستٍ من ماءٍ جديد, وتضعه تحت قدميه وتُقبل رأسه, فيهدأ ويستكين مثل طفل صغير تناوله حلوى, ككل المسنين ترك الزمن أثره عليه فأطفأ بالتدريج لمعة جلده الأبيض المُشرّب بحمرةٍ, وأحل مكانها ترهل وأوردة بارزة للعيان, إلى جانب شَعر سقط معظمه, والمُتبقي منه في الساقين والساعدين والشارب لم يعد أسود, ورغم ذلك فلم تلازمه صفات الشيخوخة المقيتة؛ لا يتدخل فيما لا يعنيه ولا يئن بشكواه ليل نهار لمن يعرف ومن لا يعرف, حتى قبل وفاته بساعاتٍ عاقل متزن, لم يَشُعر المتعاملين معه ولو لمرة واحدة أن ثمة نوبة من خرَّف أصابته, قليل الكلام عفيف القلب واللّسان, إن سُئل عن شخص في الحارة أجاب باقتضاب إنه رجل طيب, أو إنها امرأة حسنه, ولو جلس إلى جواره أحد الثرثارين وما لبث أن يرغي ويزبد معه, حتى فعل الحاج ربيع حركته المشهورة؛ يعود للخلف في مقعده ويعبث بأصابعه في شاربه الأبيض المنفوش, ويحدق في الفراغ ولا يتفاعل معه فتكون هذه علامة للمتطفل ترجمتها: "أن وقتك قد انتهى", حتى في فورات غضبه يغمغم بجمل مبتسرة لا يسمعها أحدًا سواه, وبعدها يهدأ ويعود للتحديق في الفراغ كأن شيئًا لم يكن, الحاج بالنسبة لهم كتاب مفتوح, رمزًا لهم, علامة عندهم, صفحة من كتاب منطقتهم, الشيء الوحيد الذي لم يفهموه عن الحاج هو علاقته بالدكتور مجدي, وهي التي بدأت حينما أجهش الحاج ربيع ذات مرة في بكاءٍ شديد, مصحوبٍ بنحيب ورفض الطعام وقبله الشراب وغرق في صمتٍ مطبق, واحتار الأولاد في أمره, ولم ينقذه مما هو فيه غير مجدي جارهم, طبيب الامتياز في مستشفى أحمد ماهر التعليمي, آنذاك استدعاه فاروق لأبيه, فعاد بعدها الحاجّ مبتسمًا هادئًا لحياته كما يعرفونه, لم يكتشف الأولاد أو فاطمة على قدر محاولاتها بالضبط ماذا دار بينهما يومِها, ومن يومها ثمة علاقة غريبة جمعت الاثنين حيث يأتيه الدكتور كل أسبوع مرتين تقريبًا, يشرب خلطة الأعشاب المخصوصة, التي لا يشرب منها غير الحاج ربيع, ويجلسان ليتحدثان, أو للدقة يتهامسان بالساعات, ويقهقهان فيما بينهما, وكأنهما صديقان في مرحلة عمرية واحدة, أو كأنما تجمعهما مهنة مشتركة, في بادئ الأمر ذهبت نمائم النسوة إلى أن الحاجّ يضع عينه على الطبيب ليزوجه ابنته بدلًا من زوجها, لكن هذا الاحتمال انقضى عندما علمن أن الطبيب متزوج بالفعل من طبيبة زميلته, ثم تسربت شائعة شريرة مفادها أن الحاجّ يَبيع لهذا الطبيب أعشاب مُخدرة, ويسوقها الطبيب بعد

ذلك لمرضاه, صحيح أن الجميع تعفف وقرف من هذا الظن؛ لمعرفتهم الجيدة بالحاجّ السمح وأخلاقه النبيلة, لكنها ظهرت, وما لبثت أن اختفتْ, بعدها سَلم الجيران بعلاقة الصداقة بين الشاب والرجل الكهل.

صحيح أن سكان الحارة توقعوا قدوم الأجل, لكنه حينما جاء فاجأهم, أجفلهم, أدهشهم كأنه أتى ليخطف طفلٍ من حضن أسرته, وليس عجوزًا في الثمانين, الفاجعة حلت كضربة السياط, التي يتوقعها السجين ويستعد لها, وحينما تنزل يصرخ مرة واحدة وبقوة, من وقعها الأليم على ظهره, موت الرجل أشعل فيهم أوار أحزانهم, ولم يختلف حال الرجال في المصيبة كثيرًا عن نسائهم اللاتي صطفقن بداخل البيت, فوقفوا يبكون واستغرق الكثير منهم في ذلك, غير مصدقين أن من كان أصبح جثمان.

من وسط الولولات والحزن الطابق على المكان, هبّت فاطمة على حين غرة, وعرجت إلى غرفة والدها اليمنى, من بين ثلاث غرف فتحتها فوجدتْ أخاها حُسَين, جالس بجوار المرحوم, يذرف الدمع, ممسكًا بالكفن الأبيض, وعلى السرير برفقة الجثمان المغطى بملاءة قطنية بيضاء, وُضعت صابونه, ولفافة قطن, وقنينة عطر, وورق نَبق وكافور, حينما شاهدت فاطمة حاجيات الغُسلُ كادت تصرخ من جديد, لكنها مسكت نفسها, وتماسكت وطلبتْ من أخيها بلهجة ليست آمره لكنها من هول الموقف نافذة, أن ينادي أخويه ويأتوا سريعًا لأن أباهم له وَصِيّة, كان قد طلب منها أن تفتحها قبل غُسله في حضور الأربعة, نفذ حُسَين, وتجمع الأربعة في الغرفة اليسرى الرّطبة, بعدها فض فاروق ظرف بني به الوَصِيّة المُكونة من ثلاث أوراق, الأولى (فلوسكاب) مكتوبة بخط الدكتور مجدي بالعامية, والثانية باللغة العربية الفصحى مطبوعة (بالكمبيوتر) ومنسقة بداخل إطار, والثالثة ورقة قديمة مُصفرة بها عناوين منازل وأرقام تليفونات لخمسة أشخاص وأسمائهم الثلاثية, مدونة بخمسة خطوط مختلفة.

قرأ فاروق أول ورقتين بصوتٍ عالي, قبل أن يخبط الباب بكفه الكبير, وهو يتساءل في عجب اختلط بغضب جاور الحزن الذي بداخله, عما دفع الحاج لكلامٍ كهذا, أطرق الأربعة ورحلوا في نوبة تفكير صامت ثقيل, يشوشه صيحات الجارات الحزانى التي تنفذ بصخبٍ من وراء باب الغرفة الخشبي. لأن فاطمة تعلم أن أخواها التوءمين على مَرس واحدٍ؛ ليست لهم أي كلمة, أو رأي أمام فاروق الأخ الأكبر, لذلك توجهت بسؤاله مباشرة عما ينتوي فعله, فأخرج إشارة من يده أنه مازال يفكر, وما لبث أن طلب من أخيه حسن أن يذهب ليُحضر الكفن الأخضر, قائلًا إنه سيتصل بالمراكبيَّ والخمسة أشخاص, وبتر كلامه وعاد صامتًا, وكأنها شعرت ما قرره أخوها فذّمت فاطمة شفتيها, واتسعت عيناها السوداويان على أخرهما, فبانت أهدابها المفروقة وتنمرت نظراتها له, وصمتت ترمقه قليلًا, قبل أن تندفع فيه سائلة بلهجةٍ حادة إن كان انتوى مخالفة الوَصِيّة, رد عليها بصوتٍ انحشر نصفه في حنجرته, تهربًا من الإجابة, أن ما كتبه أبوهم لن ينفع ولن يُفيد تنفيذه, وأن هذه الوَصِيّة ستجلب لهم مشاكل هم في غنى عنها, فاستدركته وهو يتحدث لا يزال, قائله إنه طوال عمره لم يكن رجلٌ يُعتمد عليه, وراحت تلطم من جديد على وجهها المُزرق بالفعل, وأخذت تنادي على أبيها أن يعود ليرى خيبته في أولاده, ازداد تضطرج وجه فاروق أكثر, وأمرها أن تخرس, فردت بسرعة البرق أن يخرس هو, ففقد الأخ الأكبر السيطرة على أعصابه, وجز على أسنانه, وذم شفتيه الغليظتين واقترب بسرعة المشاجرات الذكورية خطوة منها, وطوّح قبضته بقوة قاصدًا أم رأسها, جسد فاطمة الضئيل القصير مكنها سريعًا من الارتداد إلى الوراء فطاشت ضربة يده, كان ذلك قبل أن يضربها بقدمه بين فخذيها فصرختْ, وأثنتْ جذعها ألمًا, وعينيها المتورمتين فاضت بالدموع من جديد, وهي تنظر لأخيها باستسلام ملون بالحزن وكأنها تُعلن تقبلها لأمره صاغرة, كان ذلك حين خلعت طفلتها الجالسة بين النسوة ذات الأربع سنوات وإحدى عشر شهرًا سترتها مرة واحدة وبغرابه, وخرجتْ تركض من المنزل عارية متشنجة, فأمسك بها الواقفون, وهي تحاول التملّص منهم حتى سلّموها محمولة لخالها حُسَين, الذي ألبسها سترتها, وحاول تهدئتها أو معرفة سبب تشنجها, أو عصبيتها المفرطة الغير معتادة, ولكن بلا جدوى, فطفقت الطفلة تحاول الإفلات وخبط رأسها في الحائط, فذهب بها وأعطاها للشيخة رسمية -جارتهم كبيرة السن البدينة التي تحفظ القرءان عن ظهر قلب- التي تجلس مع المُعَزَّيات فابتلعتها في جلبابها الأسود حضنًا, وهمست في أذنها طمأنةُ, وراحت تُرتل أذكار الصباح على رأسها علّها تهدأ أو تنام.

بعدما آزر الشيخ فتحي العتال أولاد المرحوم وعزّاهم, رجع بيته ليرتدي قميصًا أبيض طويل بلا ياقة, وبنطال متسع لونه أسود فاتح, أقرب إلى الرمادي صُنع من قماش (الجينز)؛ تعود الشيخ منذ سنين على تخصيصهما لأمور التغسيل والتكفين, قبل أن يبدلهما بجلبابٍ نظيفٍ مكويّ ليصلي على المتوفى, لذلك على الدوام يضعهما نظيفين في ركنٍ خاص أسفل خزانة ملابسه, ارتداهما وعاد إلى منزل الحاج ربيع, سأل الأبناء طمأنة أن الكفن الذي أرسله من المسجد قد وصل, ففاجأه حُسَين بصوتٍ متهدجٍ, وهو لا يرفع عيناه من الأرض, أن أباهم قد أوصى بتكفينه في إيزار وقماش أخضر اللون وليس أبيض, وأن أخاه حسن ذهب ليحضره, أومأ الشيخ رأسه تفهمًا, ووقف مع الرجال في الخارج يدعو للحاج ربيع أن يرحمه الله, ويدخله فسيح جناته, وهم من خلفه يأمَّنون على دعائه, وما لبث أن أفسح المُعزون له مكانًا ليجلس على مصطبة المنزل المقابل؛ فالجميع في حارة (زبيبة) يُجله ويحترمه, ويعلم معاناته مع ركبتيه اللتين أهلكتهما الخشونة والمراهم, في هذه الأوقات كان الابن الأكبر فاروق يمسك بورقة الوَصِيّة الثالثة -المُصفرة- ويطلب منها الأرقام الخمسة, ومثلما تحدث في الجنازات وأمور الموت بعض الصدف أو التيسيرات القدرية, التي إن أرادها الإنسان تعانده دائمًا في الأوضاع الطبيعية, فقد استطاع فاروق ومن أول خمس مكالمات الاتصال بالخمسة أشخاص, أنعى لهم الحاج ربيع, وطلب منهم أن يأتوا ليحضروا صلاة الجنازة كما أوصى والده, ثم اتصل بمراكبي كان قد تعامل معه من قبل, فأجاب من أول مكالمة هو الأخر, ووافق بدون تفكير على ما طلبه منه فاروق.

عاد حسن ينهج, ومعه الكفن المكون من إيزار وثلاث ملاءات خضراء, طول كل منهم 210 سنتيمتر, وعرض أي منهم 160 سنتيمتر, ما أن رآه الشيخ فتحي حتى قام من مقعده على المصطبة, شَمر ساعديه, وراح (يُبسمل ويُحوقل), وقف حسن لثوانٍ مرت سنون يقلب النظر بين أخويه والشيخ فتحي, يُريد أن يُفصح عن شيءٍ, لكنه خشي ردّة فعل فاروق, شعر فاروق بذلك فبادره وأمره أن يدخل مع الشيخ فتحي ليتموا عملية الغُسل, وطلب من حُسَين مساعدتهما, فيما سيقف هو أمام البيت ليستقبل المُعَزِّيين والأقارب.

في الغرفة اليمنى وبواسطة شباب الحارة كانت طاولة تغسيل الموتى حاضرة من الجمعية الشرعية, مصنوعة من مادة (الاستانلس ستيل) المقاومة للصدأ, بطول الإنسان وارتفاع متر من الأرض, مقعرة المنتصف حتى لا ينسرب منها الماء, وفي آخرها خرطوم لتصريف ماء الغُسل, دخَّل الشيخ فتحي الحجرة يقرأ آيات قرآنية وأدعية والنجلان في إثره, أغلقوا الباب ورائهم, بنظراتٍ خبيرة متفحصة تأكد الشيخ فتحي أن كل شيء يخص عملية التغسيل والتكفين موجود, سمى الله, وأزاح الملاءة البيضاء قليلًا عن وجهه, وأسبل بيديه العينين الشاخصتين, رغم كبر سن الشيخ فتحي أو عمره الذي جاوز الخمسين إلا إنه قوي اليدين والأعصاب, سريع الحركة كأنه شاب في العشرين, لذا اشترك مع حسن وحُسَين في رفع الجسد المسجى من على السرير إلى الطاولة. بينما التوءمان راحا يساعدانه بأعصابٍ منهارة, ودموعٍ تنسال كجرحٍ لا يتوقف عن النزيف, صبَّرهما الشيخ فتحي وطلب منهما أن ينظرا إلى وجه أبيهما وما يشعّ منه من نورٍ رباني.

كما هي أصول السنة المحمدية غطَّى الشيخ فتحي بسترةٍ قماش ـ فوطة ـ عرضها يقترب من المتر, عورة الحاجّ ربيع من أسفل ركبتيه حتى أعلى سرّته, فأزاح الابنان الملاءة البيضاء, واخلعاه الجلباب الذي مات فيه, بينما راح الشيخ فتحي يقبض على طرفي الفوطة بكلتا يديه, لئلا تنكشف عورته, في هذه اللحظة رأى الشيخ فتحي جثة الحاج ربيع وكأنها ترمش, فاتّسعت عينان الشيخ هلعًا, قبل أن يُغلقهما ويفركهما بيديه, هلع الشيخ حَير الولدين, وأثار اندهاشهما, لم ينطق الشيخ بشيءٍ, فقط واصل عملية التغسيل, وحرك مفاصل الفقيد الأربعة تليينًا لهم من صمل الموت؛ لتسهيل حركة الجثمان عند تقليبه لعمليتي غُسل الجنابة والتكفين, بعدها أجلسوا الجِرم نصف جلسة, وضغط الشيخ بيديه على أمعائه بحركة دائرية؛ إفراغًا لمَّا بهم من أذى, قبل أن يلف على يده خرقة قاصدًا أن يستنجيه بها من تحت السترة القماش, في تلك اللحظة تسربت إلى أنف الشيخ فتحي رائحة نار تحرق شيئًا, فنظر بعفوية إلى وجه المرحوم, ففزع من جديد وابتعد خطوتين عن الطاولة, وألقى بالخرقة بعيدًا, وهو لا يزال يَرمُق وجه جثة الحاج ربيع بجزع, ويدمدم بكلمات ليس لها معنى, غير مصدق أن جثة تفتح عينيها وتحملق فيه هكذا!

كان الأخوان يحاولان سؤاله ليطمئن قلبهما قبل قلبه, لكن هيهات, ظل الشيخ يرنو إلى الجثمان ويرفع يداه نافيًا كأنه يقول لحدهم: "لا", وراح يردد آية من سورة الإسراء ونصفها الثاني بسرعةٍ وصوتٍ مرتجفٍ: "((إنَّ

عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً.. وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً.. وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً))", قبل أن يفتح باب الغرفة, ويخرج منها كمن أصابه ماسًا من كهرباء, فبات في موضع رؤية للسيدات اللائي على يساره, والرجال الذين أمامه, فأزدرد ريقه الذي لم يكن موجود, ونطق الشهادة عدة مرات, وقبض على يده محاولا تهدئة نفسه, فيما كان حسن وحُسَين يلاحقانه بالأسئلة لا يزالان, ليتحرك الثلاثة لا إراديًا إلى الغرفة الوسطى الخالية من الناس بعدما أغلقوا الغرفة اليمنى, غرفة الجثمان.

مقبوضًا منكمشًا سألهما الشيخ مستنكرًا, وقد بلل العرق نصف قميصه الأبيض العلوي بالكامل, عن وجود ميت يفتح عينيه وتخرج منه رائحة نار! لم يتلقَ ردًا على سؤاله الاستهلالي, فأستطرد مردفًا إنه رأى عيني أبيهما مفتوحتين على آخرهما, لونهما أحمر كالدم, وإنه عندما انتفض في المرة الأولى, رآه يفتح عينيه ويغلقهما, لثوانٍ أطرق الأخوان مُفكرين, قبل أن يُجيب حُسَين أن رائحة النار دخلت من النافذة التي تطلّ على الشارع الخلفي للبيت, ابتلع الشيخ ريقه من جديد وسألهما عن العينين الحمراوين, فنفى الأخوان مشاهدتهما لشيءٍ كهذا, وللتأكيد ذهبا وفتحا الغرفة اليمنى, ودققا النظر في العينين, ومن خلف كتفيهما طلّ الشيخ ليبدد أو يؤكد هواجسه, فلم تختلف رؤية الشيخ عن رؤية الابنين, كان الحاج في أنظارهم جميعًا نائم في سلام مُسبل العينين! (حوقل) الشيخ فتحي مرتين, ثم حاول بث الثقة في نفسه؛ قائلًا إنه هذه الأيام لا يدري لماذا هو قلقًا باستمرار لا ينام تقريبًا, ويرى ويسمع أمورًا غريبة, هون على نفسه بعد ذلك بأنه ربما يحتاج إلى الراحة, قبل أن يستدرك أنه شاهد الكثير من أمور الموت الغريبة ولم يشعر بالخوف, إلا هذه المرة, قبل أن يتأسف لهما إنه لن يستطع إكمال الغُسل, ولعلَّه حاول استعادت ثقتهما في شخصه؛ فسألهما بصوتٍ خفيضٍ: "هل قال لكما أبوكما شيئًا؟ هل ظلم أحدًا قبل موته؟ أم مثلًا في رقبته دّين لم يسدده؟" رمق الأخوان بعضهما وأطرقا في تواطؤٍ صامتٍ يصمّ الآذان, فهز الشيخ رأسه وكأنه التقط من سكوتهما فهم!

في هذه الأثناء هبت رياح فجرية باردة قوية على الحارة, فخففتْ ولو قليلًا على الجمعُ المُعَزِّي من حرارة الفقد, لكنها على ما يبدو أخرجت عَقْرَباءُ صفراء فاتحَة لونها عن مسارها وجعلتها تلامس فاروق, الذي لم يحميه شبشبه المفتوح منخفض الارتفاع من لدغة بقدمه, ليجد ألمًا شديدًا استعر بكعبه الأيسر, ألمٌ لم يكن أشد مما في قلبه؛ فدونما هلع أو خوف نظر على موضع الألم في رجله, فوجد العَقْرَباءُ واقفة بين قدميه, وكأنها بريئة لم تفعل شيئًا, فرفع قدمه السليمة سريعًا ليهرسها تحت شبشبه البلاستيكي فأخطأها, حين ارتعدتْ العَقْرَباءُ وأكملتْ إفراغ ماء سُم ذَنبها بقدمه اليسرى قبل أن تفرّ, هَرج ومَرج ساد الوقوف؛ هَرَع أحدهم وشق موضع السُم (بمطواة) صغيرة, ولتخفيف الألم أسرع أخر وجلب مكعبات ثلج من منزله, وأخرج شحاته النجار منديلًا (محلاوي) أبيضًا كبيرًا من جيب جلبابه, واستخدمه كرباط فوق الجلد الملتهب؛ خشية تحرك السُم إلى القلب, بعدها اتكأ فاروق على اثنين من المُعَزِّيين, وتحركوا قاصدين أقرب مستوصف لأخذ المصل المضاد, ولحق بهم الدكتور مجدي, فيما هربتْ العقربة بفعلتها!

أخذ حُسَين يرمق أخاه الأكبر الملدوغ وهو يبتعد, ومادت عيناه بصورتي ابنة أخته المتشنجة, والشيخ فتحي المهرول خارج غرفة الغُسل, حينها التفت فاروق إلى الوراء وبانت في عينيه نفس نظرة الصغور الملونة بالحزن التي ظهرت في عيني فاطمة منذ قليل, فراح يسأل نفسه أينتظر حتى تحدث مصيبة أخرى؟ بدون أن ينبس دخل حُسَين وأحضر الوَصِيّة بورقاتها الثلاث, وأعطها للشيخ فتحي العتال, غير مهتم بالخوف الذي تلبد على قسمات حسن, بدأ الشيخ يقرأها من البداية, فأشار عليه حُسَين أن يقرأ البند السادس من الورقة الثانية, تغيرتْ ملامح الشيخ فتحي تدريجيًا من الخوف والحيرة التي بدأ يقرأ الوَصِيّة بهما, إلى الغضب والاشمئزاز حين نطق مردفًا, أن أباهما هذا رجلٌ مُخرَّف, وأقسم بالله أنه لم يعمل ولو ليومٍ واحد بالعِتالة, وعاد يُكرر وهو يضغط على مخارج الحروف أن أباهم رّجل مُخرَّف, قبل أن ينتبه أن الأخوان يُنكسان رأسيهما, في إشارة واضحة أن نعت أبيهما بالخرَّف يؤذي مشاعرهما, تمالك نفسه متجرعًا غصص الغيظ التي انتابته, استغفر ربه العظيم, وهو يضرب كفه الأيمن بالأيسر, ثم سَكت برهة ينتقي كلمات تُناسب ما هم فيه, ثم حاول أن ينسيهما ما بدر منه من إساءة, فاستطرد كلامه بتعنيفهما قائلًا أن وَصِيّة الميت واجبةُ التنفيذ, مهما طُلب فيها من أمور غريبة, وأنه إن كان تم الدفن بدون تنفيذ الوَصِيّة كانا سيحملان في عنقهما وزرٍ ثقيلٍ سيحاسبان عليه في الدنيا قبل الآخرة, حاول الأخوان أن يتحججا بفاروق, فكانت إجابة الشيخ حاضرة بدون تفكير: "أسيُحاسب فاروق بدلًا منكما؟!" استدركا أنهم يخشون الناس؛ الجيران المُحبين كيف سيخبرونهم بأن أباهم طلب ألا يمشي أحدًا

منهم في جنازته, وهل سيصدقونهم؟! أم سيتهمونهم بالكذب, وخبث النوايا لمّا يعرفونه عن أخلاق أبيهم وطيبته, وحتى وإن صدقوا, كيف بعدها سيتذكرون جارهم العجوز الذي طردهم من جنازته؟! ابتلع الشيخ فتحي ريقه, وزفر وطلب منهم بثقة أن يتركوا أمر الناس له؛ فعلى الأقل لن يكذبوه.

ارتقى الشيخ درجات المنزل الثلاث, الحارة أمامه ممتلئة عن أخرها بالمُعَزِّيين, تجاهل أسئلتهم وذهب واعتلى المصطبة, وبدأ يمهد لهم الموضوع؛ أن الحاجّ ربيع ـ رحمه الله ـ أب وأخ أكبر للجميع, كلهم يعرفونه, ويعرفون أنه قضى حياته معهم, لم يتأخر أو حتى يتردد في الوقوف بجانب من يطلب مساعدته, وأنهم كلهم بلا استثناء مُدانون له بمالٍ أو خدمةٍ أو مساعدةٍ, إذًن وجب إن أخطأ في حقهم وهو حي أو وهو ميت أن يسامحوه, ويتذكروا أفعاله الخِيرة تجاههم, قبل أن يردف لهم أن المرحوم كتَّب وَصِيّة تفاجأ أبنائه أنفسهم بها, طَلب بها أكثر من بند غريب, مثلًا أن يُفسح بعد أن يموت بمركبٍ, تجاوز الشيخ فتحي عن الضحكات التي سمعها وأتبع سريعًا كأنه يُلقي حملًا ثقيلًا بأن أغرب ما أوصى به على الإطلاق هو ألا يشيعه أحدًا من سكان الحارة أو يُصلي عليه, مع آخر ما نطق به الشيخ فتحي, ضجت الحارة بالغمغمات, ونضحت التساؤلات, وزمجرت الحناجر, وتعالت بالاستنكارات, التي وصلت إلى حد سماع سُبة نابية عالية في حق المرحوم وأبنائه, تجاوز عنها الشيخ أيضًا, ورفع عقيرته حد الصراخ مستطردًا إنهم جميعًا لا يملكون إلا التنفيذ, والدعاء له بالرحمة والمغفرة ومسامحته, ليس هذا فحسب, بل مساعدة أبنائه على تنفيذ تلكن الوَصِيّة, فهم ما كان عليهم إلا الاستجابة وإلا وقعوا في الإثم العظيم, والعياذ بالله, واستشهد بآية قرآنية: ((فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ))، بدأت كلمات الشيخ تؤتي أكلها, وتُبرد, ولو قليلًا, من حالة السخط الساطعة التي عمتهم, ورويدًا رويدًا أنفض الجمعُ المُعَزِّي وبدأت الحارة تعود إلى هدوئها في مثل هذه الأوقات, ولم يعد يتبقى أمام البيت من الرجال غير حسن وحُسَين وثلاث من الأقارب الذين لم تشملهم الوَصِيّة.

بعد ذلك مرت الأحداث على جثمان الحاج ربيع بسرعة ويسر الجنازات التي يُحمل فيها الطيبين, حيث وصل الخمس أشخاص الذين اتصل بهم فاروق تباعًا إلى الحارة, تم تغُسيل الحاجّ ربيع وتكفينه من قبل أكبرهم سنًا, والذي يُدعى المهندس صبري بمساعدة حسن وحُسَين, رغم قِلّة المُشيعيّن -بناء على الوَصِيّة- امتلأ مسجد أسد بن الفرات بالمتطوعين لصلاة الجنازة, كانت هذه فكرة المهندس صبري أيضًا, أن يتركوا مسجد الجمعية الشرعية, ويذهبوا إلى المنطقة التي يسكن بها ويعرفها كي يجدوا عددًا من الناس يشاركوهم الصلاة على الفقيد, وقد كان. رغم حالة إعياءه الشديدة لَحقَ بهم فاروق, الذي جاء متعكزًا على الدكتور مجدي, ومن ثم أتموا صلاة الجنازة بتكبيراتها الأربع, وقوفًا بلا ركوع أو سجود, قبل أن ينقلوا الجثمان, إلى مركب صغير للرحلات, كانت تنتظرهم أمام مبنى ماسبيرو, وُضع النعش عليها وطافت فوق سطح نهر النيل, لمدة ثلاث ساعات, من الثامنة إلى الحادية عشر صباحًا, لم يصدح فيهم من سماعاتها الضخمة إلا صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد, فيما رَفَضَ المراكبي وبشدة أن يأخذ قرشًا أزيد من ثمن (السولار), معتبرًا ما قام به ثوابًا له, وتطهيرًا للمركب, وهم يرددون عبارة التوحيد: " لا إله إلا الله", حملوا النعش, إلى المثوى الأخير, دفنوه بجوار والديه, وجلس المُهندس صبري فوق موضع الدفن ليلقنه الشهادة, وأن الموت حق، والجنة حق، والنار حق، وأن الله يبعث مَن في القبور، داعيًا له بالتثبيت عند السؤال, قبل أن يرحلوا جميعًا تاركينه وعمله فقط.

غاصتْ الحارة هذا اليوم في سكونٍ مُقبّض, إلا من الأنشطة والثرثرة اليومية المُعتادة لأهلها التي دارت كلها عن موت الحاجّ ربيع, وما حمله لفعل كهذا معهم, وهم أهله وجيرانه المُخلصين, لكنهم في الوقت ذاته أثبتوا أن ما كان يتخوف منه فاروق وأخوته غير صحيح, حيث نجحوا في احتواء ضيقهم وسخطهم, وحضروا بكامل عددهم إلى سُرادِق الجمعية الشرعية ليقدموا واجب العزاء, مُشاطرين الأبناء الثلاثة أحزانهم, فيما عكفت النساء على مؤازرة فاطمة في المنزل طوال أيام العزاء الثلاثة.

****

لعلّه خشيّ أن يخسر زوجته الدكتورة تغريد كما خسر صديقه العجوز؛ فرغم أن الدكتور مجدي أقسم عشرات المرات في السرّ والعَلن إنه لن يُصالحها هذه المرة؛ لأنها أهانته, وسيتركها حتى تتعلّم الأدب, إلا إنه ذهب إلى منزل والدها بعد وفاة الحاج ربيع بأسبوع, واعتذر لها, ومع تمنعها وعَدها, واسترسل في الوعود إنه سيُغير من

نفسه ومن كل خصاله التي لا تُعجبها, لم يقنعها كلامًا عاد يردده على مسامعها في كل مشكلةٍ بينهما, ولكنها وافقت على مضضٍ أظهرته له في عينين تتحاشاه, وشفتين لم تنفرجا أمامه ولو لمرة, بعد ذلك ما لبثت الدكتورة تغريد أن وضعت حقيبتها في شقتها, حتى نزلت إلى الحارة لتعزية فاطمة والأولاد الثلاثة, وهناك تناهى إلى مسامعها أحاديث عن الوَصِيّة العجيبة, ووقع صدمتها السيئ على الجيران, وكيف لا وهوائهم خُلط بصهدٍ من سجيل, فلعدة أيام ظل موت الحاجّ ربيع ووَصِيّته غصة في حلوق أهل الحارة, مررت الأحاديث بينهم, مغبة أتتهم بغتة أوغرت الصدور نارًا, وأحرقت الأعصاب ولم تنس الحناجر والأفواه, صحيح أنهم لم يدخروا أي جهد لمساعدة أبنائه والوقوف إلى جانبهم في محنتهم ولم يتغيروا معهم, لكنهم ظلوا لما حدث يوم الجنازة متألمين, فوقفت الدكتورة تغريد فضولًا تنظر وتقرأ اللوحة الإعلانية الكبيرة التي عُلقت على باب دُكان الحاج ربيع, والتي كان مكتوب بأعلاها الآية 181 من سورة البقرة ((فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)) ومن أسفلها: (وَصِيّةُ المَرحوم كاملةٌ), ومن تحتِها سطور الوَصِيّة التي تبدأ بجملة (أبنائي الأعزاء) وتنتهي بجملتي (بأيدي من لا أعرفهم.. وأخيرًا السلام ختام) فيما كان مُلصق على اللوحة الإعلانية من الأسفل ثلاث ورقات, مثلوا الصور الضوئية لأصل, ورقات الوَصِيّة الثلاث, دققت النظر, أول ورقة كُتبت بخط يد سميك لم تجهله لأنه يخص زوجها, والثانية مكتوبة بجهاز (الكمبيوتر), والثالثة بخطوطٍ مختلفة, عرجت ببصرها إلى الأعلى وبدأت في قراءة الوَصِيّة المكتوبة على اللوحة الإعلانية بتأملٍ:

الورقة الأولى

أبنائي الأعزاء...

فاطمة. فاروق. حسن. حُسَين

لو كنتِ يا فاطمة تفتحين الوصية وتقرئيها لوحدك فأنا لست راضيًا.. أعرفك يا بنت صلبي فضوليه كخالتك الله يرحمها.. ولو سمعتي الكلام وفاروق هو الذي يقرأ الآن وأنتِ وحسن وحُسَين بجانبه هذا يعني موتي, الله يرحمني, ويُحسن إليكم في هذا الغلاء, فكرتُ في كتابة وصية كما يعمل ناس السينما و المسلسلات.. لكنكم تعلمون أنا لا أملك غير الدكان والبيت, ولا يمكن أن أعطيكم غير نصيبكم الشرعي من الاثنين, علاوة على أني لا أكتب أصلًا.. ومع ذلك قررت أن أكتب وصية.. أليس لي نفسًا؟ أم سأظل حتى بعد موتي لا أختار حاجة! في هذه الورقة التي يكتبها الدكتور مجدي الآن بيده أطلب منكم أن تخافوا على بعضكم وهذا أهم ما أريد.. فاروق أنت عصبي وعضاض, لكن قلبك أبيض كالصغار أهتم بأخوتك وكن صبورًا.. وأنتم لا تغضبوا منه.. مهما تصرف فانا لا أعرف من أين أتاه هذا العرق التركي الذي

يجعله يتصور أن من يخالفه الرأي عدوه..الله يهديه.. حُسَين أنت طيب بزيادة وهذا لا يصلح في زمنكم الأغبر, هذا ونفس الكلام لحسن الناس في هذا الزمن لا يصلح معهم إلا الجريء.. وهنا أقول لكما تعلما من فاروق.. فاطمة سيدة الدار ست أبيها.. أنتِ بالتحديد سأشتاق إليكِ أنتِ وبنتك كثيرًا.. أنا ذاهب عند ربنا.. لا أعرف إن كنت سأشعر بكم وبمشاكلكم وأفراحكم هناك يا أولادي أم لن أشعر بشيء بعد الموت.. اِهتموا ببعض.. وأكملوا على المبلغ الذي ادخرته واشتروا المحل المراد لتكبر التجارة.. فاروق.. حسن.. حُسَين قفوا بجانب فاطمة, ولو اللطخ زوجها عاد من ليبيا, لا تسمحوا له أن يمد يده عليها مرة ثانية.. للمرة الأخيرة أقول لكم اهتموا ببعض.. حافظوا على بيوتكم وأولادكم.. اتحدوا واعتصموا بحبل الله.. ولا تجعلوا شيطانًا يدخل بينكم ويفسد محبتكم لأي سببًا.. وأدعو بالرحمة لي ولأمكم في كل صلاة.

الورقة الثانية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

تعرفون يا أبنائي ويعرف الجميع أني قليل الاختيار, ربما لم اختر شيئًا في حياتي أبدًا, رحّم الله, جدكم وسامحه هو من اختار لي مهنتي وزوجتي الأولى الخائنة رغم اعتراضي عليها, وكنتُ وقتها محق في هذا, واختار زوجتي الثانية, أمكم, ورغم اعترضي عليها أيضًا, لكنه أتضح بعد ذلك, أنها ابنة أصول, رحمها الله, كانت حكيمة افتقدتها كثيرًا, وها أنا ذاهبٌ إليها, وسأبلغها أنها كانت محقه في إصرارها على تعليمكم جميعًا, حتى البنت منكم, لا يخفى عليكم أن أمكم هي من كانت تدير البيت وتُدبّر أموري, أصارحكم بأني في بداية زواجنا كنت أظنها امرأة متسلطة, وكنتُ على خلاف معها, حتى دخلتُ المستشفى لإجراء جراحة استئصال الورم من رقبتي, وقتها كان أكبركم فاروق لم يتعدى عمره السنتين, رأيتها كيف تُجالسني, وتزعق بالممرضات, وتبكي بحرقه من أجلي, فكرتُ بعد خروجي من غرفة العمليات, إذا كنت لا أعارض أبي الذي يريد مصلحتي, ولا أتناقش معه لخوفي منه واحترامي له, فلماذا أعارض

أمكم؟! وهي أيضًا تريد مصلحتي ومصلحتكم جميعًا, وإذا كنت اختنق من تدخل أبي في كل صغيرة وكبيرة في حياتي, فلماذا أكرر التجربة وأضغط عليكم وأتدخل في شئونكم؛ ومن يومها تركتُ لأمكم الحبل على الغارب؛ تتصرف كيفما تشاء وأسمع أنا كلامها حتى فيما ألبسه وأأكله, أنا تقريبًا لخصتُ كل ما يحدث في الدنيا, كما يقولون (وصلتُ) من الآخر؛ فالبني آدم يعتقد توهمًا أنه يمتلك حرية الاختيار, وفي الحقيقة ما يمتلكه هو لذّة الاختيار فقط؛ لأن كل شيء مكتوب له من قبل أن يولد, الموضوع بالضبط يشبه موقف حدث حين كان فاروق بعمر الست سنوات, كان من صفاته في الطعام, أنه يكره الأرز ولا يأكله أبدًا, ويسعى لتذوق أي طعام جديد, يومها صنعت أمه قدحين, في إحداهما أرز باللبن, وهو النوع الذي لم يأكله فاروق من قبل, والثاني ممتلئ (بالمهلبية) وهي الطعام المُفضل له, كانت تعلم أنه في البداية ستمتد يده ليتذوق الأرز باللبن ثم سيبصقه, ويأكل من (المهلبية) وهذا ما حدث بالضبط, هي لم تَعلم الغيب, بالتأكيد, هي فقط خبرت بعقل من رَبت, فما بالكم بمن يعلم متقلَّبنا ومثوانا, عقل فاروق في البداية صور له أن الأرز باللبن أنسب له, فتمتع بلذة تجريبه, وذاك بناءً على صفة حُبه لتجريب كل جديد, وحينما جعله اختياره من المشمئزين, قرر بصقه بناءً على عادته التي التصقت به, وهي العادة التي يعرف أن أمه لن تنهاه عنها, ولذلك فعلها مستمتعًا بتملك أمره في اختياره الثاني, قبل أن يذهب (للمهلبية) أو الاختيار الثالث الذي تمتع به بالفعل, في هذا الموقف الصغير, وكذا حال البني آدم في كل مواقف حياته الكبيرة, يظن أنه يختار الأنسب له من بين ما أمامه بكامل إرادته, لكن الحقيقة أنه لا يعرف أن (الأنسب) ترجع لأشياء هو لم يخترها, فُرضت عليه, وتكونت فيه, وأصبحت بالتتابع صفاته فأخلاقه فأفكاره, ومن ثم تُبنى عليهم أقواله وأفعاله, التي يُبنى عليهما ردّة فعل الناس تجاهه, وردّة فعله عليهم بعدها, البني آدم فقط يستمتع بلذّة اختياره ويتحمل مسئوليتها, وهي التي تجعله من الأشرار أو من الأخيار له الجنة أو النار, ومن وقت خروجي من غرفة العمليات قررتُ أن أعيش أيامي بدون تفكير, وأن أجعل أمكم تسعد بلذة الاختيار ليس لها فقط, بل ولي أيضًا بدون مناكفة مني, والحمد لله

راضي عن نفسي وعنكم, كل منكم اختار أن يعمل فيما أحب, وتزوج ممن أراد, والحمد لله, لم أمت وأنا صاحب الملايين فيدخل الطمع والغل في قلوبكم من بعدي, ولم أمت وأنا صاحب نفوذ في حكومة فيقابلكم الناس بعيون يملأها الكره, أو تسمعون الدعاء عليكم في الشوارع وعلى الفضائيات, ولم أرحل وأنا شخص مشهور فتضطرون أن تذرفوا الدموع عليّ أمام (الكاميرات) كذبًا, متّ مستور وتركتكم أحياء مستورين, وقررت قبل أن تحملني الأكُفّ والأيادي إلى بيتي الأخير, أن أجرب لذّة الاختيار حتى وإن كانت في أمور بسيطة, وأكتب وصاياي وعليكم تنفيذها:

أ- هذه الورقة طلبتُ من الدكتور مجدي أن يكتبها بالفصحى ويجعلها منمقة, لتعلقوها على باب الدُكان ليعلم أهل الحارة بوصاياي.

ب- هناك خمسة أشخاص قابلتهم في رحلة الحج, لم أعرفهم جيدًا لكني أحببتهم من شيئين؛ مواقفهم معي, وذلك الإيمان الطال من وجوههم. أريدهم أن يصلوا عليّ ويدفنوني ويلقنوني, وأريدكم أن تسلموا لي عليهم جيدًا وتخبروهم: أن الحاج ربيع, والله, ما أحب أكثر منكم, رغم أنه حزين لأنكم لم تأتوا لزيارته, كما وعدتموه في مكة, ستجدون بياناتهم في ورقة ثالثة منفصلة.

ج- أريد أن أُكفن بداخل كفن أخضر اللون, له ثلاث لفائف وإيزار.

د- أنا كما تعلمون وُلدت فوق سطح باخرة, وأريد أن اختتم حياتي على سطح باخرة أو مركب تعبر بي النيل, وأن أدفن بجوار أبي وأمي.

هـ- حارة (زبيبة) لا تقولوا عليها إلا حارة (زبيبة) لعن الله تسمية الشارع, التي أحاطتنا بالأغراب معدومي الذوق والإحساس والنخوة, إلا من الدكتور مجدي ومن مثله.

و- فتحي العتال الذي يروج كذبًا أن العتال لقب عائلته, وأنه لم يعمل بالعِتالة لا يُغسلني ولا يُصلي عليّ, وأهل الحارة كلهم وأقاربهم

وأصدقائهم, لا يُصلون عليّ ولا يتبعون جنازتي, إن كانوا هم قدري فقد تحملت رذالتهم وقذارتهم وكذبهم وفهلوتهم وقلة تربيتهم لأبنائهم بما فيه الكفاية, وقابلتُ إساءتهم إليّ بالحُسنة, وعاملتهم بما يُرضي الله طيلة عمري, ويعلم الله أني لا أكره أحدًا فيهم, ولكنه وقتي أن اختار الابتعاد عنهم, والارتياح منهم, ولو قليلًا, حتى وإن كنتُ سأُرفع بأيدي من لا أعرفهم.. وأخيرًا الختام سلام))

عادت الدكتورة تغريد إلى شقتها برأسٍ ملؤها ما قرأت, راحت تُقرّن كلام الحاج ربيع ومواقفه معها في حياته, بالأمور التي طلبها بعد مماته, باتت ليلتها على سريرها تستفسر وتناقش زوجها في مواضيع وبنود الوَصِيّة, مُلقية عليه باللوم تلميحًا لإخفائه عليها أمرها, فيما يجيبها هو أنها أمانة وعلى أي إنسانًا صالحًا أن يكتمها وينفذها بحذافيرها, مهما كانت النتائج أو ما سيحدث بعدها, وسرد لها ما لا تعرفه بأن الحاج كان يرغب في كتابة وَصِيّة له, وفي إحدى جلساته معه, التي كان يقوم بعدها مندهشًا من حكمته وعلمه الواسع بشئون الحياة التي أختصه هو فقط ليفيض له بها, أملاه ورقتين (فلوسكاب) الأولى يمكن اعتبارها خطاب لأبنائه, والثانية بها ستة بنود يرغبها, ليحتفظ بعد ذلك بالورقة الأولى بداخل مظروف بُني, إلى جوار أخرى قديمة مُصفرة مدون بها أسماء وعناوين يُحافظ عليها, ويطلب منه أن ينمق الورقة الثانية, ويُعيد كتابتها بالعربية الصحيحة, ويأتي له بها في المرة القادمة, لأنه أرد أن تعلق على صدر بوابة دكانه بعد مماته, وهذا ما حدث بالضبط, لكن فاروق فضل أن يُعلق جميع أوراق الوَصِيّة, الثلاث, إلى جانب لوحة إعلانية كبيرة, تتجلى للأعمى, نُقل عليها ما في أوراق الوَصِيّة, إثباتًا لأهل الحارة أنه وأخوته لا دخل لهم فيما طلبه والدهم, ثم أردف لها أن الحاجّ طلب منه أن يَكتّم هذه الوَصِيّةُ كسِرٍّ, ولولا ذلك لكانت أول من تعرف بكل تأكيد, مس الفخر قلبها من كلامه, ونبض من إعجابه بخُصُلات شعرها البُنية الفاتحة التي صبغتها من ساعات, وراحتْ شفتاها تنفرجان لأول مرة أمامه, منذ غضبها الأخير بسبب إحدى أكاذيبه عن عمله, متسائلة لماذا تحرمه من فرصة جديدة؟! فالموت يعظ, ويبدل, ويعلم المقربين فلِمَّ لا يُصلح شأنه؟

بعد ليلة عوضا بها ابتعادهما عن بعضهما, استيقظت الدكتورة تغريد, وراحت تُصلح من فوضى بيتها التي حدثت كنتيجة طبيعية لغيابها, قبل أن تتوقف أمام مظروف بني وجدته ساقطًا, خلف مكتبة غرفة الجلوس, كُتب عليه (وصية ربيع العطار) فضولًا فتحته لتجد به ورقة واحدة كبيرة الحجم من النوعية (الفلوسكاب), مكتوبة حتى نصفها بخط زوجها السميك بالعامية, قرأتها, كانت تبدأ بجملة (الورقة الثانية.. السلام عليكم...) وتنتهي بعبارة (إلا الدكتور مجدي ومن مثله.. وأخيرًا الختام سلام) تذكرتْ كلام زوجها بالأمس, فتجلى لها أن هذه الورقة هي أصل الورقة الثانية التي كتبها زوجها بيده قبل أن يُعيد كتابتها بواسطة (الكمبيوتر), ويعلقها فاروق مؤخرًا على الدكان, طوتها وأعادتها بداخل مظروفها, لكن ثمة شيئًا غريبًا علق برأسها, دفعها لفتحها وقراءتها من جديد, دارت على نقاط الوَصِيّة فوجدتهم خمس! دقّقت من جديد وأعادت التَعداد كانوا خمس بنود فقط! قدحتْ زناد فكرها فيما أمامها, ولم يوصلها قدحها إلا لظنون سلبية تتعلق بزوجها الذي لا تستبعد عنه فعله مشينة كهذه!

حينما رجع الدكتور مجدي كان مرأى زوجته وهي جالسةً متمرةً والوَصِيّة إلى جوارها كفيل بجعله يجَفل ويرتبك, بادرته بهدوءٍ مصطنع, وطلبتْ أن يشرح لها الأمر بدون كذب قد تعود عليه, أو مراوغة يُجيدها لأنها صدقًا لن تتحمل هذه المرة, قبل أن تناشده بالله على ذلك, عاد برقبته إلى الوراء وكانت هذه حركته عندما يبحث عن شيءٍ أو يفكر في أمرٍ, ثم سحب من المكتبة مصحف صغير, أقسّم عليه أن البند السادس ليس اختلاقًا منه بل هذا ما تمناه الحاجّ وأراده بالفعل, وكان يفكر بشكلٍ جديٍ أن يضعه في الوَصِيّة, لكنه تراجع خشية من ردّة

فعل الناس مع أبنائه, مستطردًا أن الحاجّ كانت معظم أحاديثه تدور معه حول شكواه من أهل الحارة, حيث كان يَشعر أنهم جعلوا حياته جحيم؛ وهذا ما دفعه إلى أن يُنفذ ما تمناه الحاجّ ولم يجرؤ على المُطالبة به علنًا.

لن تنسى أم زهرة التي تسكن في الشقة المقابلة للدكتور مجدي وزوجته الدكتورة تغريد ما حدث بينهما في هذا اليوم, لن يطير من ذاكرتها أن الدكتورة فتحت باب شقتها وعلى وجهها سخط الأرض, محاولةً الخروج والتملص من قبضة زوجها, الذي عاد يبكي وراءها كالأطفال, وهو يكرر الاعتذار, ويطلب منها العفو وفرصة أخيرة, وهي لا تنقطع عن أهانته بكل حَنَق وغضب: "خائن.. سافل.. كاذب" وحين فلتت من قبضته ونزلتْ السَلالُم, أمرته أن يفر من المنطقة لأنها لن تكتم ما علمتْ, وأن يكون عنده كرامة, ويُطلقها قبل أن تخلعه مثلما تفعل مع نعلها.

****

رغم أن ابنه الكبير فاروق قام بإزالة البند السادس من اللوحة الإعلانية والورقة الصغيرة المعلقة أسفلها, وأن الدكتور مجدي قد غادر سكنه بعدما تكشف الأمر للجميع, لكن الموضوع برمته كان كحزمة من الريش لو تبعثرت في الهواء لن تعود متأبشة كما كانت, فاشتعل الحكي بين أهل الحارة ولم يخمد, ليذهبوا في معية من يعذر الحاج ربيع لسنه الحرج ومرضه, ويعودوا بصحبة من يعصف بسيرته النقية عصفًا, ثم ما لبثت مع الأيام أن ذابت الغُمّة التي سببها موته ووَصِيّته, واختفتْ كصخرة خواء ضربتها موجات بحرًا مالحة فلم يعد لها من باقية, حيث لم يعد يتبقى من الموضوع إلا النكات والتندر بينهم, بعدما أُطلق على الحاج ربيع لقب أبو وَصية؛ حدث هذا في ليلة قال شحاتة النجار مازحًا فيها: "أنا سأسير على خطى أبو وَصِيّة وأطردكم من جنازتي كما فعل" فردوا عليه: "نحن بالأساس سنتركك بلا دفن حتى تتعفن جثتك ونحرقها كالهنود" قبل أن يقهقهوا جميعًا بصخبٍ في مَجلسُهم.

لقمة وحشية

هذه الليلة لم يقف في طريقه, عربات قطار المترو الأخير لم تكن مزدحمة بشكلٍ فج, كليلة أي يوم خميس, وكأن الناس استكانوا تحت مكيفاتهم هربًا من الحر, فكانت فرصة سانحة لعماد ليجلس مُستريحًا, طوال هاتيك المحطات التسع التي يمر عليها من عمله بجوار جامعة القاهرة لبيته في روض الفرج, قتلاً للمسافة شغل نفسه بهاتفه, أخذ يتلمس شاشته الملساء مشروخة المنتصف, وقَلَّب في صوره حتى بدا متوحدًا تمامًا مع صوت المترو واهتزازاته المتواصلة, وكأنهما عنصران مُكملين لطبيعة مشاهداته, حال عماد هو حال معظم الناس في حذف أي صورة أُخذت مع أزمة أو مشكله, لتتبقى فقط صوره التي ألتقطها لتُخلد الأوقات السعيدة في حياته وحياة عائلته, صور تتحفز معها ذاكراته, فيبتهج وهو يستعيد تلكن اللحظات السعيدة التي عاشها, أبدل وقَلَب حتى توقف عند المحبوبة؛ تلك الصورة التي إن أعادوا التقاطها مرات ومرات لن تخرج بتلك الروح وهذه الرشاقة, صورة بجودة خمسة (ميجا بكسل) فقط, لكنها تنضح جمالًا طبيعيًا, يُحافظ عليها منذ ثلاثة شهور, مذ التقطها لهم حماه في ليلة عيد ميلاد سميحة شقيقة زوجته, يظهر فيها هو ومنى, زوجته, متلامسان, يضع يده أعلى ظهرها, ويلف ذراعه الأيسر على رقبة ابنهما الأكبر يوسف صاحب التسع سنوات, أما منى على يمينه بيُسراها تُخاصره, وبيمناها تمسك ابنتهما الوسطى حبيبة صاحبة السبع سنوات, ومن أمامهم يجلس ابنهما الأصغر عبد الرحمن بأَربِعته الست على مقعدٍ صغيرٍ, رافعًا رأسه للخلف, ناظرًا لهم بتلقائية طفولية يُحبها كل من يراها, في الصورة كلهم يبتسمون بحبورٍ ورضا, وهذا هو المطلوب منه أن يجعلهم راضيين, عائلته التي بدأ تكوينها من عشر سنوات, حين كان مفهوم حياته هو العمل صباحًا, والزهزقة والسهر مع أصدقائه ليلًا, والحلم بالزواج من فتاة أجنبية شقراء يحسده الكل عليها, تمنحه الجنسية ويُهاجر معها إلى بلدٍ أوروبية, وقتها لم يكن يدرك أن مبتغى ما سيحياه هو أن يعيش ليُربي الأبناء, توقف المترو عند محطة روض الفرج فغام ماضية خلف حاضره, وأغلق شاشة هاتفه, وأنزلق من عربة المترو صاعدًا السلالم العادية للمحطة, بصحبة جمعًا من الناس, بعدما علموا بتعطل الدرج الكهربائي, حتى خرج إلى الشارع, فلفه صَّهدٌ لم تُفلح ساعات الصباح الأولى من تخفيف حرارته, على بعد خطوات بيته كان, ولكنه قبل أن يتجه إليه انحرف إلى عم حمادة, ثم رفع عماد تليفونه وفتح ملف الملاحظات, وقرأ الملاحظة الأخيرة التي كتبتها له منى زوجته على أذناي عم حمادة صاحب "السوبر ماركت" : "عبوة مسحوق يدوي, سكر, ملح, أرز, ثلاث أكياس لبن, خمس قطع صَّابون غسيل, علبة ناجتس فرجللو وغيرها من نفس النوع للبرجر" وبعدها: "ثلاث قطع هوهوز" الطلب الأخير كان من عنده, أملًا في أن يُحلي به ليلة أولاده, أحضر عم حمادة الطلبات, فأعطى له عماد ورقة بمائتي جنية, ليُعيد له الباقي الذي كان ورقة واحدة بعشرة جنيهات يُصاحبها جنيهان معدنيان, رمقهم عماد فوق كفه المبسوطة بنظراتٍ ذات معنى, وقبل أن يطوي يده عليهم, سحب عم حمادة ورقة العشرة جنيهات, متذكرًا إنه لم يضف ثمن الصَّابون على الحساب الكلي, تاركًا له الجنيهين (الفكة) فابتسم هذه المرة عماد مودعًا إياه: "ليلتك فل", قبل أن يتجه لبنايته, من خلف باب شقته المقفول شعشع وصدح صوت قناة طيور الجنة, التي عادت لا تُغلق أو تُبدل, يجاوره صوتي ابنيه الكبيرين يوسف وحبيبة, ورقعات كرة بلاستيكية يلعبان بها, ما إن أولج المفتاح وشرع بالدخول حتى همدت الأصوات تمامًا, فتفهم الحِيلة, يتصنعان النوم ليفاجئانه, دخل وأغلق الباب من خلفه فوجد كلًا منهما يتمدد على أحد كراسي الصالون, استسلم لمكرهما وراح يُناجي نفسه: " أولادي نائمون.. يا خسارة أنا اشتريت لهم هوهوز.. إذن سأكله أنا بدلًا منهم", قهقهت حبيبة وقفز يوسف, وهما يصيحان بصوتٍ واحد بريء: "نحن صاحيان", فاصطنع عماد الاندهاش, قبل أن يقترب ويحتضنهما ويعطي لكل منهما قطعة من الكعك المُحلى الذي ابتاع, مُصاحبًا ذلك بإرشادهما: "علينا غسل أسنانا قبل النوم", ثم سألهما عن عبد الرحمن وأمهما, فأجابت حبيبة وهي تريح خدها على يدها بصوتٍ خفيض أضحكه, بأنهما نائمان من وقتٍ طويل, ليخرج بعدها سؤاله عن عشائهما اطمئناني, لثقته أن منى لن تنام قبل أن تجهزه لهما, وكما توقع ردا أنهما تناولاه, تركهما يلهوان في ليلة خميسهما, ودلف إلى غرفة نومه, فوجد منى زوجته على طرف السرير نائمة, متدثرة كعادتها, رغم الحر, بملاءة من منبت شعرها حتى أخمَصُ قدميها, وبالطرف الثاني للسرير ينكمش عبد الرحمن على نفسه,

واضعًا إبهامه وسبابته في فمه, اقترب منه وحمله بين يديه, ففتح الصغير عينيه, وتعلق برقبته غير مدرك, فتحرك به عماد حتى غرفة الأولاد, وقبله وهو ينزله برفقٍ على سريره, ثم وضع بجانب رأسه الصغير قطعة (الهوهوز) الثالثة, ومن جديد دلف غرفته, تنحنح وناداها بصوتٍ هادئ: "منى.. منى" لم ترد علامة إنهاكها من يوم عملٍ شاق, بدَّل ملابسه, وهو ينظر بإرهاقٍ إلى السرير والوسادة نظيفة الكسوة, بينما صورة ثلاجته المفتوحة راحت ترتسم له أمام عينيه, ففضل أن ينام على أمل أن يستيقظ لإفطار يوم الأجازة الملكي؛ قرص البيض بالخضروات, وطبق الفول المُدمِس بالطحينة, وفطيرة السكر باللبن الساخنة, هذه الوجبة التي تُحضرها زوجته منى يوم الجمعة من كل أسبوع, على خلاف السندوتشات ووجبات (اللانش بوكس) التي تصنعها لهم كل صباح, تمدد على سرير نومه العريض فخشخشت أخشابه, لتزفر زوجته بأنين خافت, وتمد يدها من تحت الملاءة وتتحسس قلبه, وتُحدثه بصوتٍ أدبغه النوم: "في خبر حلو" قبض برفقٍ على كفها بيديه: "أفرحيني؟" سحبت يدها إلى تحت ملاءتها: " في الصباح سأخبرك" فأجابها بكلمةٍ واحدةٍ: "طيب" واستدار وخلد إلى نومه, حتى شعر بيدٍ تُربتْ على قلبه برفق, فتح عينيه فكانت هي, منى, تهمس مبتسمة " الإفطار جاهز يا عمدة" من تحت سطح نومه هز رأسه بدون كلام, ليجدها افترشتْ السرير بجانبه, تحكي له عن الخبر الحلو بدون تمهيد: "أمس استلمتُ الجمعية أصبحنا نمتلك عشرة آلاف جنيه يا عمدة", ابتسم لها مُغمض العينين.

بعد صبر ثمانية شهور حدث هذا, هذه الجمعية التي أكلتْ من دخل بيتهما ألف جنيهًا شهريًا, الربع تقريبًا, دخل الزوجين هو مبلغ 3963 جنيهًا, يتحصلان عليه شهريًا, من عمل عماد صباحًا في جهاز شئون البيئة, وليلًا بمكتب صغير للدعاية والإعلان بجوار جامعة القاهرة, إلى جانب عمل منى في إدارة الأوقاف, هذا الرقم ثابت, من شهر لأخَر يساعده رقمًا مُتغيرًا وغير ثابت, تعفًا لا تطلبه منى, وأيضًا لا تتمنع حين يمد أبوها يده به ليساعدهما, مبلغ لا تُدخله في خطة الصرَّف وكذلك لا تُعلم به عماد, لكن عماد يعرف؛ حين يجدها بشكلٍ غير مباشر تضخه في وجبة سمك جاهزة تهفهف رائحتها في البيت, أو في شراء مكتب صغير ليوسف, أو فستان جديد لحبيبة بدلًا من ذاك الذي بهت, مبلغ على صغره تمر معه لحظات من التواطؤ الصامت بين عماد ومنى لا تخبره من أين لها هذا؟ ولا يسألها كيف زادت ميزانية البيت؟

استرسلت منى في خبرها الحلو بصوتٍ ملئه الحبور, وعينين تمرقان من جدران غرفتهما وتشردان خارج حدود حياتهما, وهي تُوجه مبلغ الجمعية إلى مصاريفها المدروسة من قبل: "سندفع خمسة آلاف جنية لرحلة الساحل.. وألف مصاريفنا هناك.. وسأعيد اليوم الثلاثة آلاف جنية التي سبق واستلفتهم من سميحة.. وبما يتبقى ساشتري مروحة أربعة ريشة تُرطب علينا في الصالة.. أقول لك نحن لن نصرف هنالك كثيرًا.. سميحة تقول أن معظم خدمات القرية مجانًا.. نحن نقلل مصاريفنا هناك إلى أربعمائة جنيهًا فقط, ونأخذ معنا على سبيل الاحتياط أكياس إندومي وبسكويت مملح, ونوفر ما يتبقى لاحتياجات المدارس في العام القادم" كلماتها هادئة واثقة, فرحه باغتته وانتشلته من بحر عسل نومه, وجعلته يركز معها ويُصغى إليها, رحلة الساحل الشمالي هي سبب هذه الجمعية بالأساس؛ فهما لم يسافرا من بعد ثلاثة أيام قضوهما في الإسكندرية في أول زواجهما, ورغم أن فكرة اصطحاب عائلته في رحلة صيفية ـ مثلما كان والده يصطحبه صغيرًا وأمه وأخوته إلى منطقة العصافرة بالإسكندرية ـ دائمًا حاضرة في رأسه ضمن خططته لكن جملة منى: "البيت أولى يا عمدة" كانت بالمرصاد تُحبط عليه محاولات تنفيذها, لكن هذه الكرة وافقتْ منى على هذه الرحلة, بل وهي التي تبنت فكرة توفير المصاريف لدفع أقساط الجمعية؛ ببساطة لأنه مطلب الأولاد.

يكبر الأولاد, وتكبر الغيرة معهم, وكأنها تطلعات لو حققوها ستَتَحقق ذواتهم, لا تكتفي حبيبة بما لديها وتطلب (مناكير) لامع غريب اللون كمريم صديقتها, يتشبث عبد الرحمن أمام دراجة (سكوتر درفت) بثلاث عجلات, أما ليوسف الأكبر الطلب الأكبر, أن ينتقلوا إلى بيت به حديقة ومسبح أزرق كبير, أطفال صغار عقولهم كبيرة تسأم سريعًا من الوعود المسوفة, و" حين يفرجها الله" جملة باتت تُثير طمعهم الطفولي ولا تُظهر صبرهم, أطفال لا يدرون عن فواتير ماء وغاز وكهرباء وأسعار معيشة لا تكف عن التضخم شيئًا, رحلة الساحل الشمالي طلب من ضمن طلبات كثيرة لهم, لكنه طلب اتفق عليه الثلاثة, ربما تقليدًا لزملائهم الذين يُصيفون هنالك, أو ربما بسبب (التلفزيون) الذي لا يكف عن بث إعلانات عقارات المصايف, لم يعرف عماد ومنى السبب بالضبط, لكنهما وافقا على الرحلة بشرط ألا يَطلب الصغار شيئًا أخر, حتى الانتهاء من سداد أقساط

الجمعية, علَّهم بعدها سيحكون بفخرٍ عما حدث, وما رأوا هناك, ولن يشعروا أنهم أقل من زملائهم, وهو المهم, الذي سيُريح عماد وأمهم منى.

قام عماد إلى الإفطار الذي كان ملكيًا كما منَى نفسه بالأمس, جلس مع الأولاد الثلاثة, فيما أقْعَدَت منى عبد الرحمن الذي لا يأكل إلا من يدها على قدميها لتطعمه, فأخذ الابن الأصغر يحكي بين اللقمة والأخرى عن الفيلم الذي شاهده بالأمس, فأضحى الأربعة له منصتون, رغم أن الحقيقة الوحيدة في ما يقوله أنه شاهده بالأمس, أما خلاف ذلك هي جُمَل غير مرتبة من وحي خياله الصغير الذي بدا خصبًا, طفق ينطق بها حتى تعرض لشَرقةٍ مفاجأة, فقام عماد من مكانه كالملدوغ وصَبَّ كوبٍ من الماء ليُشرَبُه له, على الرغم أن منى هي الأقرب, رشف الصغير الماء على مهلٍ فهدأت نفسه, ووئدت شَرقته في مهدها, لكن ما فعله جعل عينان منى تلمع بعلامة استفهام, لم تجد منذ سنوات إجابة وافية لتنطفئ وتتلاشى, كيف تَملَّك حب الأولاد عماد لهذه الدرجة؟! محبته لهم الآن حديقة وارفة لن تجدي أغلظ الأيمَان أنها قبل عشرة سنوات كانت خلاء! من يقول أن هذا هو عماد الذي كان يتشاجر معها ويترك البيت حينما تعجز عن السيطرة على رضيعهما الأول!

من عشر سنوات كان حقًا لا يُحب الأطفال؛ لم يشاركها فرحتها بخبر حملها, وصار هائجًا من الرضيع الذي كان كالضيف المزعج, ضيف أقسم مرات عديدة أنه لا يريده, فما كان من الرضيع إلا أنه عاد في حجرات البيت يبكي ويصرخ ويصيح, وكأنه يعانده أو جاء ليقطع عليه نوماته, ويُشغل عنه زوجته, ويبدد هدوء منزله, وليس هذا وحسب, بل أرهقه نقودًا, ومن أجله ضحَّى بما يتبقى من وقته وراح يبحث عن عملٍ إضافي, مرت أوقات عليه ضاق ذرعًا فيها كثيرًا, لكن لا خيار أمامه غير أن يتحمل, والرضيع على حاله كل يوم يصرخ, كل يوم ينمو, كل يوم تزداد احتياجاته, وكل يوم تستحيل إزعاجاته لركن أساسي في البيت, كالأغاني الصاخبة في الأفراح, أمر واقع لا فكاك منه ولا خلاص, حتى اعتاد عليه وتعود, بل وراح يتساءل, ويُجيب على نفسه لماذا من الأساس تكون البيوت هادئة؟! القبور فقط حيث لا نمو ولا نور ولا حياة فيها هي الهادئة, ليس هذا وحسب بل تحلقت حوله مشاعر أخرى راحت تأتيه عندما يَرى الناس رضيعه وقتما يحمله على كتفه وينزل به, فيسمع منهم ما يجعل أذنيه تتَشَنَّف ونياطه يُخترق بسبب إلقائهم عبارات (المشألة), وكأنهم يوجهونها له وليس لابنه الرضيع, وقتها كانت تطوقه غلالة من الفخر والعزة لم يكن ليشعر بها حتى لو عاد منتصرًا من حربٍ كبرى!

يدخل البيت يجد صغيره يتفاعل غناءً ورقصًا مع التلفاز يتذكر يوم ميلاده كأنه بالأمس, متى مرقت الليالي وانطوت وكبر؟!, يُناديه الصغير ليجره للعبث معه, فيجد نفسه ينساق خلف إحساسٍ شهي يدفعه ليتراقص, ويُغني معه حتى يسقط تعبًا, يسأل نفسه هل كان يقوم بمثل هذه الأمور وهو طفل في عمره؟! بالتأكيد فعل, إذَن لماذا نَسْي؟! أتتعمد الذاكرة إخفاء أوقات طفولتنا المبكرة لنستعيدها مع صغارنا؟!

البداية كانت مع يوسف, والبداية دائمًا مُتعثرة, جاءت لعماد بعد ذلك حبيبة وعبد الرحمن من بعدها, فإنسَكَبت وتناثرت حولهم مشاعر أبوته ومحبته كمثل غلال تنبثق من جوال, وتجلى قلقه عليهم, هذا القلق الذي طالما حسبه هواجس في خيال أبوية تجاهه وأخواته فقط, حتى الأمور البسيطة منهم بدت له كبيرة, فقط كان على أي منهم أن ينطق اسمه كاملًا, كأن تقول حبيبة وقت سؤالها عن اسمها "حبيبة عماد احمد الصاوي" لتنتابه نشوه عجيبة وكأنه بهذه الكلمات قد أخذ حقه من الحياة, وبات أمام واجبه؛ أن يحفظهم من كل شر حولهم, وألا يهدأ أو يكف عن العمل حتى يوفر لهم كل ما يحتاجونه, ويسعى لتأمين مستقبلهم, الذي عاد لا يُفكر إلا فيه مثلما كان يُفكر في مستقبله وهو صغير, ممنيًا نفسه أنهم سيحققون ما لم يستطع هو تحقيقه.

لم ينته عبد الرحمن من حكي فيلمه الذي لا ينتهي, لكن عماد انتهى من إفطاره, اغتسل ومن ثم توضأ أمام ابنائه ليفعلوا مثله, وبعدها جلس بينهم يقرأ سورة الكهف, قبل أن يرتدوا جلابيب وطواقٍ شَبَكٍ بيضاء, وترتدي حبيبة إسدال أخضر منقوش, بعدها تحرك الأبناء إلى صلاة الجمعة, مع أبيهم عماد الذي أذعن بكلمة "طيب" لمنى التي شددت عليه الا يُخبر أمه أو أخته عن فلوس الجمعية, أو رحلة الساحل لا لخوفها من الحسد على حد قولها, ولكن عملًا بالمثل الدارج "داري على شمعتك تقيَّد".

لم يجد عماد في مسجد السيدة عائشة موطنًا لقدم, فدخل مع ابنائه مسجد أخر يجاوره, جلس يستمع إلى خُطبة الجمعة ويحاول الإصغاء, لم تعد مَلَكة الإصغاء كما كانت لديه, باتت أضعف, تشوش عليها وتشوشر هواجس

وخواطر عن ما لديه من عمل ينتظره, ومشكلة يوسف مع مُدرسته التي تعامله بفظاظة, وموعد استلام جهاز (الكومبيوتر) الذي تركه عند الفني ليُصلحه, وإشاراته المتكررة بيده لعبد الرحمن, كلما قام من جواره وحاول الابتعاد عنه, لكنه جاهد وحاول الإصغاء إرضاءً لشيءٍ في نفسه, قُضيت الصلاة فانتشر الناس في الأرض, ومن بينهم هو, أتجه مع أولاده ليزور أمه وأخته ببيته القديم بنفس المنطقة, زيارة سريعة, لعِلَّة امتحانات النصف الدراسي الثاني التي تدق الأبواب, ولن يستطيع بمفرده أو حتى هو ومنى السيطرة, حينما تتقابل عصابته التي أنجب, مع عصابة أولاد أخته الخمسة, زيارة قصيرة عادوا بعدها إلى روض الفرج, بدلوا ملابسهم ونزلوا جميعًا إلى بيت أبو منى, الرجل الذي يكفي فقط نية الذهاب إليه, لتغمر عماد طمأنينة وسعادة غير طبيعية, تجاه هذا الرجل العجوز ذو الشعر الأبيض الكثيف, والنظارة كبيرة العدسات والابتسامة التي لا تُفارق وجهه, حيث يُمثل لعماد شيء كبير؛ الأب والسند في هذه الحياة.

لم يتفاجأ عماد هناك أن حماته تستقبلهم ناصحة بالذهاب إلى بورسعيد أو الإسكندرية: "ستوفران ألف أو ألفين أنتم أولى بهما.. وبدل الثلاثة أيام أسبوعًا كاملًا وفي النهاية كله بحر" لأنه يعرفها متسلطة تتدخل فيما لا يُعنيها ولم يتفاجأ أنها عرفتْ, فهو يعرف أن منى زوجته تفكر بالأساس في رأس أمها, لكن ما تعجب منه حقًا هو سرعة نقل الأخبار, والشمعة التي لا تواجه خطر الانطفاء إلا عند أمه وأخته فقط!

تناولوا الغداء, كان رائعًا كما عهده, وعهدوه, بعد ذلك أخرجتْ منى من حقيبتها الكبيرة التي وضعت ببطنها فلوس شقيقتها سميحة ـ التي من المفترض حضورها في المساء ـ مجموعة كراريس وكتب مدرسية, وثلاثة أقلام, جلستْ بعد ذلك لتحل مع حبيبة مسائل الجمع والطرح, أما أمها فأخذتْ تُراجع دروس اللغة العربية مع يوسف, فيما كان عبد الرحمن الصغير من نصيب عماد وجده, حيث أخذ يُكرر تحت إشرافهما كلمة (أرنبُ) في عواميد, بينما سبحا الاثنين في أحاديث مُختلفة الموضوعات بجواره, قبل أن يتركهما الجد ليشاهد حلقة قديمة من (قصص الأنبياء) التي لا يمل منها للشيخ الشعراوي, لم يُفلح كوب الشاي الأحمر في مجابهة الثقل الأخضر لطاجِن الباميا الذي طوق جسد عماد كنتيجة معتادة لأكل حماته, التي لو أكل من يديها سلطة خضراء فقط, ستكون مستطابة الطعم, دسمة القوام, قوية التأثير, ربما يرجع سر تفوق حماته ومهارتها في إعداد الطعام لاتِّصافها بالتطفل والتدخل فيما لا يخصها؛ فربما تفعل مع الأكل مثلما تفعل مع الناس فتتطفل أكثر من غيرها على طاجن الباميا وصينية المعكرونة وحَلَّة المحشوّ, فيخرج الطعام من تحت يدها لذيذًا شهيًا هكذا, هذه الفكرة التي توصل لها عماد على عظمتها, كما يرى, تظل حبيسة رأسه, لم يجرؤ على التصريح بها ولن يجرؤ!

فما كان منه إلا أن كتب لأبنه في الكراسة (التسعة أسطر) خمس كلمات (بطة, تمساح, ثعبان, جمل, حصان) ليكررهم كما فعل مع (الأرنب), وانسحب لينام, بدون أن يُخاطب ابنه لئلا يتكاسل أو يتوقف عن الكتابة ويلعب, ومن ثم دلف بهدوءٍ غرفة منى القديمة, واستلقى على ظهره, شعر بيدٍ تلكزه بقوةٍ في قلبه, فتح عينيه على اتساعهما غير واعٍ, منى زوجته بوجهٍ مُزرقٍ تصرخ: "عبد الرحمن وقع" انتفض وهرع حافيًا, ولم يوقفه وجع خنصر قدمه الذي اصطدم بإفريز الباب, حتى توقف ومعه قلبه جراء رؤية ابنه هو يُجلجل من الألم بكوعٍ متورمٍ, ومن بين الضجيج لاح صوت حماه شارحًا ما حدث, بأن الصغير أخذ يُكرر قفزاته من على الطاولة حتى وقع على يده, اندفع عماد وارتدى حذائه على إصبعه الدامي, وحمل ابنه بين يديه ونزل وفي إثرهما كانت منى, تعاطف السائق مع صرخات الطفل التي لم تنقطع, فأقلهم إلى عيادة استشاري جراحة عظام أخبرهما عنه: " إنه قريب وماهر ويعمل يوم الجمعة ", ما أن رأى الطبيب يد الطفل, وحاول تحريكها فصرخ أكثر حتى ذم شفتيه ولم يفصح إلا بعد الأشعَّة قائلًا بصوتٍ نحاسي لا رقة فيه: " كسر ما بين العضد والساعد.. فوق اللقمة الوحشية" وقبل أن يسألا أشار لهما على مكان الكسر في هيكل عظمي من البلاستيك يستقر بجانب مكتبه, وبعدها استطرد: "يحتاج عملية جراحية وتثبيت بأسلاك وجبيرة لمدة شهر إلى ستة أسابيع .. يمكنكما الذهاب إلى المستشفى.. تكلفة أقل كثيرًا.. لكن إذا أردتما أن يفرد الطفل ذراعه بشكل كامل فيما بعد.. لابد أن تُجرى العملية اليوم وسريعًا" سأله عماد عن التكلفة إن أجراها هنا بعيادته, فأجاب الاستشاري الكبير: "سبعة آلاف جنية" لا مجال للتفكير وسط صرخات الطفل التي لا تهدأ, ورعشة منى ودموعها التي لا تنقطع, كما لا مجال لرحلة أو ساحل أو خلافه, نظر عماد لابنه ومسح على رأسه: " اطمئن يا عبد الرحمن" ثم نطق موجهًا كلامه للطبيب: "سنُجريها هنا.. بسرعة أرجوك" ومد يده لمنى التي استدارت خلف ستارة الكشف, وفتحت حقيبتها الكبيرة وسحبت من بطنها ما كانت تخصصه لأختها من فلوس الجمعية.

أُمْسِيَة عَشاءَ

حانَ الوَقت لتَلبِية الدعوة, ذَهب مع زوجته وابنته صاحبة الأربع سنوات, وطِفله الرَضيع النائم, إلى شقة زميله المتزوّج حديثًا, يَحمِل في يده عُلبة شوكولاتة كبيرة وغالية من حَلوانيَّ (قصر نابولي), تبادلا التحيَّة والسلام, جلس الرَجلان يَتجَاذبان الحديث, يتطرقان من مشكلات عملهما إلى تصرفُات العُملاء الطريفة المُضحكة أحيانًا, والتحوَّل السريع الخانِق لأسيوط, بثلاثيةٍ من البشر والسيَّارات والأَرصِفة شديدة الضيق, مما جعل مدينتهما أسوأ مَسخٌ مُصغَّر من مَسخٌ سيء كبير يُسمى القاهرة.

اِلتقائُهما لأول مرة لَم يمنع الأحاديث الودية بين الزوجتين؛ فبسؤالٍ بسيط من العروسة, قدمتْ الضَّيفة خبرتها من النصائح والحِيَل التي تَكسب بها قلب وودَّ زَوْجها وأهله. بعد الكَاكاو الساخن, جاء دور العشاء الساخن, على مائدةٍ مستطيلة متوسطة الحجم, امتلأت بمأكولات خفيفة تصلُح كطعامٍ للعشاء -حسب الاتِفاق المُسبق- جلستْ الأسرة تُبسمل وتشَرع في الأكل, ولكن عندما رأت الإبنة طَّبقُ البَيض بالبَسْطِرْمة, كبير الحجم, صاحتْ فجأة: "بابا يأكل البَيض باللانشون!", أربكتْ الصغيرة الحِسابات؛ وبإشارة من الزَوْج المُضيف هَمَّت زَوْجته بالقِيام, لكن إصرار ورَّفْض الضَّيْفين, وتأكيدهما أنه لا مشكلة لديهما في أي مأكولات, ومحبتهما للبَسْطِرْمة, أَثناها عن القيام.

إفراغُ الأطباق -تقريبًا- كان دليلًا ملموسًا على حُسن المذاق, واِستمتاع الضُيوف بالدعوة, في النهاية أحضرتْ الزَوْجتان كُوبين من الشاي بالقَرنفُل للرجلين, اختتما بهما العزومة, عند الإستِئذان بالرحيل اِنتابَهم جميعًا شعورٍ بالارتياح, وإحساس بصداقة أُسرية قوية ستجمعهم بعد هذه الليلة.

في طريق العودة, بمجرد أن دخلتْ الطفلة السيارة غاصتْ في النوم , أما الرجل فراح يَقُود وهو لا يَنبِس بحرفٍ واحدٍ طَوال الطريق, على غير عاداته, الزَوْجة لاذَت بصمتٍ عميقٍ هي الأخرى, وكأنها اِطَّلعت على الدائر برأس زوجها, وتفهمتْ أمره, وتَمَنتْ ألا يَستيقِظ أيًا من الطفلين حتى لا تُثار أعصاب والدهما؛ بالتأكيد هو يختلي بنفسه, مع ما حدث لها مذ أكثر من ثلاثة وعَشرين عامًا, في الصف الخامس الابتدائي عندما أحضر صديقه ساندوتشات البَيض بالبَسْطِرْمة, أما هو فقد اِعتادَ جلب ساندوتشات الجُبن الأبيض معه, ليلًا أخبر أمه برغبته في أكل ساندوتشات مثل التي يَجلبها رَفيقه, وسألها عن ماهيَّة البَسْطِرْمة, أجابته ووعدته بتنفيذ رغبته قريبًا.

في اليوم التالي طلب من صديقه أن يتذوَّق من طَعامه, فلم يرضَ, انفطر هذه المرة قلبه من البكاء أمام أمه, التي وضَعتْ طرحتها السوداء, وذهبتْ في الحال, إلى بقَّالٍ بعيدٍ عن بيتها, مُستفسرة عن ثمن كيلو البَسْطِرْمة, وعندما صدَمَها السعر, قررتْ العودة وشرائها عند قَبضُ المَعَاش, ولكن ثَمّة فكرة ما بادرتها, واستوقفتها؛ بما أن البَسْطِرْمة تُصنع من لَحمٍ مُتبلٍ ثم يتم قَلْيُه, فلماذا لا تقوم بقلي اللانشون؟ وتضعه في ساندوتشات البَيض لابنها, في البيت وضعتْ شرائُح اللانشون في الزيت الساخن حتى اسودَّ لونها, وتَماسك قوامها, ووضعتْ عليهم البَيض الأصفر المَخفوق, تذوَّق ابنها هذا الخلِيطُ, فأعجبه طّعمُه, أخبرته أن هذا هو البيض بالبَسْطِرْمة.

في أول الشهر أحضرتْ الأم ربع كيلو جرام من البَسْطِرْمة, وجَهَّزتْ ثلاثة ساندوتشات لابنها, ولكنه للغرابة, لم يُعجبه طَّعمُها, وطَالبها بإعداد السندوتشات التي اعتاد عليها بعد ذلك, ضحكتْ الأم, واِعترفتْ له أن ما لَم يُعجبه للتَو, هي بَسْطِرْمةٍ حقيقية, صارحَته بضِيق حالتهم, وعن مَعَاشُ أَبِيَّه الذي يُنفق قبل أن يَنتهي الشهر, وأنه أصبح رجل البيت الآن, وعليه تَحمُّل المسئوليات, فلا يَنبَغِي عليه تَقليد زملائه في كل شَيء, فلكل إنسان ظُروفه, وهي بالكادَ تَتدبَّر أمور المَعِيشة حتى لا تَمَّد يَدها لأحدٍ, وإنها تَصبِر وتنتظر الوقت الذي ستَتزوَّج فيه أخته, ويَدخُل هو كلية الشُرطَة كما تَمنى أبوه. هذا اليَوم أصبح فارقًا في كل تصرُّفاته من بعد ذلك, عاد لا يَطلُب أي شيئًا تقريبًا؛ حذاؤه المُهتَرِئ الذي بات يُعيق حركته, لَم يُفكر حتى في إصلاحه, حتى اِشتَرتْ له أمه أخر جديد, أصبح يكتفي بسندوتشات الجُبن والفول ولا يَطلُب أبدًا بديلًا عنهما, يَرقُب صديقه على دَرّاجته الجديدة, فتُداهمه رغبةٍ بضربه, يمسِك نفسه ويتجنب الحديث, أو اللَعِب معه لَئلاّ يَطِيش لُبُّه, ومن ثم اِبتعَد شيئًا فشيئًا عن صُحبته, وكيف مرت الأيام بعد ذلك عليهم, لتَتزَّوج أخته, ويلتحق هو بكلية التجارة, ثم يتم تعينه بالبنك الأهلي, فيشتري من أول مرَّتب كيلو بَسْطِرْمة, قبل أن يُناول ما تبقَّى منه لأمه, ويأخُذ هو مَصروفه منها, كيف فشل في إقناع ثلاثة من أصدقائه

وأخته وأمه وزوجته, أن طّعمُ البَيض باللانشون أفضل من طَّعمُ البَيض بالبَسْطِرْمة, وحَدِيثه أن هذه البَسْطِرْمة تجلب الأملاح, ووصفه لها باللاذِعة المُضرة, في بداية زَواجه كان أهم ما يسأل عنه: البَسْطِرْمة, لَم يسمح لها أن تنفد قط من بيته, رغم إنه لا يأكُلها!
عندما فقد أمه من سنتين, كل ذلك تغيّر وأضحى لا يشتريها ولا يُحب الكلام عنها, ولا حتى ذِكر اسمها أمامه.
عندما وصلت السيارة إلى العمارة ذات المدخل الرخامي رَكَّنها, وراح يَحمِل اِبنته على كَتِفه إلى المَصعَد, وما أن دخلوا الشَقّة, نطَق بأول كَلِماته أنه يَشعر بالجُوَّع, وطَلَّب من زوجته طبقٍ صغيرٍ من البَيض باللانشون.

رحلة عودة

بصري لم يكن يُساعدني وسط ظلام الغرفة؛ إضاءته لم تكن كافية, لكن الأمر لا يتأجل, تحسستُ, وضغطتُ على علامة التساوي أقصى يمين الصف الثاني من الأعلى (=), بعدها حرف الـ(D), رابع زر من اليسار في الصف الثالث من الأسفل, ثم على أكبر زر للوحة مفاتيحه, قبل أن يظهر الوجه الأصفر لينير تعليقي, خانتني يدي الحافظة لموقع الطاولة, مثلهم, فانتفضتُ على صوت سقوطه.

كالملدوغة قمتُ أحبو حتى أنرت الغرفة, وجدته مظلمًا تمامًا ارتعدتُ, تعكزتُ على عصاي وحملته إلى الطابق الأخير, أمسح أي تُرابٍ على أَزْرَاره, بعد نقرات كثيرة فتح, بعينيه الناعستين أندهش, ناولته الجهاز, ضغط بهدوءٍ على البطارية من الخلف, قبل أن يفتحه, فأضاءت شاشته من جديد, ناولني إياه, ابتسمتُ بمَحَبَّة, واحتضنتُ آخر ما تبقى ليّ وبدأت رحلة العودة.

فِي ثَوَانٍ

يُشبهون عيدان قصب زُرعت في أرض أسفلتية, يتكأكأون حول شاب, كأنه الساقي الآتي قومًا لم تترطب شفاهم منذ عقود, الخيط الأسود في السماء يدفع حدقات أعينهم إلى الاتساع, كجزء من تعليمات دورهم في فيلم عكفت الفطرة وحدها على إخراجه, الذعر والهلع يقتادهم إلى إظهار الثعبان الأحمر القابع خلف صفوف أسنانهم الصفراء, بكلمات مقتضبة أو فقط الصمت بوحيٍ من المشهد المجنون, يجتهد بعضهم أن يفعل المحمود, ولا يتركوه يواجه مصيره المحتوم سريعًا, دعاء, حوقلة, لوم, استعجال, نصائح, محاولات فهم, ولعنات هذا ما يتناثر ويتناثر قبل أن يصدَح في الهواء متداخلًا مفهوم أو غير ذلك, لا تكف أنظارهم عن التشخيص فيما سيكونون عليه يومًا ما, وما يدريك لعل الساعة تكون قريبًا.

هو لم يكن يعلم أن الشيء الذي يُطعمه, ويُسقيه, ويشهَقَ من أجله طوال سنوات عمره سيكون ناكرًا للجميل, فظ القلب في أكثر أوقات حياته احتياجًا له, فيتركه بسرعة وتذمر ونفور, رافضًا كل محاولات البقاء, يتحرر كالسجين الذي قضى عقوبة السنوات في سجن انفرادي لا ضوء فيه, يتحرر مكونًا حول جسده النحيل بركة من الحُمرة, تخاطب سواد الأرض وعتمتها فتحولها إلى اللون الأحمر, بينما يقود هذا التحرر وجه صاحبه الأبيض إلى الصُفرة, كورقة توت في فصل الخريف, تزداد شحوبًا قبل أن تسقط على الأرض فتطأها الأقدام بغلاظه, وجهه يتقلص تدريجيًا كشمعة تلتهمها النيران, شفتاه بدأتا في الضمور, ترتعشان كحصان سقط بغتة في السباق الأخير, غطتهما الدماء الهاربة من فيه, ضمورهما أقوى من أن يوقفهما شيء, عيناه واقفتان ترفضان الحركة, وكأنهما رفضا أن يكونا جزءًا من معاناته, تلتقطان صورة رأسية من وضع الثبات إلى نجوم السماء, ولكن دون وميض منهما, فقط الانطفاء هو الذي يُسيطر عليهما, ترتجف أوصاله بقوة فتشعر بأن أربعة عفاريت من جِن سُليمان سيطروا عليها, تيار كهربائي تَمَسَّكَ بأنامله التي باتت أكثر برودة, بعد أن تركهم السائل الأحمر بنذالة, وكأنهم أسلاك فقدت الاتصال بالمركز الرئيسي, ملابسه بدت مُهترئة مُمزقة, لو كان في موضعٍ أخر لظنوا أنه مواطنًا من العصور الحجرية فرغ للتو من التهام ثورٍ بري نيئ بمفرده, ملابسه الدامية غطت الكدمات, والسجحات, والجروح العديدة التي احتلت سريعًا جسده, وكأنها من غزاة (الفايكنج) الذين يتحينون الفرصة للقضاء على ضحاياهم.

يتجمعون أسفًا على الشاب العشريني المصدوم بسيارة أبت الوقوف, لتجعله يُجرب الطيران, ثم السباحة في الهواء, ليلتف فيه أكثر من خمس مرات, بحذاقة بهلوان من السيرك الروسي, إلى أن أرتطم بالجدار المنزلي الذي لن يمسِ ليلته أبيض؛ بعدما استقبل رأس ضيفه الشاب بقليلٍ من المحبة, بكثيرٍ من العنفوان, فقسمها فاتحًا فيها نافذة يهرب منها السجين الأحمر بسرعة لن يجرؤ أحدًا أن يحسده عليها, لتنتهي رحلته القصيرة في الهواء, ساقطًا بصوت ارتماء أكثر من سبعين كيلو جرام بدءًا بالرأس, مرورًا بالظهر, فيديه ثم ساقيه وقدميه, ليَغِطّ في لحظات مؤلمة عميقة, لم يشعر بها الوقوف من قبل, يظنون أن جسمه المرتجِف دليلًا على أنه يُصارع الموت, ولكنه ربما يُصارع الحياة ليذهب إلى حياة تذوق طعمها في لحظات, ولعلّه رأى أنها أجمل من حياتهم.

دَواءٌ فَعّال

مُنفذًا لنصيحة الصيدلي, ترك ابنته صاحبة الخمسة عشر ربيعًا, تتألم من حُمَّة أرقدتها, ومد الخطى, قبل وصوله ساحة مسجد (أبو الحجاج) بات نفسه ضيقًا يُصفر, عاد لمشيته الطبيعية, أقل من مائة ضربة على الأرض, حتى وجد نفسه عند أمين الشرطة الذي يجلس أمام بوابة معبد الأقصر, دار بينهما حديثا وديًا, أعفاه من قطع تذكرة للدخول, بداخل الصرح العملاق, أخذ يجول ببصره بحثًا عن ضالته, حتى وجدها بين تمثالين رمسيس الثاني الرابضين منذ أكثر من خمسة آلاف سنة؛ سبعة سائحين ينصتون لرجلٍ يبدو مُرشِدهم, رغم شعره المعقوص كذيل حصان, وبنطاله القصير الذي ينحصر عند ركبتيه, ونظارته البنية التي تُخفي أكثر من نصف وجهه, لكن حركاته وملامحه أشارت إلى أنه عربي, اقترب منهم وانتظر حتى فرغ المُرشِد من جملة يقولها بلغةٍ غريبةٍ عليه, خمن بخبرته الضئيلة أنها (جرمانية), ولكنها ليست ألمانية, اقترب أكثر وألقى التحية مُخاطبًا المُرشِد, الذي ردها بإيماءة باردة من خلف نظارته (الغوتشي), لم يُهمه جفاء الرد, واستطرد ما قدم من أجله؛ أنه يُريد المساعدة, لم يدعه المُرشِد يفرغ من حديثه, وضع يده في جيب قميصه (الكاروهات), وتجلى أنه سيُعطيه بعض الجُنيهات, هنا ارتعدت كل أعضاء الرجل رفضًا لنية المُرشِد؛ وأردف سريعًا موضحًا أنه حَلاَّق, ولديه صالون يملكه بجوار المعهد الأزهري, وأنه مستور ولا يحتاج إلى مساعدة مالية, وأن ما جاء به إلى هنا, هي مشكلة ابنته التي ركبها بردٌ غريبٌ منذ ثلاثة أسابيع, لم يشفع لها ذهابه بها إلى مستشفى التأمين الصحي, فساءت حالتها أكثر, وعاد وذهب بها إلى عيادة طبيب خاصة, ولم تتحسن حالتها قط, لذلك يريد المساعدة في إيجاد دواء لها مع أحد الزوار كما نصحه جاره الصيدلي, قطع المُرشِد كلام الحَلاَّق بإشارة من يده, والتفتْ إلى مُترشديه, واختص سيدة شيباء سبعينية, تبدو أصغر من واقعها, بجمله واحدة طويلة, ردتها السيدة بأخرى قصيرة جامدة, لم يَغلب الحَلاَّق في تخمين معناها, التفتْ إليه المُرشِد وبدا أنه سيتفوه بما لن يُعجبه, فبادره الحَلاَّق بصوتٍ متضرعٍ متوسلٍ, أنه يخاف أن يفقد ابنته كما فقد زوجته, التي لم يرحمها الزمن من مرض تصلب عضلي, أقعدها وأعجز حركتها يومًا بعد يوم, حتى هانت النفس عليها وشربت صبغة سوداء لتتخلص من معاناتها, شعر الحَلاَّقُ بعدم تأثير كلامه بنَفسِيَّة المُرشِد, صمت برهة, قبل أن يدفع بآخِر أوراقه, قلص عضلات وجهه, وظهر عليه التأثر الشديد, وشرع في البكاء, وراح ينقل عيناه التي اغرورقتْ بين المُرشِد والسيدة العجوز, واسترسل أن ابنته هي من كانت بجوار أمها في مرضها, والآن تتحمل مسئولية البيت, ومسئولية أخويها بمفردها على صِغر سنها, فأشار له المُرشِد للمرة الثالثة أن يصمت, وعاد يُحادث السيدة العجوز, وهي تنظر إلى دموع الحَلاَّق, ألقت ثلاث كلمات باشمئزاز, قبل أن تسأله سؤالين, ترجمهما له المُرشِد, فأجاب على الأول أن ابنته بلغتْ منذ سنتين, وتردد في الثاني قبل أن يُجيب بضعف جسدها, أخرجتْ السيدة من حقيبة علقتها خلف ظهرها, عُلبة دواء رمادية بها شريطين مختلفين اللون, تقدمتْ على كبر سنها وبذراعها المكشوف المترهل جلده, أعطتْ العُلبة للحَلاَّق, وخاطبتْ هذه المرة المُرشِد الذي نقل كلامها للحَلاَّق, أن على ابنته أخذ حبة واحدة من الأقراص البنية, وحبتين من الأقراص الصفراء يوميًا, لمدة أربعة أيام, وعليها أن تتغذى جيدًا, وإن لم تتحسن فلا مناص من مكوثها بمستشفى مُتخصص, رفع الحَلاَّقُ يده على رأسه يلهج بالشكر لهما, قبل أن يعطيهما ظهره ويُغادر.

في طريقه إلى البيت استوقفته رائحة شهية, نظر فوجد الأفراخ على الأسياخ المعدنية تتعذب وتُعذب المارة, داخل شواية معدنية كبيرة ذات باب زجاجي بضلفتين, مُوضوعه على الرصيف خارجة من مَطْعَم متوسط الحجم, كُتب على يافطته (قاصد كريم), تفرسها كأنها المرة الأولى التي يراها! يمرّ بجوارها كل يوم لكن نظرة العابر تختلف عن نظرة الزبون, الذي يرى البضاعة ويسأل عنها بثقة؛ شعورًا منه بالخدمة التي يُقدمها للبائع, وضع يده في جيبه فلم تخرج إلا بثلاثة وخمسين جُنيهًا, دسهم مرة أخرى في جيبه, ودخل المَطْعَم, طلب فرخه بالسلطات, وجلس ينتظر طلبه يجهز, فجلست معه هواجسه تنكزه, وتلكزه, وتهزه كمركب ورقية سقطت في بحرٍ عاصف بلا شاطئ؛ ما أصاب ابنته أنفلونزا عادية مرض يأتي لكل الناس ويرحل, فلماذا يَجثِم عليها كل هذه المدة؟! يُرقدها ويُعيها وينهش في صحتها, هل يكون هذا جزاء سوء من الله على ما فعله مع جارته؟! وعليه التوبة والاستغفار, أم هو حكم نهائي لا رجعة فيه, ونهاية نعمة أعطاها الله له, فلم يُقدرها ويُحسن معاملتها, وكما فقد زوجته هي مسألة أيام وسُيحرم من ابنته, ابنته التي لم يكن لها أبُ تفخر به أمام أحد, بل حتى لم يكن لها أبُ,

تداخل صوت صاحب المطعم مع صوت هواجسه, يُخبره أن طلبه جاهز, يلتصق بالمطعم (سوبر ماركت) ابتاع منه علبتي عصير مانجو 10% فاكهة.

داخل بيته ذي الطابق الواحد والسقف العالي, كان المشهد المُتوَقع حاضرًا, الابنة المسجية على كنبتها راقدة منذ أعياها المرض, تئن بلا صوتٍ مسموعٍ, ونفسها المبتور يُنبئ بعذابها, يَستسلم جسدها المُلتهب لنوبة سُعال بين الفَينَة والأخرى فينتفض, حين ينشق صدرها من فرط الألم, الجديد في هذا المشهد هي الرائحة! رائحة القيء التي عَبقَت المكان, كانت ابنته مستيقظة تُتابع بنصف عينٍ مسلسل درامي, بشرها بالدجاجة والعصير الذي تُحب, قبل أن يُطلعها على الدواء الأجنبي, وقصة إحضاره وعدد جُرعاته, بعدها دلف إلى غرفة نومه, لم يَكُ يقصد إلا قميص الشغل, خلف بابها الناعي مقبضه, لمحه, كان الجزء الأكبر منه يتوارى لكن طرفه موجود يظهر ويطل, ساقط بحباته البيضاء على بُنية الأرض المُهمل نظافتها منذ ثلاثة أسابيع؛ شريط مُخَدَّر (البراكينول) طل بوجه مراهق عابث لا يرحم صاحبه من نار المناكفة في أوقات الضيق, تأمله لحظات, ولعن جهرًا أشخاص عرفوه سكته يومًا, قبل أن يلتقطه وبقوة يُسراه طوحه, فاستقر أعلى سطح دولاب غرفة نومه, ارتدى قميصه وذهب.

في صالون حلاقته جلس, ينتظر رزقًا محملًا على فروه رأس, أو غيره ينهدل مع شعر ذقن, رن تليفونه, قبل أن ينطق بعربية ركيكة اسم جارته, لم يتطلب الأمر أي تفكير منه وهو يعتصر الزر الأحمر بإبهامه الأيسر, وكأنه يُشعرها بقوة الضغطة؛ فلا تعاود الاتصال, تسع عشرة مرة اتصلتْ تسع عشرة مرة كرر ضغطاته.

بعد أمسية عمل شحيحة الرزق, أنزل باب صالونه الصاج الجرار في الواحدة صباحًا, وترجل إلى منزله, لم تستيقظ ابنته على غير عادتها لصوت قدومه, اقترب منها فوجد سيلًا من عرق قد أحاط بها, وضع يده على جبينها فارتدت باردة من غير حرارة, زفر ارتياحًا وهو ينظر إلى شريطين الدواء الناقصين بجوارها, يبدو صدقًا أن الدواء الأجنبي فعَّال كما أبلغه الصيدلي, تركها واتجه لشطيرةٍ بيضاء وضع عليها ملعقة جُبن, فأوفت بالمطلوب, بعدها تمدد على سريره, وأشعل (سيجارة) سحب منها نفسين ثم أطفأها, وأعادها إلى عُلبتها, أغمض جفنية وذهب في طريق السُبات, كابوس مُزعج لم يُفارقه طوال الليل رأى فيه رَجُلين شديدين يخنقان ابنته, ويُنزلاها من كنبتها, ويجترّاها إلى خارج المنزل, يُحاول أن يُنقذها فتحول بينه وبينها جارته, واقفة بقميص نومها (التركواز) تبكي وتصرخ فيه: "ذنبي ذنبي" , منزعجًا استفاق وهو يضرب مؤخرة رأسه منحولة الشعر في وسادته التي لم تعد بيضاء, كانت الغرفة غارقة في ضوء الهاجرة, حيث أشارتْ ساعة الحائط فوقه إلى العاشرة والربع, لم ينم أكثر أو اقل من المطلوب, وليُطمئن قلبه ويتخلص من وسواسه الحارق, نَادَى على ابنته وانتظر الرد, ولكنه لم يأت, قبل أن يقلق تذكر أن الدواء به نسبة مُخَدَّر لراحة الجسم, فقام وذهب إلى كنبتها ليراها, ولكنه لم يجدها, توتر قليلًا, استجمع صوته ومحبته, وقبلهما شجاعته, وعليها صرخ, علَّها تخرج من مرحاضٍ أو مطبخٍ, صرخ ولم تجبه, جف حلقه واشتعل دمه خوفًا, حين جحظت عيناه ناحية باب البيت الذي تُرك مردودًا, حافيًا جرى عليه, فتحه إلى آخره, فوجدها قادمة على بعد عشرة أمتار, تتحرك على مهلٍ, بعباءتها السوداء المُخَصَّصة للمشاوير القريبة, وبغطاء رأس غير محكم الربط, تنزل منه خصلة شعر صُبغت أصفر, تتدلى حتى شفتيها الغارقتين في أحمر طلائهما, تلوك قطعة من الخبز, حاملة في يدها كيسًا بلاستيكيًا شفافًا به فول مدمس وأقراص (طعمية), حين اقتربتْ بادرها بسؤالها عن صحتها, طمأنته بوجهٍ بدأ يستعيد نضارته إنها الآن أفضل.

بعدها بيومين, أنهى عمله في الصالون قبل موعده بساعتين, تحرك ناحية بيته على عجل, بنصفِ تركيز أولج المفتاح في الكالون, مِصباح (نيون) مستهلك القوى يُضيء صالة منزله, لم يمنع قدمه اليمنى الهارعه من الاصطدام بمقعدٍ حديديٍ يتوسطها, فسقط مُحدثًا قرقعة عالية, قطعتْ على إثرها ابنته مكالمتها التليفونية لجارِها في فزع, فيما حمل هو المقعد بين كفيه ودخل غرفة نومه, لحقتْ به سريعًا, مُستفسرة عن جلبة حدثتْ, فوجدته يرتقي المقعد الحديدي, بينما يداه تتشبثان بسطح الدولاب, وبصوتٍ كان قد اختفى من أذنيها منذ حوالي ثلاثة أسابيع أمرها أن تغور تنام.

ثَوْرة المُهندَس بَديع

أين يمكن العثور على أخبار المهندس محمود بديع في الصحف؟

سؤال يسهل لمن يُطالع بلاط صاحبة الجلالة أن يُجيب عليه, فالمهندس محمود بديع دائم التواجد بأخبار شركته على الصفحات الاقتصادية, التي على الدوام تبرز أنشطة شركته من مناقصات ومزايدات, إلى جانب شراكاتها وتعاقداتها مع بيوت (الديكور) الأوروبية, أخبار كثيرة وصغيرة لشركته تنتشر في الصحف منذ عشرين عامًا, بالتحديد منذ أشترى الشركة التي كان يعمل بها, تنتهي جميعها في الفترة الأخيرة بفقرةٍ ثابتة (**يُذكر أن المهندس محمود بديع هو رئيس مجلس إدارة شركة Ideal Design المتخصصة بأعمال الديكورات والتشطيبات والتي تنشط في البورصة المصرية بقيمة سوقية ضخمة تتعدى الثلاثمائة مليون جنية**), باستثناء خبر احتفاله بزواج ابنه خالد, هو الذي كسر تلك القاعدة ونُشر بالصفحات الاجتماعية, لذلك أن يُنشر خبرين في أقل من يومين يخصا المهندس محمود بديع على صفحات الجرائم والحوادث فهذا أمر له العجب**!**

****

الثلاثاء 22 مايو..الحادية عشر صباحًا

لم يشعر المذيع طارق بديع, الشاب الوسيم, بثمة مشكلة, بعدما قرأ الخبر الأول الذي يخص والده على صفحة الحوادث, بإحدى بوابات الجرائد محدودة الانتشار والتوزيع, ذاك الخبر الذي أرسله له متابع محذرًا, من الخمسين ألف متابع لحسابه على موقع التواصل الاجتماعي (تويتر), فكل ما فعله أنه قام وأعد لنفسه كوبًا عملاقًا من البن السادة؛ إخمادًا لصداعٍ ينفر تحت فروة رأسه الناعمة؛ رديفًا من سهرته الكحولية الصاخبة بالأمس, مشفعًا الكوب العملاق بثلاث شرائح من (البانكيك) كإفطارٍ تعود عليه منذ سكنه بمفره بإحدى شقق مدينة السادس من أكتوبر, كي يكون قريبًا من محطة التلفاز التي يُقدم بها برنامج غنائي مرتين في الأسبوع, تناول وجبته وهو يُطالع الخبر من جديد:

رجل أعمال مخمور وساقطة وراء حادث ضابط الدرب الأحمر

استقبل مستشفى أحمد ماهر التعليمي أمس ن.خ 27 عام رائد شرطة فاقدًا للوعي و مصابًا بكسر في الساقين, بعدما صدمته سيارة دفع رباعي لاذ قائدها بالفرار, فيما تمكنت في نفس الليلة قوات الأمن من توقيف السيارة المُبلغ عنها بطريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي, ليتبين أن قائدها الذي يقود تحت تأثير الكحول, هو رجل الأعمال الشهير المهندس م.ب 63 عام وبصحبته م.ح 23 عام مسجلة دعارة, وبتفتيش السيارة عُثر بداخلها على ثلاث زجاجات فودكا وخمسة سجائر بانجو معدة للتدخين, وبمواجهته اعترف بالواقعة, تم تحرير محضر بالواقعة لعرضه على النيابة لتولي التحقيقات.

أغلق طارق صفحة الخبر مدركًا أن الأمر برمته محض كذب, ليس أكثر من عملٍ حقير, تقف خلفه الشركة التي تنافس والده على الاستحواذ على أكبر حصة من السوق المصري, ليس فقط لأن المهندس محمود بديع, أبيه, رجلٌ محترم وكبير في السن وبالتأكيد لن يتورَّط بأمر كهذا, ولكن ببساطة لأنه خارج البلاد كما يعرف, في زيارة لأحد معارض (الديكور) بروما منذ خمسة أيام, ولذلك لم يكترث بأمر ذاك الخبر, إلا أن أخاه الأكبر المُلحق الدِبلوماسي بجوهانسبرج خالد بديع والذي يقضي أجازة قصيرة بفيلاته بالشيخ زايد, اكترث ولم يتعامل

مع الأمر بدِبلوماسيَّة, فبمجرد قراءته للخبر أتصل بأخيه طارق على الفور, وطلب منه التدخل سريعًا لرفع هذا الخبر العاري من الصحة, المقصود به تشويه سمعة والدهما, تفهم طارق دوافع انفعالات أخيه, فهو في النهاية يشغل منصبًا حساسًا ومهمًا, ويعتبر في بداية حياته المهنية, وشيء كذاك قد يؤثر على مكانته, مثلما تفهم مُسبقًا نشر تلك الجريدة الصغيرة خبرًا مجردًا من الصحة كهذا, فعمله في المجال الإعلامي جعله يفطن لدناءات الصحافة الصفراء, والمبالغ التي تتحصل عليها كي تُصبغ الخصوم والمنافسين بما ليس فيهم, أما ما لم يتفهمه, والذي جعل صدره الأملس يقشعر, هي الطريقة السيئة التي حدثه بها رئيس التحرير, فهو ليس فقط لم يراعِ أصول الزمالة؛ كونهما في مجال مهني واحد, بل حدثه بصلفٍ مبالغًا في كينونته, ورفض طلبه من قبل حتى أن يعرفه بتذمرٍ, على الرغم من أن طارق بدأ المكالمة بهدوءٍ, وزينها بعبارات الأدب وهو يعرفه بنفسه, لكنه ما أن عرف اسمه حتى ثار بفجاجة وتعنت, فما كان من طارق هو الأخر إلا أن ثار وشتمه مهددًا إياه ليس فقط بملاحقته وجريدته قضائيًا, لكن بفضح كذبهما وأساليبهما الملتوية, هذا المساء بجميع القنوات الفضائية وبرامج (التوك شو), فأغلق رئيس التحرير الخط بوجهه.

حانقًا هاتف طارق أخيه الأوسط مازن بديع, الذي يعيش بمدينة شرم الشيخ ليشركه في الأمر, وطلب منه إعلام أباهم بما حدث, لأنه لم يستطع الوصول إليه بسبب سفره, وعاد وأجرى مكالمة بمعد برنامجه, وفيها طلب منه قائمه بجميع المعدين والمذيعين, الذي يمكنه الحصول على أرقامهم, وكتب شكوى للجهاز القومي للإعلام وأرسلها عبر (الإيميل والفاكس), وأخيرًا اتصل بالمستشار القانوني لشركة والده, ليطلب منه رفع دعوى عاجلة ومقاضاة الجريدة ورئيسها بكل التهم الممكنة, لكن المستشار القانوني الدكتور حازم جمال قنص طارق بديع قولًا بأن الخبر صحيح, وليس مختلقًا وأن ما حدث هو ما قد نُشر, وأن أباهم محتجز بالفعل في قسم الشرطة منذ الأمس وهو معه الآن, وأنه لم يخبره أو يخبر أخواه تنفيذًا لرغبة والدهم المهندس بديع, الذي شدد عليه بهذا لأن موقفه مُحرج, وهو منذ تم القبض عليه صامتًا, وفي حالة نفسية متردية, كلماته ضربات قوية على الرأس, أفقدت المذيع الشاب الوعي والنطق والتفكير!

****

الثلاثاء 15 مايو

قبل نشر الخبر الأول بأسبوع

تمامًا كما اعتاد الناس على رؤية قرص الشمس يبرز كل صباح, اعتاد موظفيه أن يكون أول الواصلين إلى مقر شركته (Ideal Design) بأبراج المعادي في السابعة صباحًا, فيما يكون هو آخر المغادرين منها بحلول العاشرة مساء, المهندس محمود بديع, على الرغم من تجاوزه الثالثة والستين مازال يحتفظ بلياقته ووسامته, حتى حينما شاب شعره ولم يعد بلون العسل, بقيت بعض الشعيرات البنية في المنتصف, مثلت تاجًا على رأسه أزادته مهابة وألق بين موظفيه الذين يعرفونه بجديته ودأبه الذي لا ينفد تجاه العمل؛ فالجلوس على المكتب أمر لا يعرفه إلا لتوقيع الأوراق واستقبال كبار العملاء, فهو يوميًا بينهم ببذله وعطوره الفرنسية يدور عليهم, يُحيهم ويتعرف منهم على مستجدات العمل, وبابتسامةٍ وكلماتٍ جادة هادئة يوجههم, لذلك ما فعله في هذا اليوم, أو في الحقيقة ما لم يفعله قتلهم فضولًا, فهو حتى لم يعنف محروس حارس الشركة أو يبلغ الـ(HR) بفعلته, وباتت كلمات من نوعية (غريب, عجيب, محزن, مقلق) التي تبادلوها غير معبرة عن دهشتهم لحالة رئيسهم, الذي غاص خلف مكتبه الزجاجي حاضرًا غائبًا ببذلة لم يبدلها من الأمس, مقعي اليدين, يحدق في الهيولي, بعينين استحالت بنيتهما لحمارٍ, لا يستقبل المكالمات ولا يُقابل أحدًا, وحينما يدخل إليه أحد موظفيه, بنظرات آيسه يهز له رأسه بالإيجاب أو السلب, ويصيح بحدة مجفلة لو أزاد في الكلام, حتى أن عم خليفة ـ ذاك الرجل العجوز ـ الحاوي بداخله محبة صادقة للمهندس بديع, منذ استقبله الأول يافعًا صغيرًا يأتي من مسقط رأسيهما, المنصورة, ليعمل بالشركة, تحسس كلماته أمام ما يربض فوق صدر مديره, فسأله بآلية وهو يضع أمامه فِنجان قهوته (الإسبريسو) الداكنة:

ـ سيادتك بخير؟ الأولاد بخير؟ أتريد سيادتك أن تشكو من أمر معين؟

مع آخر سؤال حرك المهندس بديع رأسه نافيًا, ففهم عم خليفة العلامة, واستدار ببطء عمره عائدًا, ضاربًا كفًا على كف, وهو الذي لم يشاهد المهندس بديع طوال أربعين عامًا يجلس بهذه الوضعية ولو ساعة, يعرفه دينامو؛ لا أجازات, لا أمراض, ولا أسافر خاصة, توقفه عن العمل, فهو أما أن يكون في المقر الرئيسي, أو فرع أخر, أو موقع تشطيب وفي الثلاث حالات يعمل, حتى أنه عشية وفاة زوجته حضر إلى الشركة قائلا لهم إنه سيدفن أحزانه بالعمل, وحتى مع علمه مؤخرًا بمرضه الخبيث الذي باغته لم يضعف قط, أو يستريح, بل ولا يزال يرفض إجراء الجراحة كيلا يتعطل العمل يوم, تُرى ماذا دهاه؟! ما الذي يمكن أن يكون حدث ليصل لِمَ هو عليه؟!

الذي لا يعرفه عم خليفة أو العاملون أن هذه الحالة التي دثرت رئيسهم بعباءة من الاغتمام حدثت من الليلة الفائتة, حين كان المهندس بديع يقود في طريق عودته من عمله. تحت سماء القاهرة, ضوضاء, وجو جاف, نسماته حامية, عزله عنهم زجاج سيارته (الرانج روفر) الفارهة, كان مُسرعًا عائدًا إلى فِيلاَّته (بكمبوند القطاميه جاردنز) بالتجمع الخامس, حينها واتته عاصفة من الآلام المُبرِّحة في معدته, جعلته يتناول قرصًا من الدواء المُسكن الذي لم يعد يفارقه بعدما علم بمرضه, ليجد نسماتٍ من هناءٍ وسرورٍ تهب عليه, باتصال ابنه الأكبر خالد, ولكنه بعد دقيقتين من فتح الخط سقط في شرك حزنٍ مطبق, حتى وصل الأمر به ليعتبر أن هذا هو أسوأ يومًا في حياته على الإطلاق؛ حيث أن هاتف ابنه خالد كان بيد حفيدته ساندي؛ عامًا ونصف من البراءة جعلها تعبث بهاتف والدها, لتتصل خطأ بجدها؛ الوشيش الذي صاحب حركة الصغيرة, قبل أن تترك الهاتف موضوعٍ في مكانٍ ما, هو الذي كشف له الأمر, حيث ابتعدت الصغيرة, فيما صوت زوجة ابنه راح يقترب وهي تخلِّط العامية الرقيقة باللكنة البريطانية, تحدث إحدى صديقاتها وتخبرها إنهم وصلوا من جنوب أفريقيا منذ ثمانية أيام, ومتواجدين في القاهرة لأسبوعين آخرين, ثم ضحكتْ مسترسلة بأنهما لم يخبروا أحدًا حتى لا يعرف حماها بوجودهم؛ مُفسرة تصرفهما بالهرب من تسلطه وإكثاره من زياراتهم, وإلحاحاته المتكررة بالمكوث معه بفِيلاَّته, صمتتْ هُنيهة قبل أن تؤكد أنها بريئة وأن هذا قرار ابنه خالد!

كم أوجعته الجملة الأخيرة! وصل فيلاَّته, بروحٍ متخشبة, لو دُق فيها مسمارًا آخر لانفلقت نصفين, لم يُسلم سلامه المعتاد على بيجو؛ كلبه (الجيرمن شيبرد) الذي رفع قائميه الأماميين إزاء صدر صاحبه, مبادرًا بالسلام فخذله المهندس بديع, ولم يمرر يديه على فكه وجمجمته كالمعتاد, فقط اكتفى أن ينظر إليه بوجهٍ شاحب, قبل أن يُلقي بساعته (الرولكس) على العشب الندي, ومن ثم أفترش مقعدًا ثابتًا بالحديقة, فدار بيجو من حوله متملقًا, قبل أن يستسلم ويرقد بجواره, فيما حث حارس الأمن الخطوات إليه, قلقًا من عدم دخوله إلى فِيلاَّته على خلاف روتينه الذي لا يُغيره, فطمأنة المهندس بديع بجملة قصيرة أردته غرفته الخشبية, وراح يرنو إلى بيجو, كلبه الذي يجلس بجانبه ولا يتركه, كلبه الذي يحبه أكثر من أولاده, وهو أخلص منهم وأوفى, بل ربما هذا الحارس طمرت فيه العِشرة وبات يحبه أكثر منهم, نظر إلى هاتفه آخر محادثة بينه وبين أحدهم, كانت من طارق مذ أربعة أشهر, بل وهو الذي بادر واتصل به بعدما هاجمه مشاهد على الهواء, حاول التماسك والتوقف عن التفكير, كيلا يموت كربًا في هذه الليلة المُوحشة, فقام ومن خلفه نهض بيجو, يرمق صاحبه الذي أفرغ من شريط الدواء المنوم ثلاثة أقراص, وأبتلعهم دفعة واحدة بريقٍ جاف, قبل أن يدخل إلى فيلاته الواسعة, التي من الداخل عادت تشبه المتاحف؛ غاية في العراقة والأناقة والبهاء, بعدما غير المهندس بديع نسقها الداخلي مازجًا بين (الديكور المودرن, والديكور القوطي) هذا الأخير بألوانه الغامقة, وخاماته الخشبية الثقيلة, وتحفه الحجرية, عاد يوحي له وهو يتحرك في البهو أنه واحد من أولائك الملوك الذين كانوا للأعداء مدمدمين وللقلاع مُشيدين, لكن هذا كان, فر منه هذا الوحي الآن, الآن هو صغير وبمفرده وربما لو تحرك يغرق أو يتيه فيه, حتى هذا الرخام الأحمر الفاخر, طالما شعر وهو يتلمسه بقدميه العاريتين أنه سيُحلق للأعلى, الآن أمسى يشعر وهو فوقه, أن وجهه سيتقلص كشمعة, وأنفاسه ستحبس, وسيهوى عليه ميتًا, الموت, بات الآن أقرب, ربما خلف الباب يدق, تحليلات الدم والمناظير ووخزات الخزعة, أشياء مثلت عينًا سحرية هتكت ستر الجلد, وكشفت عن ورم سرطاني يتمدد أعلى البنكرياس, ورم محتمل يقتله في الأيام القادمة ومحتمل ينجو منه بجراحة ثم يموت بسبب أخر, وما المشكلة فالجميع سيموت, وهو مستعد لهذه المرحلة الجديدة من حياته, لعل المقتنعين بأن الموت هو نهاية الحياة لم يموتوا من قبل, المعضلة تتمثل بمن سيموت محققًا لما تمنى ومن سيموت مخفقًا في ذلك, أهو حقق ما تمنى.. راح يتساءل؟!

المهندس محمود بديع: "شخصٌ مجتهدٌ ناجحٌ" تلك هي المقولة والنظرة التي ينظر الجميع له بها, وطالما نظر بها لنفسه, بل وطالما أقتنع بأنها عين الحقيقة, لكنها حقيقة زائفة كالقشرة, فكل هذا النجاح أتى نتيجة تعبه ليس سببًا لتعبه, الحقيقة التي أدركها متأخرًا لتعصره ألمًا, أنه ترس يدور, كل قيمته ترتبط بأن الماكينة بدونه ستتوقف عن العمل, أما بمفرده, فهو مجرد جماد لا روح فيه ولا جمال! لماذا نعيش؟ ما فائدة العمل؟ هل تستحق الحياة المعاناة؟ أسئلة تدور في خلد البالغين الصغار, ممن يرتعون في أوقات الفراغ, ولا يممون أرواحهم صوب أهدافًا يعيشون لأجلها, أسئلة لم يسألها المهندس بديع يومًا لنفسه طوال مشواره, باتت تطن في رأسه, ولا يعرف لها إجابة!

لو كانت أتته وهو شاب في مقتبل حياته, بعدما تخرج في كلية الفنون التطبيقية قسم الديكور لكانت إجابته حاضرة: "أنا أعيش لأجتهد وأنجح, وأرفع اسم شركتي الصغيرة, فأحيا أنا وأسرتي في رغد", هذه الإجابة ليست نموذجية كالتي يحفظها المتقدمين لمقابلات العمل, لأن هذا ما أثبتته السنون, فها هو قد حقق أكثر من أحلامه؛ بمجهوده كبرت شركته, حتى اشتراها وتوسع في عملها, وفي القريب ستصل أسهمها لأربعمائة مليون جنيهًا كالشركة رقم واحد في البلد في مجال (التشطيبات والديكورات), ومن عشرين موظف زاملهم إلى عددٍ يتجاوز الثلاث آلاف ما بين مهندس وموظف وفني يرأسهم, ومن مكتبٍ صغيرٍ في المنيل لفروعٍ عديدة ومقر رئيسي في أبراج المعادي الراقية, على قائمة جهات اتصاله أسماء أهم رجال الدولة وصناع قرارها السياسي والاقتصادي!

كل ما سعى إليه تحقق من نجاحٍ وشهرةٍ وأموالٍ وعلاقات لكن ما الفائدة؟! لأن كل هذه وسائل أما غايته, أسرته, ففشل فيها, وها هو بعد كل ما حقق يُطالع خادمه الذي يطعمه, بغبطة وهو يستقبل تليفون من ابنه الذي يعيش معه بنفس البناية ليطمئن على صحته, فيما ينتظر هو ابنائه الذين تدرجوا في المدرسة البريطانية, حتى شق كل منهم طريقه بعملٍ له وزن في المجتمع, أن يَمَنوا عليه بزيارةٍ قصيرة يهربون بعدها إلى حياتهم التي لولاه ما امتلأت, زيارة قصيرة يتمناها لكنها لا تحدث, مثلها مثل المكالمة التي تمنى أن يشاطرهم من خلالها وجعه, ويُعلمهم أن سرطان البنكرياس يقتله بصمتٍ من شهرين, وأنه يفكر في تركه يفعلها, ليجدهم يصطفون من حوله إقناعًا له بضرورة العلاج, وأهميته معهم وبجوارهم في حَياتهم, أهي أمنية بعيدة المنال؟! لو كانت صخرًا في الجبال لهدمه بساعده, لكن تلك الأمنية عصية, وآهٍ من الأمانيَّ التي ننتظر تحقيقها بيد غيرنا. مكالمة حفيدته, ساندي, الخاطئة لم تكشف له الحقيقة التي يعرفها, وبات يهرب من بشاعتها بحبات المنوم, هي فقط قتمت سطورها أمامه فتجلى سوادها أكثر؛ أولاده الثلاثة أنانيون قضى عمره كله من أجلهم, يقظًا يتناول القهوة والشاي والمنبهات ليُوصل الليل بالنهار, كي يصنع لهم حياة كريمة, وفي النهاية تركه كل منهم بحجةٍ فارغة, وها هو وحيدًا برأسٍ لا تكف عن الدوران, قلقًا لا يستطيع النوم حتى بعد ثلاث أقراص منوم, ويوم عمل شاق.

بدأت رحلة الفراق منذ فارق عقده الخامس, وقتها رحلتْ زوجته موتًا, لينفض عقد أسرته الصغيرة التي اعتاد, مع اِلتحاق ابنه الأكبر خالد بوزارة الخارجية وسفره, ثم استقرار ابنه الأوسط مازن بشرم الشيخ بداعي إدارته لقريةٍ سياحية, وأخيرًا طارق الصغير الذي قرر البعد هو الأخر وبدون سببٍ مقنعٍ أيضًا, البعد في حد ذاته لا يُمثل مشكلة, فماذا يعني البعد لو كانت القلوب قريبة؟ المشكلة أنهم تناسوه وكأنه مات مع أمهم, ليجد نفسه بمفرده تحت ثلاثة طوابق, في البداية قرر تجاهل اهتمامهم الذي ينشد, وأنضم إلى ثُلَّة من جيرانه المُسنَّين, مارس معهم النميمة, والخيلاء, ومباريات (الجولف والبولو) بانتظام لكن أمورًا كتلك بعدما استهوته لأيام راحت تنفره لشهور, فكر أن يتزوج ليؤنس وحدته لكنه شعر بالمهانة من أن يفعلها بعدما لم يعد للرغبة رغبة, حاول استعادت حلم شبابه القديم, بأن يأخذ أجازة من شركته يجوب فيها الكرة الأرضية برحلةٍ طويلة, لكنه أكتشف صدق مقولتين لم يقتنع بهما يومًا؛ أن الأمور السعيدة ترتسم قيمتها من داخلنا, وأن الجمال يكمن في أعيننا لا في أشيائه, بانت له حقيقتهما كالطود العظيم بعد عقده السادس, حينما وجد نفسه كمن فقد طعم السكر من فمه! ماذا لو زاد وزاد في تَحلِيَة كوب من الشاي؟! سيظل في النهاية ماسخًا لا طعم له, وكذلك هو مهما تبنى أو نفذ أشياء كانت تجعله في قمة سعادته فيما مضى سيظل مكتئبًا مغمومًا لا فرح له, حتى عمله قبلته الأولى فتر حماسه له!

وكأن روحه السعيدة غادرته مع أبنائه, الذين حتى لا يخططون للاتصال به مرة كل الشهر, لم يكن ضعيفٌ في الماضي ينتظر منهم أو من غيرهم شيء! لماذا إليهم يشتاق ويحن, أشابت قوته مع شعره وضعفت مع

مناعته؟ التي خرقها سرطان فتاك لا يرحم, سيُسقط ورقته من الدنيا بعد أيام, ليغادرها تاركًا خلفه ثروة, واسم كبير, وسمعة طيبة لثلاثة أبناء, أهم جديرين بهم؟ أوقات يُسلم أن القسوة هي حال جميع الأبناء مع آبائهم, أوقات يُسلم أنها سنة الحياة, وأوقات أخرى تحدثه نفسه أن يثور علي سنة الحياة هذه.

مع تحرك البندول الحائطي, تحرك المهندس بديع تاركًا فيلاته, وبيجو, وساعة من وقت نومه الذي لم ينمه, وصل مقر شركته فوجد حارس الشركة بزيه الرسمي الأزرق مستغرقًا في السُبات, وأمامه كوبٍ أفرغه من قهوته السوداء, يومًا غير هذا لكان شرًا مستطيرًا عليه لكنه اكتفى بأن هَتَف به: "أنت يا ابني" وتركه خلفه مفزوعًا بحال من أيقظته قنبلة, يتمتم ويلهج بالاعتذار, بنفسه فتح باب شركته, هرمه الكبير الذي لن يدفن فيه, وراح يتأملها من الداخل, مكاتبها الزجاجية, أجهزة حواسيبها, وأنقها الداخلي, شركة على مدار أربعين عامًا غير كل شيء فيها بأفكاره وبصماته للأحسن, لكنه على ما يبدو نسى نفسه وعائلته, ببصمة عينه فتح مكتبه, وجلس يُطالع (إيميل) شكاوى واقترحات العملاء, لكن إحساسه بالهم وشعوره أنه لا يُطيق العمل زاد, فيما أرتفع صوت زوجة ابنه وهي تؤكد لصديقتها أنها بريئة وأن هذا قرار خالد, فأطبق الحاسوب وغرق بأشجانه من جديد, وبداخل عينيه عُرض شكل الحارس, محروس, الذي ترك عمله وتوسد يده وغاص في النوم, لماذا في الماضي لم يترك العمل وينام؟ ماذا استفاد بعد كل هذا العمر, غير الخِذلان, ألا يتساءلون ماذا لو كسبت العالم وخسرت نفسك؟ ها هو بشركته أنار جزءًا من العالم وأظلمت روحه؟! أفنى عمره خطأ, وفي الطريق الخطأ, كمن قضى حياته يُصلي شطر المحراب الخطأ, هل عليه أن يُصحح اتجاهه أم يتعنت استكبارًا؟ دق هاتفه بنغمة إشعار, فتحه بيدٍ تعتاد **(سعودي يُثبت محبته ويتبرع بكليته لوالده وينهي معاناته)** خبر جاء في وقته, ليُجهز عليه قبل أن يفعلها السرطان, زفر همًا وأبعد الهاتف من يده, وارتخى بلباس يومه الفائت, بجسدٍ خائر وعقلٍ حائر, على مكتبه الزجاجي مقعي اليدين حاضرًا غائبًا, بعدما طلب ألا يتم إزعاجه بمكالمة أو مقابلة, قارنًا بعينين استحالت بنيتهما لحمارٍ دهشة موظفيه لحالته الكئيبة وعصبيته, يبدل نظراته بين اللاشيء, وقاطع الورق متسائلًا عن نتيجة إدخال هذه المدية في قلبه, هل سيصير أجوف كقلب أولاده؟ أم ستجعله يبدأ حياة أخرى غير هذه التي أخفق فيها؟ ظل على حالته هذه لسبع ساعات, لولا اختلاجات عيناه لأنتظر موظفيه دابة الأرض التي ستأكل منسأته وتخبرهم عن موته, قبل أن يرفع رأسه ويعيد الهاتف بين يديه من جديد, ويقرأ مرة أخرى **(سعودي يُثبت محبته ويتبرع بكليته لوالده...)**

****

الثلاثاء 22 مايو.. الثانية مساء

شعورٍ بالغربة يُسيطر على الإنسان حين يطل بملابس لا ترتقي لمّا يكتسي به المتواجدين من حوله, لكن الأبناء الثلاثة للمهندس بديع أحسوا بتلك الغربة وقت دخولهم قسم الشرطة, حيث أن بذلهم الفاخرة وعطورهم الفائحة الباعثة على الهدوء, لم تلق بمكان تنبعث منه رائحة الخطر والتحفز, في طريقهم لغرفة المأمور عابرين ردهة قصيرة, مروا على سيدة تلطم بجوار رجالٍ مقيدون بالكلبشات, رائحة كريهة كانت تغطيهم, دفعت الأبناء الثلاثة لتكميم أنوفهم, فيما يقف في مجموعة مقابلة أربع نساء بجلودٍ مسحوجة ونازفة يبكين و(يُحسبن) عليهم بصوتٍ رنانٍ في مشهد من قماءته لن يغادر رأس الثلاثة بسهولة, حينما دلفوا غرفة المأمور, كانوا مشتتين لا يدركون الحقيقة من الخيال أو التلفيق من الإجرام, في البداية حاولوا تكذيب أو على الأقل عدم تصديق ما يدعيه المستشار القانوني عن الواقعة, لكن كلماته التي يؤكد بها صحة الخبر, لم تكن أصدق من واقع أبيهم المهندس الستيني, الذي كان جالسًا كطفل موضوع على كرسي العقاب, استحال إلى تمثالٍ منكس الرأس لا يرد ولا تصدر عنه نأمة, فتصاعد غضبهم بسرعة سياراتهم الفارهة, وهم يطلبون منه أن يدافع عن نفسه وينفي ما يسمعوه, فحاول الدكتور حازم جمال بجسده الرجراج امتصاص غضبهم, قائلًا بأن ما يهم الآن هو إنقاذ أبيهم مما تورَّط, أمام سمعته ومنصبه المهددين انفجر خالد بأبيه زاعقًا غير مباليًا لشيء: "كيف يسمح لك سنك ومركزك بفعله شنعاء كهذه؟! لِمَ لم تراع مركزي الحساس؟! أين ما ربيتنا عليه؟! كيف سيكون منظري أمام الزملاء؟! وأبي الرجل المهندس القدوة المحترم يشرب الفودكا ويصطحب العاهرات" نطق الأب متجاهلًا كل ما سمعه, كأنما بات يعاني من حالة انعدام توازن, بأنه لن يتحمل أن يبيت يومًا واحدًا إضافيًا هنا, فما كان من طارق المذيع إلا أن عنفه: "وهل أنت أحمق لهذه الدرجة؟!", فتدخل الدكتور حازم جمال من جديد قائلاً لهم إنها

مجرد نزوة عابرة, فيصرخ مازن بعنف: "نزوة في الستين من العمر؟!" مع ارتفاع أصواتهم دخل المأمور غرفته, صافحهم واحد بعد الآخر, قبل أن يطلب من فضلهم أن يتوجهوا للخارج حتى يجنبوه المسئولية التي سيفيض لهم بها الدكتور حازم جمال.

خارج غرفة المأمور, طفق المستشار القانوني ببدانته ونظارته العريضة, يطلب منهم الهدوء والتَرَّيث حيث أن الموضوع تعقد للغاية, لأن أباهم مع للأسف اعترف بالواقعة, والشكل الذي رأوه عليه منذ قليل, نتيجة لحالته النفسية المتردية, بسبب خجله من مواجهتهم, فلاذ بالصمت, قبل أن يزفر طمأنه لهم, بأن الأمر على صعوبته يمكن أن يجدوا له حلول, حيث أن الخبر الصغير الذي أزعجهم استطاع إقناع رئيس التحرير برفعه من موقع الجريدة, وأيضًا المأمور يحاول مساعدتهم بكل الطرق, إلا أن المأزق الحقيقي يكمن لدى وزير الداخلية, الذي تحول من الصديق إلى العدو, بسبب الخلاف الذي حدث بينه وبين المهندس بديع مؤخرًا, بعدما أيد أبوهم وزير الإسكان في ملكية وزارته لقطعة أرض بمنطقة التجمع الخامس, متنازع على ملكيتها مع وزارة الداخلية, لذلك رفض بأمرٍ منه خروج المهندس بديع من محبسه بأي ضمانه, كما رفض أي استثناءات له, بل وهدد مأمور القسم ومدير الأمن بإحالتهما لقطاع التفتيش والرقابة إن خالفا تعليماته, وإن كان كل ما سبق يمكن قبوله, إلا أنه قام بالأمس بإدخال المهندس بديع الحجز, ويصر على تكرار ما فعله من جديد؛ والزج به لليوم الثاني على التوالي بالزنزانة, قبل أن يضغط شفتيه ببعضهما وهو يقول: "الوزير للأسف يتصرف طبقًا للقانون" ثم أوجز لهم بأنهم عليهم أن يصبوا كامل تركيزهم قبل الثامنة مساء, تجاه أمرين الأول هو التفاوض مع وزير الداخلية, والثاني إقناع الضابط بالتنازل عن حقه المدني لأنه وعلى الرغم من أن إصابته بسيطة, لكنه يرفض التنازل, وإن لم يفعلوا ذلك قبل الثامنة مساء؛ موعد مغادرة المأمور القسم, لن يكون أمامهم غير خطة بديلة لإنقاذ أبيهم من الحجز؛ وهي أن يَعترف أحدهم أنه هو من كان يقود السيارة وقت اصْطِدَامها بالضابط, ويُكمل في المحضر بأنه بعد ذلك ترك السيارة, فقادها أبوه بدون علمه بالجريمة التي وقعت, وبذلك سيتمكن هو من جعل أباهم ينام الليلة بفراشه, لأن وقتها سيتبلور الأمر كله بجنحة قيادة تحت تأثير الكحول, بل أنه سيستفيد من هذه الحجة أمام النيابة لإثبات أن وزارة الداخلية ضغطت على موكله ليَعترف بجريمة لم يفعلها, مستغلة بأنه لم يكن في وعيه وقتها, ثم سيستند على الخلاف الواقع بين أبيهم ووزير الداخلية, وسيدفع بتضارب أقوال الشهود, الذين اختلفوا حول لون السيارة, وشهادة حُسن سير وسلوك لفتاة الدعارة المتهمة, وسُينهي الموضوع لمن سيدخل منهم الحجز مكان المهندس بديع بطرقه الخاصة, بأول يوم من تحقيقات النيابة, قبل أن ينطق أحدهم بذاك الاقتراح المتوقع, بادرهم به الدكتور حازم وهو يتلتل صِوان أذنه اليمنى, أنه بالفعل عرض على أبيهم قيام موظف ممن يعملون لديه بهذا الاعتراف مقابل مبلغ مالي لكنه رفض؛ لعلَّه السرطان الذي جعله يتصور أنه سيموت قريبًا, ويخشى من أن يظلم أحدًا, وقبل أن يعترض أحدهم أدحض لهم المستشار هذا الاقتراح نهائيًا, حيث أنه بتتبع مسار السيارة التي خرجتْ من جَراج الفِيلاَّ, سينكشف الأمر, وستجد الداخلية فرصة سانحة لإثبات الاتهام على المهندس بديع, قبل أن يحذرهم كيلا يضيعوا وقتًا في تفكيرٍ غير مُجدي, بأن الخبر الذي أزعجهم كان مجرد اجتهاد صحفي استطاع إزالته وكان يمكن التشكيك في صحته لو لم يستطع, لكنهم إن لم يتوصلوا لحل حتى المساء, ستنشر في الغد قصص كبيرة في جميع الصحف الخاصة والرسمية, وبأمر وزير الداخلية عن الحادثة وستكون مفصلة وبالأسماء الكاملة, ثم طلب منهم مغادرة القسم ليفكروا بهدوءٍ في حل لتلك الأزمة, قبل أن يتركهم غارقين في ضجيج يلفه صمت الصدمة والفكرة, مُخبرهم باتجاهه لمكتب النائب العام لإيجاد حل.

ذهب بعد ذلك الثلاثة أبناء إلى ضابط الشرطة المَصدوم, فصدمهم بمعاملته مثلما فعل رئيس التحرير مع طارق من ساعات, حيث خاطبهم بنوعٍ من التحدي من البداية وطردهم بالذوق من منزله في النهاية, بعدها باءت كل محاولات خالد بديع للوصول إلى رئيس الوزراء أو وزير الداخلية بالفشل, فأتصل برئيس البعثة الدبلوماسية في جوهانسبرج, وطلب منه بشكل ودي التوسط لدى وزير الداخلية ليسمح بمقابلته خمسة دقائق لأمر شخصي وعاجل, وفعل مازن نفس الأمر مع وزير السياحة, أما طارق فناشد خمسة من أعضاء البرلمان, انتظروا جميعًا الرد لكن بلا جدوى, فجميع معارفهم الذين جَيَّشوا, أجمعوا أن موقف وزير الداخلية لا يتزحزح قيد أنمله, فوقف الثلاثة رغم مراكزهم الهامة وثرواتهم عاجزين أمام هذه المصيبة التي تهدد مكانتهم.

في السابعة مساء, طلب منهم المستشار القانوني الدكتور حازم جمال المقابلة لأخبارٍ سارة بأحد الفنادق القريبة من قسم الشرطة, وهنالك أخبرهم أنه استطاع الحصول على قرارٍ من مكتب النائب العام بحظر النشر, كما أنه

جهز كل الأدلة التي سُتنهي القضية في أول يوم من تحقيقات النيابة كما وعدهم, فدب الارتياح على وجه الثلاثة, وكأنهم استفاقوا من كابوسٍ مرعب للتو, فأعادهم المستشار القانوني إلى أرض الواقع وهو يداعب صِوان أذنه برفق, بأن أباهم قابع بمحبسه لا يزال, وأعاد على مسامعهم الحل الوحيد الذي عرضه عليهم, مشددًا بأنه لا بديل عنه لإنقاذ أبيهم من قِراف الحجز, وأن التضحية بيومٍ أو أثنين من حياتهم ليست بالكثيرة على أبيهم, خاصة بعد الحالة النفسية التي وصل إليها, فربما لن يتحمل يومًا أخر في القسم ويجن بسبب ذلك, علت همهمات صامته بينهم قبل أن تتحول لجمل استنكار من خالد وطارق ومازن على التوالي:

ـ إذا دخلت الحجز سأفقد وظيفتي وأتحول لعملٍ أداري.

ـ لن أستطيع إثبات براءتي.. إن تسرب لجمهوري أني أسكر وأصاحب الفاجرات.. وسيتسرب.

ـ لا يمكن أن ندفع ثمن خطأ من خف عقله ولم يراعِ سمعتنا.. من أخطأ عليه أن يتحمل النتيجة بمفرده.. ولو نجا مما هو فيه علينا أن نحجر عليه بعد ذلك.

بلهجةٍ متأنية خاطبهم المستشار القانوني الدكتور حازم جمال, بأنه لو كان أيًا منهم مكان أبيهم, لم يكن ليجعله أبدًا يبيت في الحجز, وذكرهم بموقف مشابه حدث لخالد قديمًا عندما صدم سيدة حين كان مراهق يتعلم القيادة لا يزال, ليلتها قال المهندس بديع في المحضر أنه هو الذي كان يقود السيارة, ولولا أن الموضوع تم حله مع السيدة, لكان سيُكمل على هذه الوتيرة حتى لو أدين بحكم محكمة, وكذا كان سيفعل مع أي أحدًا منهما ـ مازن أو طارق ـ ثم استرسل بأن أباهم هو من جعلهم رجالًا مُهمَّين, وربما هذه فرصتهم ليثبتون فيها محبتهم له, خاصة وأنه يضمر حزنًا, لقلة سؤالهم عليه, قبل أن يرفع معصمه الثقيل وينظر إلى ساعته, ويذكرهم بأن كل المتبقي قبل مغادرة المأمور للقسم ربع ساعة, بعدها سيدخل أبوهم الستيني المريض الزنزانة لليوم الثاني على التوالي برفقة المجرمين والقتلة, دمدم الثلاثة معترضين كأفران خربة قبل أن ينهضوا ويذهب كلًا منهم لسيارته, وهو يُحرك شحمة أذنه للأمام وللخلف هز المستشار رأسه بأسى من تصرفهم, قبل أن يسحب تليفونه ومعه نفسًا من سيجارته البنية الطويلة, ويعاود المحاولة معهم من جديد, ليتجاهل مكالماته الاثنان الكبار, فيما رد أصغرهم طارق بعد ثلاث مرات, وعلى مضضٍ.

****

في الثامنة والنصف مساء تحرك المأمور إلى بوابة القسم, مودعًا المهندس بديع, الذي ارتسمت على وجهه مشاعر متضاربة, ومستشاره القانوني بسلامٍ حار, وفيما كان سائق المهندس بديع يفتح باب سيارته (الرانج روفر) ليركب, أعطاه مستشاره القانوني هاتفه المحمول, وهمس إليه: "سيادة الوزير" فتناول المهندس بديع الهاتف وتحدث بلهجةٍ شاكرةٍ: "سيادة وزير الداخلية أعلم مشاغلك.. فقط أردتُ إعلامك أن الموضوع انتهى وقد حسمت قراري.. أشكرك على ما بذلته معي من مجهود.. نعم شكرتُ معالي رئيس الوزراء.. ورئيس تحرير الجريدة ونقلت حملة دعائية عنده.. على سبيل الترضية بعد الإهانة التي تعرض لها من طارق.. وسأتصل وأشكر بنفسي ابننا الرائد الذي مثل دوره بإتقان.. في الغد سأسافر برلين للعلاج وإجراء الجراحة.. سيادة الوزير الحياة والموت لم يعدا يشغلاني على الإطلاق, فقط الألم الذي لم يعد يُفارقني.. سلمك الله.. نعم كنت سأترك إدارة الشركة لأكثر المهندسين كفاءة, لكن بعد ما فعله أبنائي سأتركها مع أكثر المهندسين إخلاصًا.. إن عُدت من برلين سأبدأ حياة جديدة.. لم أقرر شكلها بعد.. لكنها ستكون جديدة في كل شيء.. أسمح لي معالي الوزير بالاختلاف معك.. هم من قسوا علي في الدنيا وأنا سأفعل بالمثل معهم ولن أظلمهم بعد موتي.. الأحاديث التي دارت بينهم وسجلها لهم الدكتور حازم روَّعتني.. خسائر البورصة لن تكون أصعب علي من خسارتي لهما.. الخسائر المادية سأعوضها حتمًا.. أنا من صنعتُ الفلوس.. وهما لم يتركا لي طريقة غير هذه, أشكرك معالي الوزير.. في حفظ الله"

****

أين يمكن العثور على أخبار المهندس محمود بديع في الصحف؟

سؤال يسهل لمن يُطالع بلاط صاحبة الجلالة أن يُجيب عليه, فالمهندس محمود بديع دائم التواجد بأخبار شركته على الصفحات الاقتصادية, التي على الدوام تبرز أنشطة شركته من مناقصات ومزايدات, إلى جانب شراكاتها وتعاقداتها المتنوعة مع بيوت (الديكور) الأوروبية, أخبار كثيرة وصغيرة لشركته تنتشر في الصحف منذ عشرين عامًا, بالتحديد منذ أشترى الشركة التي كان يعمل بها, تنتهي جميعها في الفترة الأخيرة بفقرةٍ ثابتة **(يُذكر أن المهندس محمود بديع هو رئيس مجلس إدارة شركة Ideal Design المتخصصة بأعمال الديكورات والتشطيبات والتي تنشط في البورصة المصرية بقيمة سوقية ضخمة تتعدى الثلاثمائة مليون جنية)**, باستثناء خبر احتفاله بزواج ابنه خالد, هو الذي كسر تلك القاعدة ونُشر بالصفحات الاجتماعية, لذلك أن يُنشر خبرين في أقل من يومين يخصا المهندس محمود بديع على صفحات الجرائم والحوادث فهذا أمر له العجب**!**

****

الأربعاء 23 مايو.. الواحدة صباحًا

لو سُمح بتصنيف جماعة من الناس يعانون بعد الأزمة أكثر من وقت الأزمة نفسه, فبالتأكيد خالد بديع سيكون رئيسهم؛ الدِبلوماسي الشاب ظل يحرق كافيين القهوات, ونيكوتين السجائر لخمسة ساعات أمام شاشة حاسوبه المحمول, يتابع صفحات التواصل الاجتماعي, فإن نجح الدكتور حازم جمال بحظر النشر لن يستطيع تكميم الأفواه؛ معرفة العامة بأمر كهذا سيدفع وزارة الخارجية بإلقائه من حقيبتها الدِبلوماسية؛ حفاظًا على سمعتها نقية بدون شوائب, طوال الخمس ساعات لم يلفت نظره معرفة أو اهتمام أحدًا بخبر قضية أبيه, قبل أن يُباغته ويظهر أمامه ويصرعه:

من ساعتين.. رجل أعمال شهير يتبرأ من ابنيه

تبرأ رجل الأعمال المهندس محمود بديع 63 عام في محضر إداري من ابنيه خالد بديع ملحق دِبلوماسي, ومازن بديع مدير منتجع سياحي بمدينة شرم الشيخ, لجحودهما, على ألا يحرمهما هذا الإجراء من ميراثهما الشرعي بعد انقضاء الأجل, وسنوافيكم بالتفاصيل.

لم يكن كابوسًا يا حبيبتي

أميرة.. في هذه اللحظات التي أكتب إليكِ هذا الكلام, يكون قد مر شهر على فراقنا, لم يكن بيدي ولا بيدك ولا بيد عمر, ربما ترتيبات القدر ليعذبني فتغلو مكانتك عندي أكثر, وهي أيام وسنعود كما حلمنا معًا, نخوض في مصاعب الدنيا بابتسامتنا فلا يغلبنا فيها غالب, وربما هي النهاية لحب استمر تسعة أشهر, فيهم كنتِ وأنا نحاول إثبات من منا يحب الثاني أكثر, أميرة لا أعلم ماذا سيجري غدًا أو بعد غد ومن هذا الذي يعلم.. فيهدأ, كل ما أعلمه أني ظننتُ ليلتها حينما قمت مفزوعًا من فراقك أنه كابوس, لكني تأكدت مع الأيام أنها كانت لحظة وفاتي تلك اللحظة التي فارقتْ فيها سعادتي جسدي, فمت, الأمر بسيط, لا يحتاج إلى طبيب ليشخص حالتي, كل ما كان ينقصني وقتها هو تدوين ساعة وفاتي بدقة, مت بعد ثلاثين عامًا من العبث, وتسعة أشهر من السعادة, مت فجأة كمن يصعقه تيار كهربائي, أو تُشق أمعائه بسطور معدني, سيظن الحمق من حولي أني حيًا مثلهم, سيدعونني للفرح والانتعاش, سيسفهون أمري أن الحياة لابد أن تستمر وأن البنات كثيرات وهم يقهقهون, لن تقنعهم السطور الفائتة أني رحلت عن دنياهم, لذلك دعيني أخبرهم بطريقة أخرى, أمر بأسوأ تجربة نفسية في حياتي الطويلة وأنا الثلاثيني العابث, لا أعرف كيف حدث هذا, كل ما أعلمه أني أتذوق الموت كل لحظة ومع ذلك محروم من نعمته, الموت اللعين نذل كالنصيب, لا يهاجم إلا الجبناء؛ من يخافون منه, من يأملون لو تطول أعمارهم لألف عام, أعرفه لن يهاجم إنسان ينتظره مذ شهر, ليخلصني من عذابي ببعدي وفرقي عنكِ, الموت أو أنتِ, أنتظر الهدية من دنيتي وأعلم أن دنيتي لئيمة لن تريحني لأظل وسط الحمق المعتقدين أني حيًا أرزق, وماذا عساني انتظر من الحمق, الذين يعتقدون أن الأسد الرابض في قفصه سعيد بعيونهم التي تحملق فيه, لا يعلمون أنه لو فتح القفص لغادر إلى أبعد نقطة عن وجوههم, لا يعلمون أنه مات وأنه يتنفس ويزأر فقط على أمل أن يتركوه يومًا يرحل بسلام, وعلى أمل أن تعودي أتنفس أنا وأتحدث, يومها يا أميرتي سألملم شتاتنا, وأضمد جراحنا وأحتضنك, وبسلام سأرتحل معكِ لأبعد أجمل بقعة في العالم وإن لم نبرح مكاننا.

اِقْتِفَاء صَوْت

كيسان بلاستكيان مختلفي الحجم, طوى الصغير بداخله عبوتين (بيبسي دايت), أما الكبير فحوى عبوة أصابع ذهبية من البطاطس المقلية, إلى جانب ثلاث علب سلطات مختلفة, تسلمتهما من البائع وقبضتُ عليهما, وحملتهما مع علبة البيتزا الكبيرة الساخنة, التي منحتني فتحاتها الجانبية شعورًا لذيذًا بالدفء, كي أتحول وأنا أجهز لهذه السهرة إلى طفلٌ يسعده إضافة قطع جديدة إلى لعبة (البازل) خاصته, ممنيًا نفسي بليلةٍ ممتعة, ولم أنسَ قبل صعودي شراء ثلاثة أكياس ورقية من المُسليات, نفخ الصبي النحيف أحدهم بحبات الفول سوداني, وعبأ المتبقيين باللب الأبيض واللب السوري, دقت علياء هاتفي تتعجلني, بثثتُ لها إني على درج العمارة أصعد, تخطيتُ دور بيتنا إلى دور بيت خالتي, لتفتح ابنتها علياء الباب, وتحمل مني العشاء, قبل أن توصد الباب بدون صوت, وتستدير وأنا في إثرها بعدما خلعتُ نعلاي, وحملتهما بين يداي كزوار الجوامع, عبرنا الردهة المُفضية إلى غرفتها متسللين من خالتي الغائبة في الشق الآخر من البيت, ما إن دلفنا غرفتها التي صدحت منها أجواء المباراة, حتى رحتُ أغلق علينا الباب من الداخل, فوق المنضدة المركونة يمينًا وضعتْ علياء العشاء, ليجاور ملزمة مادة القانون الإداري, حينئذ أطفأتُ نور الغرفة فبزغ القمر بعد أفول الشمس؛ حين تهللت الغرفة بوهج المباراة فقط, رفعتْ علياء الصوت بالقدر الذي يسمح لنا بالمتعة, ولا يُزعج خالتي, "ثلاث دقائق فقط ويبدأ السحر.. تبدأ المعركة.. ثلاث دقائق تفصلنا عن ضربة البداية للمباراة التاريخية بين العملاقين آرسنال.. ليفربول" يُحفزنا المعلق ونحن أمام الشاشة منسجمين, حتى جذب صوته الحماسي خالتي, فطرقتْ الباب على ابنتها زاعقة, من مكاني قمتُ, وعلى سرير علياء وثبتُ وبدثارها تدثرتُ, واختفيتُ, "أقعدي وأمسكي كتاب بدل الكرة والطين هذا.. ووطئيه" كانت تلك كلمات خالتي التي بكتت بها ابنتها, فيما لم تجد علياء إلا أن تهز رأسها قائلة: "سأوطئه" ككلمة واحدة موجزة خرجت من كومة الضحك المكتوم التي ما لبثنا أن غرقنا فيه سويًا, بعدما رحلت خالتي؛ وعلياء تسألني رافعة حاجبيها متعجبة عن سبب اختبائي بهذه الطريقة!

دخلتُ متلصصًا, واختبأت في سرير علياء لا لشيء, إلا لخوفي من أن تقدحني خالتي بنظرة حارقة, أو تلسعني بكلمات كالتي أسمعتها لعلياء تقتل فرحتي بالمباراة, بل لو رأتني كانت ستُزيد من وصلة التوبيخ ملقية علينا إعصار من تهم الفشل والإهمال واللامبالاة, مختتمة بقسمها الشهير: "والله لن تُفلحا أبدًا" ربما في ليلة غير هذه, ليلة لن يُسلخ من ظلامها نهار الامتحان, كانت ستبتهج خالتي لرؤيتنا معًا, اقتناعا منها أننا سنتزوج لا محالة, "علياء لعلي وعلي لعلياء" مثل تفكيرها في ذلك كمثل أمي التي تؤمن هي الأخرى بوجود حبلٍ غليظ يربطنا لن ننفك منه أبدًا, حبلٌ ينتظر أن نوثقه عند المأذون, مأذون! أي مأذون؟! أيجوز زواج الأخ من أخته؟! نسأل أنا وعلياء مقهقهين في مرح, تسخيفًا لرغبتيهما, تتبرم أمي وتشيح بيدها اعترضًا على دلعنا, فيما تذم خالتي شفتيها مُبكته إيانا, وهي تعد على أصابعها ما يجمعنا؛ بأننا بنفس العمر وميلادنا حدث في ذات الشهر, ولدنا في مستشفى واحدة, تربينا في نفس العمارة, وكبرنا سويًا في مدارس مشتركة, وذهبنا إلى الدروس معًا, وطوال عمرنا نُحَصل نفس الدرجات, تهب أمي قائلة وهي ترفع طرحتها من كتفيها إلى رأسها, مُلاقية طرفيها بدبوسٍ إذانا بالرحيل: "ليس لكما إلا أن تتزوجا وتسترا بعضكما", تصخب ضحكاتنا أنا وعلياء؛ على تفكيرهما القديم, فتزمجر خالتي مُلقية جملتها لأمي: "لا تتعبي قلبك معهما يا أختي.. هما ككعبي النعال.. الآن تصالحا وغدًا سيحبا بعضهما غصبًا عنهما ويتزوجا لأنها تدابير القدر", ثم تنظر لنا باستياء, نحب رؤيته في قسماتها وهي تذكرنا بأننا وقتما حاولنا ألا تجمعنا كلية واحدة, ودرنا برحى ملفاتنا بين خمس أو ست كليات مختلفة, في النهاية حطينا معًا في حقوق عين شمس, وحتى في الامتحانات أجلسونا خلف بعضنا, قبل أن تتذكر فتنفرج شفتيها ببصيص مداعبة: "أنتما حتى الثالثة الابتدائية كنتما تستحمان معًا" يعم الضحك جلستنا, ضحك لا يخلو من نظرات مبتسرة بيني وبين علياء.

"علياء لعلي وعلي لعلياء" لست متأكد أن خالتي هي من ابتدعتْ هذه العبارة لكني متأكد أنها الأكثر إخلاصًا لها, فهي من حرصتْ ألا نكون أخوة من الرضاعة, ودأبت على أن تُحممنا معًا في فترة أسبوعية واحدة, اعتقادًا منها أن الأجساد في مكمن الطفولة تتعلق ببعضها, ووقتما نبلغ سيكون ارتباطنا بجسدينا أبدي, وقبلها أصرت على إطلاق حروف اسمي على وليدتها التي تبعتني للدنيا بثماني أيام تفاؤلا, مضيفة حرفين لزوم التأنيث, هل حقًا علياء لعلي وعلي لعلياء؟ بمفردنا أنا وعلياء نتساءلا فنضحك بقدرٍ, قدرًا يواري إثارة طفولية للتجربة!

نسترسل أنا وعلياء في الذكريات, ماضينا البغيض معًا يعود أمامنا, لكنه مُحلى بمزيج من الحميمية والسرور؛ فنحن منذ بدأنا ندرك, وعادة فترة التحمم فترتين, لا نمتلك لحياتنا معًا إلا صفحة سوداء, حيث كانت تجر خناقي فنتعارك ضربًا, وعضًا, وخنقًا, وسحجًا, فنتلقى عقابنا السرمدي, بأن توسعنا خالتي ضربًا بشبشبها الجلدي, وأمي بأخر بلاستيكي بُطنت أطرافه بالقطيفة, فيما بعد تولتْ هي مهمة ترصدي, والوشاية عليّ كهدفٍ تقوم عليه حياتها, ورغم أني كبرتُ, وبات جسدي أصلب, لكني وقتها أدركتُ أن ضربها من الأمور العيب, فاكتفينا بالشتائم, وتبادل جُمل التنابذ, وتسخيف وجهات النظر, فاستحقينا من سكان العمارة كلها لقب ناقر ونقير, فيما بعد تغيرت طريقة تعاملنا, ربما لأننا أصبحنا أعقل كما تقول خالتي, وربما لتأثري بوفاة والدها وشعوري أني رجُلها الوحيد كما تقول أمي, وربما بسبب ذاك الحبل الغليظ الذي تؤمن به أمي أو القدر الذي تصدق فيه خالتي, وربما لسببٍ غير معلوم تمامًا, ما معلوم أننا منذ ولوجنا الكلية من ثلاثة أعوام استحلنا أخوين حقيقيين وصديقين قريبين, أسرارنا معًا, واعتمادنا كلية على بعضنا.

خواطر تباغتني أن علياء هي القدر الذي لا مناص منه تماما, كما تدعي خالتي, علياء ليست الجميلة الرومانسية الحالمة التي ما أن عرفها أحد سيشعر أنها تُكمِل الجزء الناقص من حياته, بل هي الفتاة القوية, بأفعالها الأقرب إلى كل شيء ذكوري ككرهها للمكوث بالبيت, وحبها لكرة القدم لعبًا ومشاهدة, ارتيادها للدرجات النارية التي طالما جعلتني استأجرها لها, وعشقها للجلوس على المقاهي, وفضولها لتجريب صنوف الشيشة, كلامها الذي قلما يخرج عن ثلاثة أمور الكرة, السياسة, والحوادث التي تبتاع الجرائد من أجلها, أما صوتها فعالي به حشرجة, حتى شكلها الجسدي مختلف عن الأخريات, أورثها أبيها طوله وكتفيه المستقيمين, وأصابعه القصيرة البادنة, لم أضبطها يومًا تهتم بتنسيق ملابسها أو ألوانها, حتى أن خالتي راحت تشتري زجاجات المناكير وأقلام الروج, وتعطيني إياهم واعزه إلي أن أقدمهم لابنتها كهدايا, للفت نظرها أنها كبرت وعليها الاعتناء بنفسها, وكلفتة ذات معنى أني أهتم بها, فما كان منها إلا أنها تعيدهم وتسترجع ثمنهم وتدخره!!

بحثًا عن الأنثى التي بداخلها كما تنصح خالتي, في الكلية ونحن نمشي بجوار العشاق المتجاورين, أُسمعها كلمات كالتي تبدأ بها قصص الحب والغرام, فلا تتردد بضربي بكوعها في فم معدتي, اغتاظ وأنعتها بعم عبد الغفار البواب, فأجد وجهها يربد, وطاقتها تستكين, والارتباك يفور في مقلتيها, وبصوتٍ متهدج تقول: "ربنا يسامحك", هي أختي, نعم, لم أفكر فيها زوجة لكن من فكر في أمه أو أهله أو بلده أو أختارهم؟ خرجنا للحياة وجدناهم, وكذلك علياء, لم أفكر فيها زوجة مطلقًا, لكني لم أفكر من الأساس في غيرها بجانبي, ومن يعرف ربما علياء لعلي وعلي لعلياء.

كل شيء هذه الليلة بدا جميل لم تُخلف المباراة وعودها, وأتت بإثارة ولُعبات حلوة متقنة حتى انتهت بنتيجة عادلة بهدفين لكل فريق, البيتزا أيضًا كانت شهية صُنعت من مكونات طازجة أطابتها, بعد المباراة داهم كلانا شعورًا لزجًا كرطوبة الهواء, حيث أنه وقت قراءة الملزمة استعدادًا لامتحان مادة القانون الإداري, التي تنحصر معرفتنا به في الاسم فقط, رمقنا بعضنا متبادلين لغة تفاهم صامتة, لو نُطقت كلماتها لقالت أن الملزمة تحوي على ستين صفحة ستأخذ كل صفحة دقيقتين أو أقل, وبالتالي كل ما نحتاج إليه هو ساعتين فقط, لذا لا بأس من التلكؤ قليلاً, فاستغرقنا في تحليل المباراة, وبعدها سلب فيلم (The A-Team) المحبوب عقلينا منا, وكأنه مسك ختام ليلتنا, بعدما وجدناه أمامنا صدفة, لماذا لا يُخزن الإنسان النوم في صوامع؟! كان هذا حالنا وقتما حام النوم فوق رأسينا, بعد انتهاء الفيلم مباشرة فتحنا الملزمة ومعها النور, كوبان متوسطان الحجم من القهوة التركية الممزوجة بالكاكاو دفأنا, وجعلانا نبدأ بزخم الصفحة الأولى ونتبعها بالثانية والثالثة حتى وصلنا إلى السادسة عشر, حيث بدأ الخدر البارد يتكبكب من داخلنا لخارجنا, ومن الجالس الذي يُغالب النوم في ملكه؟ غير المهموم بالغد, قاومنا حتى الصفحة الثالثة والثلاثون, قاومنا حتى لم يعد الأمر أكثر من مرور على السطور المتلاصقة, بحلول الصفحة الأربعين كانت أطرافنا قد تجمدتْ, وأعيننا بصمغٍ عربي قد أغلقت, ضبطنا المنبه لننام قليلًا, ونستيقظا ونكملا ما تبقى, تمددنا بعرض السرير موغلين بوضعين غير مريحين؛ فردت هي قدميها على الكرسي, ورفعت أنا قدماي على المنضدة, وضعان يحفزانا على القيام حين يُرفع أذان الفجر, ويُجَّن المنبه صائحًا, بعد مرور ساعة ونصف بالضبط, لكنهما لم يفعلا! انقطعت الحياة وعادت حين هزتني علياء بعصبية, استفقتُ مفزوعًا, كانت الثامنة والنصف ولم يتبقى على لجنة الامتحان خلاف نصف ساعة, قربتْ علياء مني نصف ورقة وقلم وهتفت إليّ: "أنقل العناوين العريضة فيما يتبقى من الملزمة", كتبتُ مُسرعًا بخطٍ صغيرٍ, فيما

كانت علياء تتجهز للنزول, لم استعد كامل تركيزي إلا ونحن في الطريق, الذي عانينا تحت سمائه من زخات المطر, أخذتْ علياء الورقة وخبأتها في كم بلوزتها الصوفية الزرقاء, ورقة لن نحتاجها إلا إذا عاندنا الحظ وأتت الأسئلة مما لم نتطرق إليه, تمنينا هذا, لكن في اللجنة عاندنا الحظ!

السؤال الأول: ما المقصود بالازدواج القضائي؟

السؤال الثاني: عرف بإسهاب الفرق بين نظام المركزية الإدارية ونظام اللامركزية الإدارية؟

السؤل الثالث: ما هي مبررات وجود قواعد قانونية مستقلة ومختلفة, عن قواعد القانون المدني في مجال مسئولية الإدارة العامة؟

لم أكن أعرف غير حل السؤال الثاني, كتبتُ إجابته في نصف صفحة ودقيقتين, كِدت أنظر بعد ذلك لعلياء قانطًا, تراجعتُ, كان عليّ التماسك والابتعاد عنها كليًا, حتى لا أثير شك الملاحظين اللذين يطوفان باللجنة من حولنا كدبورين تائهين, لم أجد أمامي غير الانتظار وتنسيق كراسة الإجابات بخطين عرضيين مستخدمًا القلم الرصاص مثلي كمثل تلاميذ المرحلة الابتدائية! نصف ساعة حتى التقطتُ إشارتها, بثلاث نقرات متتابعات على مقعدها, تردف أنها انتهت وستسلمني الورقة, نظرة بطرف عيني طمأنتني أن أقرب الملاحظين لنا على بعد عشرة أمتار, بسطتُ ذراعي إلى الخلف حتى شعرتُ بأظافر علياء وملمس الورقة المطوية على راحتي, قبضتُ عليها ساحبًا ذراعي, وأدخلتها في جيب معطفي استشعر الأمان, الملاحظان في موقعهما لا يزالان, تنفستُ الصعداء وما إن شرعتُ في فضها, حتى شعرتُ بيد أحدهم تربت على كتفي بغضب, انتفضتُ لكني تماسكتُ, لم تكن يد علياء, كانت تخص رجلًا خمسيني لا أعرف من أين انبلج ببذلته السوداء, وشعره الأبيض المجعد تمامًا, أمرنا أنا وعلياء بصوتٍ حاد وبشفة سفلية بها اعوجاج لليسار أن نقفا, ثم قال موجهًا عيناه بتحدٍ صوبي: "ناولني الورقة التي معك", لاستدراك تلك المصيبة أخذتُ نفسًا كنت قد تعودت عليه في لحظات التوتر, محاولًا صناعة مشكلة كبيرة أتمكن في خضمها من رمي الورقة, فصحتُ بصوتٍ متذمرٍ وعينين مفتوحتين بوجهه: "أي ورقة تقصدها يا عم أنت", لم يُمهلني فرصة للمتابعة أو حتى لأي شيء, أنقض على يدي بسرعة لا تتناسب مع سنه وهيئته, نزع الورقة, وهو يعيد كلمتي بغضبٍ متطايرٍ: "عم..عم.. أنا سأعرفك من هذا العم", من الملاحظين اللذين هرولا باتجاهنا, ناطقين بلقب دكتور محفوظ عرفتُ أنه أستاذ المادة, وكان هذا آخر شيءٍ أعيه قبل أن تتدفق الأحداث على رأسي سريعًا كالمطر المنهمر في الخارج, وأرها أنا من تحت ماءٍ عميق, كصور طيفية تطاردني في أحلامي وتحولها لكوابيس ثقيلة أقوم من نوماتي مفزوعًا بسببها, صورة وهو يفض الورقة بهيئته المتعصبة ويعطيها للملاحظين متهمًا إياهما بالتقصير, صورة وهو يطلب من مراقب الدور عمل محضري غش لنا, صورة أخرى وعلياء تُخفي بيدها نصف وجهها, وحجابها الملفوف حول رأسها يغرق عرقًا وكأننا في صهيل أغسطس, تهتز الصورة حين تصيح كالذبيحة, بالنبرة نفسها التي خرجتْ منها يوم وفاة أبيها, بأنها لا علاقة لها بشيءٍ, تهمد الصورة وأنا أسحب صوتٍ من أعماقي التي لانت مؤمنًا على كلامها, بأن الورقة تخصني أنا, وأنا من طلبتُ منها أن تأتيني بها حينما سقطتْ عندها, تبهتُ الصورة بفعل حماس أحد الملاحظين هو يُقرب إليه كراسة إجاباتي مطابقًا خطي بخط الورقة, صورة أخرى لزجه وأنا أنكر كل شيء أمام محقق يستجوبني مرتعشًا أمام الدكتور الذي يكتب في حقي مذكرة ثقيلة, تحرمني عامين من أداء الامتحان, وصورة أخيرة كاحله سوداء أسمع فيها أمي تصرخ, وخالتي تندب, وروحي من فوق جبلٍ تسقط حينما لم تصن علياء لسانها وأخبرتهما ما حدث.

انزلقت الأمور على نحوٍ غريب بعد ذلك, أصبحتُ لا أطيق جدران البيت استشعر بشيء مصبوغ يخرج منها يخنقني فأهرب للخارج, وإن عدتُ يكون ذلك للنوم فقط, بيني وعلياء مقصلة سقطت ففصلت الحكي؛ تشعر بالذنب تجاهي, وأحس بإثمها نحوي, لكن هل هذا يُبعدنا للدرجة التي تجعلني أفضل تجنبها؟ وحينما أنزل لا أفكر فيها, بل أشعر بالضيق إن خطر على بالي صحبتها! أما هي هل تبتعد للدرجة التي جعلت الشهور تمر كالساعات لا تطلب مني فيهم شيئًا, بعدما كنا كالتوأم الملتصق, هل وصلت للدرجة التي تجعلنا حين نتقابل صدفة يُبادر كلانا بإلقاء تحية الإدبار على الأخر؟!

عرفتُ أن أحدهم يريد التقدم لخطبتها, في البداية أحسستُ أن الأمر لا يخصني, لم تراودني غيرة مثلًا, جلستُ معهما ـ أمي وخالتي ـ استقبله فلم أشعر بشيء سلبي تجاهه, أعلم أن الأمر طارئ, كالسحابة وسيمر, الرجل مرفوض لا محالة, موظف أقرع لا يكفيه مرتبه حتى نهاية الشهر, لا وزن له أمامي, زيارة أخرى قام بها, لم أبالِ بحضورها, ظننتُ أن الأمر محض خدعة منهن لتحفيزي "علياء لعلي وعلي لعلياء" تلت الزيارتين, عزومة, ثم نزهة في النيل بدأ جرس إنذار يدوي في رأسي, تبدلتْ أحاسيسي فجأة, حالي كمن على سطح باخرة يسترخي وبغتة تغوص به في قاع المحيط, غادرتني الطمأنينة, وفي رأسي توطن القلق والذكريات, ما حدث في اللجنة أيًا كان المخطئ منا سيأخذ وقته ويمر, كما تمرق الأيام وسنعود أنا وعلياء كما كنا, لا يمكن أن يأتي يومًا لا أراها فيه أو أسمع صوتها به, وأستمع لحكاياتها وتحليلاتها وحوادثها التي تدهشني دومًا, ماذا يحدث؟ أليست علياء لعلي وعلي لعلياء؟ "هذا نصيب.. ستُنهي هي الكلية قبلك لِمِ تنتظر؟!" تُجيب أمي بصلف, حين تُشدد خالتي وعيناها مني شاردة على جملة "أنت طيب وستأخذ أفضل منها حتمًا يا حبيبي", الأمر لم يعد خدعة, وعلياء وعريسها الأقرع يتنزهان, ويتحدثان, وبالساعات يجلسان, أسأل علياء عن رأيها في هذا العريس الأقرع, ترد أنها تشعر معه بالارتياح, أعيد سؤالي أمامها مرتبكًا, أليست علياء لعلي وعلي لعلياء؟ ترد ابنة خالتي أن هذا كله من تصورات أمي وأمها, ولم نأخذه نحن إلا على محمل الفكاهة, فمحبتنا أقوى من وضعها في إطار معين, حفظًا لكرامتي أخشى أن أقول لها أنني اعتبرته جد الجد, أُغمض عيناي على شعرها ورسم جسدها وأبتعد, لأول مرة أراها أمامي مكتملة الأنوثة, مشيتها بدت لي فاتنة, صوتها المتحشرج بدا لي طربًا, سماع أنفاسها صار عندي عادة, أصابعها البادنة باتت المقياس الطبيعي الذي لا أرى بخلافه جمال, هل كانت أحاسيسي خطأ؟ أم كنت أتوهم أن حبنا سيحدث لا محالة؟ أين ذهب قدر خالتي؟ وأين راح حبل أمي الغليظ؟ أكانوا جميعًا يخدعونني؟! واصلتُ الابتعاد عنها, ربما كيلا أضعف أمامها, وربما أعرب لهن عن رفضي الصامت لما يحدث, في حين راحت تتقرب هي, عادت علياء تدخل غرفتي, تختلق الأحاديث, وتفتح المواضيع, وكأنها تحث زماننا على العودة, لم يكن عليّ أن أسعد بذاك ولم أفعل, لأنها لا تقوم به حبًا بل ترفقًا, عطفٌ تجاهي استشعره, لطمتني جُملها ونضحت به تصرفاتها, ليلتها نزلتْ إليّ ضاحكة تُزين نحرها بعِقدٍ من الزجاج أهداها إياه عريسها, جلستْ على سريري وتربعتْ, تسألني عن أحوالي وتدعوني لمشاهدة مباراة الأهلي معها في الأعلى, تجاهلتُ كلامها, رفت عيناي وخارت قواي وأنا أقول لها إني أحبها, لم تضحك مستهزئة كما آلفتها, بدت أكثر جدية من أي وقتٍ سابق وهي تقول لي إني أخاها, ولم أضحك بصفارٍ مخففًا الأجواء كما عودتها, وقفتُ وبأقدام ثابتة دنوت, وعليها انثنيت, بانت أسنانها, كادت تمرح معي, وهي تتشبث بيدي ضاحكة, إلا أنني التصقت بها, فأبعدتني منبهه, احتضنتها فدفعتني مُتشنجة, خبت وعيي وتملكتها, وهي لمحاولات الفكاك مُكرره, حتى انفرك عِقدُها بين نحري ونحرها, لأجدها استكانتْ واستسلمتْ لما أفعل, تنبهتُ, توقفتُ وعنها ابتعدتُ, ماذا اسمعتني علياء خطئًا لينسرب عقلي من أذناي ويعمى قلبي, ويضيع ما يميزني عن الحيوان؟! لم تُلملم علياء عِقدُها, لم تُقرعني, لم تسبني, لم تعاتبني ولم تشتكِ لأحد, فقط فرت مني, وكأن ما بيننا لاقى حتفه وبيدي! انقطعت علاقتنا تمامًا فيما بعد, قفلت مني, وهربتُ أنا منها ندمًا.

موعد خطبتها, تحججتُ لأمي وخالتي بمقابلة لفرصة عمل لا يُفوت في محافظة الأقصر, ستستغرق ثلاثة أيام لن أستطيع تأجيلها وبناءً عليه لن أحضر خطوبة علياء, وعلى هذا عزمتُ, لكنها فاجأتني وأنا أجهز حقيبتي, وجدتها أمامي, تفتح بابي دون استئذان كما عهدتها, مرتدية ملابس كاملة وحجاب, لم أره عليها في بيتينا من قبل, فاح أريجها من حولي وهي تقترب وتسألني برهبة: "أتسافر يا علي وتجعلني في الخطوبة وحيدة بدون أخ؟!" خرجتْ كلماتي بطيئة, وأنا أنسج لها خيوط كذبة عن أهمية فرصة العمل تلك, وكأني لم أقل شيئًا, اقتربتْ أكثر وبكفيها ضغطتْ على ساعدي, وتابعتْ: "إن فعلتُ.. لن تكتمل فرحتي وسيموت أبي ثانية" صوتها صادقٌ, انفرجتْ معه شفتاي وأنا أهز رأسي وأخبرها بإلغاء السفر من أجلها, وبكلمة خرجتْ عفوية كما يخرج الاسم وقت النداء على الأشخاص باركتُ لها, فابتسمتْ, وشبت على قدميها وقبلتْ خدي, بعدها تابعتها تنسحب من غرفتي مفارقة, مثلما انسحبتْ من حياتي, أطبقتُ عيناي وظللتُ لصوت ابتعادها اقتفي, حتى أغلقتْ باب الشقة خلفها ورحلتْ, فأخذتُ أردد؛ ليتني اقتنع: "لم تعد علياء لعلي ولم يعد علي لعلياء".

سَهرة زفاف

منذ تمت خطبتهما لم ينزلا معًا ليلًا, وكذلك من فترة ليست بالقليلة لم يصطحبها أخوها إلى الخارج, لذلك هذه الليلة بدت مميزة؛ حيث نزولها برفقتهما, خطيبها وأخوها, لحضور حفل زفاف ابنة مديرتهما في شركة الأدوية التي يعملان لصالحها, سيمرّ خطيبها عليهما في الثامنة مساء, يقلهما إلى القاعة ومن ثم يُرجعهما, هذا ما تم الاتفاق عليه, لكن ما أرادته هي, أن يذهبوا بعد الحفل إلى مطعم أو (كافية), ليس الطعام أو الشراب هدفها بالقطع, ما تبتغيه هو أن تنعم بنسماتٍ عليلة مع خطيبها, تجعل شعرها يطير ويرفرف من خلفها, وآهٍ لو يرتفع في هذه الأثناء صوت أم كلثوم الشجي, وهي تشدو الكلمات العذبة بأحاسيسها البليغة, كل هذا من شأنه أن يخلق حالة من الرومانسية تتوق إليها, بينها وبين خطيبها, صحيح أنه في وجود أخيها لن يتجرأ ويمسك يدها, أو يقبل باطن كفها مثلًا, لكن على الأقل هذه الأجواء ستزيح الستائر البيضاء بينهما, وتهيئ مِزاجهما ليأخذان على بعضهما أكثر, لذلك ما أن عرفت آية عن حفل الزفاف هذا, حتى كادت تطلب من خطيبها أن يستكملا السهرة في مكان رائق يجري النيل من تحته, لكنها صبرت وتأنت حيث وجدتها فرصة مواتية لتعرف هل يُفكر خطيبها في أن يجلسا معًا, كما تُمني نفسها أم لا يشغله أمرًا كهذا, ولكنها لم تطمئن لنيته؛ حيث لم يقترح طوال الأيام السابقة أو حتى يُلمح بشيءٍ كهذا, فأسرت لأمها عن رغبتها, كي توعز لأخيها, وكأنه طلبٌ نابع من وجدان الأم, خشية من أن ينقل أخوها رغبتها البكر لخطيبها, فهي تعرفه متهورًا, فتحمست الأم لاقتراح ابنتها وبلهجة آمره: " بعد فرح ابنة مديرتك.. أوجد مطعمًا على النيل وأعزم أختك وخطيبها فيه.. وانزاح بعيدًا عنهما فترة كي يتحدثا بمفردهما" صحيح أنه أحبطها وهو يهرس قطعة كبيرة من كعكة البرتقال بين ضروسه: " القاعة سيكون بها بوفية عامر للعشاء.. وهما لا يكفان عن الحديث ", لكنه لم يمعن في سُخِفه عندما غيَّرت الأم المكان إلى (كافية), وكأنه أتَى على هواه, لكن آية لم تطمئن كليًا أيضًا, فكرت بأنه ربما يفوت الأمر على خطيبها وينسى أخوها, أو لا يبالي بمشاعرها, فقررتْ إن حدث ذلك أن تُصارح أخيها أو تناجيه وقت عودتهم؛ كيلا تضيع هذه السهرة سُدَى, هذا ما تحسبت له آية, أما ما لم تتحسب له, أن يبدأ نهار هذه السهرة بطريقة غير طيبة وبشكل غير مبشر, حيث استيقظت سقيمة بمغص القولون, فألجم خوفها من زيادة الألم فمها, ومنعها من وضع أي لقمة فيه طوال النهار, فأضحتْ طوال اليوم بنصف قوى دائخة تشعر بالضعف, فكان لذلك تأثير مباشر على فرحة تجهيز نفسها, ومتعة اختيار فستان من بين ثلاثة فساتين, كانت اشترت اثنين منهم, وأخرجت من خِزَانتها ثالثهما, صحيح قديم, لكنه محبب لقلبها, غسلت الثلاثة وكوتهم, واختارت لكل منهم حقيبة وحذاء مناسبين, وتركتْ اختيارها النهائي بين أيًا منهم للحظات الأخيرة؛ لتتخلص من حيرتها, تخيلت لو لديها أخت تُشاركها تلك الأوقات, لن تحتاج معها من الأساس إلى التعبير بالكلام أو الألفاظ, أخت كانت ستشعر بحالتها من عينيها, تحبها وتحتضنها وقتما حتى لا تحتاج لذلك, صحيح أمها لم تقصر معها, لكنها لو ارتدت أمامها جوال خَيش مُخصص لرَمال البناء سيكون مناسب عليها وهي كالعروسة بداخله, لأنها في الأساس جميلة, وليس هذا كل شيء في هذا النهار, فإلى جانب بطنها الممغوص وحيرتها باختيار الفستان, راودتها فكرة كئيبة أن الأمور لن تسير على ما يرام, فثمة شيئًا سيء سيحدث؛ حين يجتمع الثلاثة معًا الليلة لأول مرة بالخارج منذ خطوبتها التي كانت من نحو شهر, لكنها هنا لم تستسلم؛ حيث هزت رأسها يمينًا ويسارًا, وبسرعة وكأنها تفض مضجع هذه الفكرة, فأخوها وخطيبها صديقان منذ ألتحق الأخير بشركة الدواء, وجاء له زائرًا, فرآها تدخل من الخارج, وكانت تلك رؤية النصيب وصِنارة بَخْتها التي غمزت, لذلك لا داعي لقلقها ستمضي هذه الليلة كما تمر كل ليلة, لكن ما يهم أن تجعل نصفها الثاني يمر كما تتمنى ويحدث فيه ما تبتغيه, خاصة وأن كل من أخيها وخطيبها لا يعتبران الزفاف حفل, أو مناسبة بها أي متعة, فهو بالنسبة لهما قطعة من يوم عملهما, اتضح هذا لها حينما سألت أخاها أي الأقمِصَة يفضل؛ كي تجهزه ليرتدي, وقتها أشاح بيده بعدم اكتراث قبل أن يتفوه: "أي واحد", أما خطيبها فقال لها أنه لم يفكر بشأن الملبس من الأساس, لأنه سيفتح خِزَانة ملابسه ويرتدي أول بذله مناسبة وجاهزة أمامه, أما هي فأمرها على النقيض منهما, فحتى إن كانت تذهب معهما كنوعٍ من البروتوكول, وحتى لو كانت تجهل كل من في الزفاف, فهي ترى الحفل فرصة لتُبدل من خلاله حالتها النفسية, فكما يقولون أن السعادة مُعدية وبالتأكيد هنالك ستسعد مع الفرحين, وتصفق وتتراقص بكتفيها معهم, بل ولَمِ لا تندمج مع خطيبها في رقصة هادئة؟!, وحتى وإن لم يحدث أي شيء من هذا, سيكفيها إشباع شغفها بتفرس تصميمات الفساتين

و(الإكسسوارات) الجديدة, فهنالك يمكنها أن تُطلق لبصرها العنان بلا خوف أو ريبة من أن تلتقط إحداهن نظراتها, حيث يثقلها ذلك الهاجس ويعيقها في المناسبات التي تجتمع فيها بمن تعرف.

على خطى طريقة تخلصها من فكرتها الكئيبة, تعمدت آية بعد تناولها الدواء, وتجرعها لكوبٍ من الينسون بالنعناع صنعته لها أمها ألا تؤل لبطنها بال, لعل عدم التفكير في الألم يجعله يختفي نهائيًا أو حتى يتلاشى تدريجيًا, لكن الأمور السيئة لم تتوقف في هذا اليوم, حيث شيئًا أخر أوجَسَها؛ وهو أن خطيبها لم يتصل بها كما يفعل يوميًا وهو في طريق عودته لمنزله, فتجلى لها أن شكها في محله؛ حيث لاحظت أكثر من مرة أنه في الأيام التي يأتي إليها ليلًا لا يُبادر بالاتصال بها نهارًا, وكأنها قاعدة إذا أتصل لا يأتي وإذا كان سيأتي لا يتصل! أعادت مهاتفتها واجبٌ عليه؟! أم هو فرضٌ ثقيل؟!

ثارت من أسلوبه, وقررت أن تعامله بالمثل وتُهمله, ارتدت الفساتين الثلاثة, ثبتت هاتفها, ودارت أمام كاميراته حول نفسها مرة, اثنتان, ثلاث, ثم أرسلت مقاطع الفيديو القصيرة التي صورت عبر تطبيق (الواتساب) لصديقاتها المقربات, فاخترن لها الفستان الأسود الذي كان واحدًا من الاثنين اللذان أشترتهما مؤخرًا, لتبث بعد ذلك لهن شكواها من خطيبها, فنصحتها إحداهن ألا تُبين له اكتشافها لأسلوبه, أو تظهر تُأثرها بما يتبع ويفعل, فيما كان للأخريان رأيًا مغايرًا؛ حيث أشارا عليها أن تتصل به, فربما يكون ما منعه هذا اليوم هو أمرًا طارئًا, ثم أسهبا أنها بذلك لن تخسر شيئًا على الأقل ستُظهر له خوفها عليه, فعزمت أمرها وكلمته رنه, اثنتان, ثلاث, لم يرد عليها, أغلقت الخط شاعرة بالندم, ما كان عليها أن تسمع كلامهما!

" صديقاتك يغيرن منك وسيلقون بك في داهية" لمعتْ في رأسها مقولة أمها! لكنها عذرت نفسها وخففت من ضغطة الجملة؛ بأنها وأن كانت في أحايين كثيرة تسمع كلامهن, أو دومًا الحقيقة, فهي تفعل ذلك لأنهن يحبونها, تشعر بحبهن فتطمئن على نفسها, وتلك الطمأنينة هي التي تجعلها تثق أنهن يخترن لها الأفضل, وأن كل منهن تُلقي برأيها في أمرها بعد تفكير وتمحيص, وكأنها تتخير لنفسها وأكثر, لذلك أن تستشيرهن في أمورها, ليست بالمصيبة كما تقتنع أمها؛ حتى وإن انزلقتْ أو سقطتْ بسبب نصائحهن, ستلتئم تلك الهفوات والأخطاء مع الوقت, وسيبقى شعورها الدائم إنهن إلى جوارها ساندات, خرج تفكيرها من رأسها, فخاطبت نفسها بصوتٍ مرتفع:" أمي فقط لا تدرك مقدار الحب الذي بيننا", قبل أن تُبْلغ صديقاتها أن خطيبها تجاهل مكالمتها, وجدته يتصل بها انتظرت رنة, اثنتان, ثلاث, وردت, حدثها بينبوعٍ من الخمول, وبإيجاز أنه عاد مبكرًا من العمل واستسلم للنوم, فاعتذرت لإزعاجه, وعللت اتصالها أنها أرادت الاطمئنان عليه فقط, ثم استدركتْ بأنها ستنهي المكالمة فورًا كي يستكمل نومه, وكأنه كان ينتظرها! فبمجرد أن سمعها تقول ذلك أجابها بلفظة: "ماشي" مؤكدًا على أنه سيلقاها ليلاً, قبل أن يسألها سؤالًا روتينيًا وفارغًا كمشاعره لإنهاء المكالمة, التي لم تستمر أكثر من دقيقتين, والتي حتى لم يطمئن فيها عن صحتها! إن كانت تحتاج لشيءٍ, فردت آية جازة على أسنانها شاكرة, فألقى السلام! سألتهن هل تدعي عليه ليُصاب بكوابيس؟ أم تترك أمره لله ؟!

طاوعتْ أمها وصديقاتها, وتجنبتْ التوتر والتفكير؛ لئلا يبدو وجهها شاحبًا ليلًا, وسحبتْ قطعة من العلكة علها تخلصها من الطاقة السلبية التي عبأتها, ثم صبت جامة تركيزها ومجهودها في تجهيز نفسها, كي تُشعره بالنعمة التي بين يديه, بَرَدت أظافرها, وطلتهم (بمناكير ميتاليك) براق, ولجعل بشرتها نضرة رطبت وجهها وذراعيها بحمام كريم, لتضع بعد ذلك (مكياچها), الذي بدأت أولى خطواته بكريم أساس على وجهها ورقبتها, ثم بظلال العيون لونت جفنيها بلون دخاني لامع ما بين الأسود والفضي, قبل أن تمد خطين (أيلاينر) أسودان على طرفي عينيها بغية أبرزهما, ومن الداخل استخدمت قلم كحل لتظهر اتساعهما, قبل أن تستخدم (الماسكارا) لتكثف رموشها, بعد ذلك انتقلت لشفتيها حددتهما, ولونتهما بقلم روج أحمر داكن, ثم ارتدت في يدها مجموعة من الأساور الفضية خفيفة الوزن دائرية الشكل, وحلقان في أذنيها لهما نفس هيئة الأساور الرهيفة, واختتمت ملابسها بحذاء أحمر مفتوح بكعبٍ عالي, طفقت آية تتجهز حتى أتت الثامنة, وغادرت, وراح من أسفل بيتها خطيبها يتعجلها (بالكلاكس), ومن داخل بيتها أخوها يتعجلها بصوته الجهوري, مع ندائهما تلبسها إحساسًا صادقًا وهي تضع على مهل آخر لمسات زينتها (ببلاشر) أحمر, مستخدمه فرشته على خدها الأبيض أنها أميرة, أميرة تتأخر أو تفعل ما يحلو لها, وعلى الكل أن ينتظرها, فغطى هذا الشعور الغرير على كل ما حدث معها في النهار, قبل أن تَخضَّب نفسها بزَخَّات متوالية من زجاجة عطرها عالي الثبات, وتمسك بحقيبة يد

صغيرة حمراء مستطيلة من نفس خامة الحذاء, وتقف وتبتعد مسافة كافية عن المرآة لتنعكس أمامها صورتها بطول قامتها, حين رأت نفسها, بوجهٍ مُحدد الجمال, يتجلى بكامل استدارته أسفل شعرها المرفوع للأعلى, ابتسمت شاعرة أنها بهية, كما نصحنها صديقاتها بالفستان الأسود الذي يلائم جسدها الرفيع وينحصر عن كامل ذراعيها, تأملته لثوان, موشى من الأعلى بصفين من الكريستالات الدقيقة المنحنية مع القصة الهلالية لعنق الفستان, ليظهر جمال رقبتها وبياضها, قبل أن ينسدل مع رسمة جسدها ليضيق عند منطقة الخصر, ثم يعود ويتسع حتى حذائها الأحمر, عادت وابتسمت من جديد بجذلٍ راضيه عما صنعت, قبل أن تُنزل بحركة خبيرة ثلاث خصلات كبيرة من شعرها, جعلتهم يتهادوا خلف ظهرها أملًا في أن يرفرفوا برومانسية في هذه السهرة, دلفت بعد ذلك بتبختر الأميرات إلى أمها لتأخذ رأيها: " ما شاء الله الفستان الأسود مع بشرتك الفاتحة يلفك كالهدية.. ستغطي على العروسة الليلة" ابتهجت آية بما سمعته, لكن أخوها لم يدعها تأخذ جرعة أخرى من الابتهاج, فقبل أن تتعرف على رأي صديقاتها في شكلها النهائي, دخل عليها وقرص أذنها بنوعٍ من المُداعبة وبطريقته التي يعتاد سحبها من كفها للخارج, أوقفته أمام باب البيت وسألته على شكلها الذي لم يعلق عليه, فأجابها أنها جميلة للغاية, ولكنه عبر عن ذلك بكلمةٍ سوقيةٍ, لا تُحبها وتستحي من ذكرها, فلم تفرحها تلك الكلمة بقدر ما أرهبتها, أما خطيبها فاستقبلها وهو يُشير إلى ساعته كناية عن التأخر, ولكنها قبل ذلك لاحظتْ أنه رمق إطلالتها بنظرة إعجاب جعلتْ قلبها يتهادى فرحًا, حيته ثم أخذت ما يُعلقان به بسبب تأخرها على محمل الضحك, وأفاضت لهما بشعورها وهي تركب في الخلف, بأنها أميرة تفعل ما تريد, لكنهما أخذا يُنابزُونها, ودخل الثلاثة في حوار هازر لم يسعدها ولم تفرح به, وهي تقوم فيه بدور العارضة التي تتصدى لما يقولاه, إلى أن تراصت العبارات خلف بعضها وتغير منحنى الحديث قبل أن يصلوا.

في قاعة الزفاف لم يجلسوا أكثر من نصف ساعة, غادروا بعد برهة من تهنئة مديرتهما, هنالك أنشغل خطيبها وأخوها عنها بتحية زملائهما في الشركة, فعوضتْ وحدتها بالاندماج في التصفيق وكأنها واحدة من صديقات العروس, وليست ضيفة وهذه المرة الأولى التي تراها فيها, اندمجت آية حتى نساها ألم قولونها.

بداخل السيارة وهم في طريق العودة, انتظرتْ آية أن يفتح أخوها حديثًا عن المطعم أو (الكافية) لكنه لم يفعل, بسبب الجوع الذي أسغبها فضلت في رأسها المطعم, لمست كتفه فألتف إلى الخلف وما أن شرعت بالهمس في أذنه, حتى فهم غايتها, ويا ليته ما فهم! فما أن التقت عيناهما وجدته يضرب جبينه بكفه علامة التذكر, وكأنه يُفصح عن أن ما سيقوله ليس فكرة خاصة منه, بل هو طلب من أمها! وهل توقفت مصائبه عند هذا الحد؟ بالطبع لا؛ حيث جهر لخطيبها أن يتوقف بهم على كوبري (عباس) الذي لاح في الأفق, لأنها تريد أن تجلس وتتحدث معه, تجمدت آية واستحالت تمثالاً من الملح يحدجه بشررٍ مما تفوه به, وقد حبس صوتها تمامًا, هل يسكت؟ هل يكتفي بما قال؟ هل يشعر بما اقترفه, إذا فعل فلن يكون أخيها, فأكمل مُسودًا مصيبته, بطيئًا أغمق من السماء المعتمة التي تعلوهم:" لَمِ تنظرين إليّ هكذا؟! مِمَّ تخجلين؟!" أشار إلى خطيبها: "هذا أخي قبل أن يكون خطيبك", حينها كان بالفعل خطيبها قد بدأ يركن سيارته, ممسكًا بطرف الحديث من أخيها: " تخجل! مما تخجل؟! أنا في الأساس أريد أن أجلس معها" رطبت عبارته على قلبها قليلًا, خاصة أنه ألحق ما قاله بفكرة الذهاب إلى (كافية) يعرفه يطل على النيل, فشعرت أيه أن وجهها الذي تيبس بدأ يلين, وأحست أن مجهودها في تجهيز نفسها لم يضع هباء.

فوق كوبري (عباس) الذي يعلو النيل اجتمعت أمور ساحرة تحبها آية؛ هواء وماء, وإنارات صفراء بعيدة تبرق في الظلام, راحت آية وسط هذا الجمال تترجل بحبور بين خطيبها وأخيها, ومنهما تُضحكها أبسط العبارات وتسعدها أهدأ الهمسات, وكأن سعادة العالم كله اجتمعت بها أو لعلها تحاول الارتواء حد الكَفَاف مما يحيطها, واستبدال كل سلبي بداخلها بالهواء المنعش الرطب, ولكنها فجأة شعرت أنها تسير بمفردها وأنهما اختفيا من حولها!

توقفتْ ومررتْ عينيها للخلف بحثًا, فوجدتهما من ورائها يتلكئان ويُشيران فيما بينهما على إحدى السيدات ضاحكين, فداهمها حنقٍ بالغ, وغيظًا صاحت بوجههما: " ما ذاك القرف الذي تفعلانه؟!", لم يزد الصراخ أخيها إلا هزّالا واستمر يضحك, فيما تندت حمرة الخجل على وجه خطيبها, وأخذ يبرر لنفسه بملامحه المنفرجة: "هو من حقني أن أنظر إليها" فذاد أخوها عن نفسه محافظًا على ضحكاته التي لم تجد لها سببًا: "أنا أشرت فقط..

لكن من الذي تفوه وعاكسها؟" توقف عقل آية عن التفكير للحظات من الصدمة, قبل أن تعتزم الرحيل ثأرًا لكرامتها, لكن خطيبها اقترب منها قبل أن تنطق, وبادرها بالاعتذار مبررًا هذه المرة بجديه أن أخاها هو السبب, هدأت قليلًا وتحاملت على نفسها حتى لا تُفسد السهرة أو توصم بالنكد, ومن بينهما عادت تترجل من جديد, فيما حاولا إضحاكها وإخراجها من الحالة التي جعلاها عليها, حتى وصلوا أمام بوابة (الكافية), التي خرجت من تحتها, فتاة يافعة تملك جسدًا أجمل بمراحل منها, ومن السيدة التي عاكساها على الكوبري, جسدًا لم تبخل في إبرازه بفستان متعدد الفتحات, لتجد صوت أخيها يصدح معلقا عليها بكلمات سوقية, أما خطيبها المحترم أنسجم معه, وراح يتمنى لو كانوا أسرعوا ووصلوا مبكرًا عن الآن! قبل أن يوجه لها عبارة سخيفة ألا تغضب لأن هذه الفتاة لا يُمكن ألا تُعاكس!

على رائحة دمائها الذي يشيط أخذا يتمازحان ويتقافزان, كادت من فعلتهما هذه المرة تبكي, وأمرتهما بانفِعالٍ أن يُعيدوها للبيت, فمسك كلًا منهما يدًا لها, وكأنهما سيعتذران لها ويحاولان تهدئتها, ولكن هيهات فبدلًا من ذلك, طفقا يكيدونها قولًا, عن كيف كان مظهر تلك الفتاة وشكلها وقوامها وشعرها المموج, فشعرت آية بالاختناق ودقت قدميها في الأرض كمسمارين, وزادت عصبيتها وصممتْ على المغادرة, لم يفزعهما منظرها واستمرا لما هي عليه يستهزئان, فانسلت من يد خطيبها, واستدارت إلى الخلف متحركة, لكنها لم تفلت من يد أخيها الذي تمسك بها أكثر وسحبها من كفها كما يفعل, وتبدلتْ في هذه اللحظات نبرته إقناعًا لها إنهما يناكفانها لا أكثر, كرر وكرر, حتى أثناها عن الرحيل, لكنها ذمت شفتيها بطريقة ملحوظة, حفاظًا لآخر قطرات ماء وجهها الذي أريق عن آخره, بداخل (الكافية) وعلى الرغم من الازدحام تفاعل معهم الحظ بطريقة إيجابية, فما إن تخطوا البوابة حتى فرغت طاولة تقع فوق النيل مباشرة فجلسوا عليها, وبهذا حدث ما رسمته آية في خيالها بالضبط؛ جلسة على النيل في اتجاه الهواء مع خطيبها, في وضع يسمح له أن يرى شعرها يطير برقة خلف كتفيها, صحيح وجهها العابس وشفتيها المذمومتين وداخلها الذي يغلي لم يكونوا من ضمن حساباتها, لذلك تحاشت النظر إليه وراحت ترمق المراكب الدالفة فوق سطح النيل, وهي تُرجع إليها بلمساتٍ حانية خَصلات شعرها المتطايرة, تفكر وتفاضل حالها وقتما يعتذر لها خطيبها, أترفض وتتعنت ليتعلم كيف يحترمها؟ أم تقبل بعد تمنع وتعود لحالتها الطبيعية التي تشتاق خوفًا من أن تضيع هذه السهرة؟ لكنه لم يعتذر لها! بل تجاهلها واندمج مع أخيها في حديثٍ عن صالة (الإكس بوكس) التي افتتحتها إدارة (الكافية) للزبائن مؤخرًا, وفجأة تصاعدت نبرتهما تحديًا لبعضهما, وسمعتهما يُقولان أنهما سيلعبان مباراة, كان هذا أكبر من طاقتها على الاحتمال, فاستدارت وهددتهما أنهما لو قاما ستغادر, وكأنها طرحتْ عليهما معلومة عابرة, وليس تهديدًا بعصبية أنها ستعود بمفردها, حيث ردا بأنها فقط ربع ساعة, وألقى كلاً منهما حجته بأن الأخر استفزه, وتركاها قبل حتى أن يسمعا ردها.

حاولتْ آية أن تستوعب ما فعلاه ولم تستطع, شعرت أنها في برنامج مقالب, فبالتأكيد في الحقيقة هما يحترما وجودها أكثر من هذا, أكانت حقًا مذ ساعتين تعتبر نفسها أميرة؟! هي إن كانت خادمة كانا سيُراعيان مشاعرها بشكل أكبر, كماءٌ في مرجل يغلي فارت دمائها, وهبت من مكانها قائمة كالمصعوقة, وسحبت حقيبتها الحمراء المستطيلة التي كانت وضعتها خلف ظهرها, لكن ثمة خاطر أجلسها؛ لماذا لا تنتقم منهما وتعاقبهما بدلًا من أن تأكل في نفسها؟ ستنتظرهما, ووقت عودتهما ستطلب ببرودٍ وإصرارٍ أن يعودا بها إلى البيت, وإن حاول خطيبها أن يُكلمها لن تتجاهله بل سترد باقتضابٍ قاتل, هذا إذا من الأساس فكر فيها!

وحين وصولهم ستدعوه إلى الصعود لأمرٍ هام, وبمجرد أن يدخل ستنادي أمها زاعقة, وتخلع دبلته وتقذفها في وجهه, وتدخل غرفتها, ولن تعود له إلا بعد شهر من المحاولات, وإذا قنط سريعًا أو كف عن المحاولة وتركها, إذن مع السلامة, فهذا معناه أن الله يحبها بأن كشفه لها, وأبعده عنها, هي ليست قبيحة, أو جاهلة, أو تافهة, أو خائبة, ستجد بدلًا منه عشرة وكلهم أفضل منه, والحمد لله, أنها لم تحبه أو تتعلق به زيادة عن اللزوم, أما أخوها كبير الجسد صغير العقل هذا فلهو حسابٌ أخر, ستؤدبه بطريقتها؛ ستؤلب عليه أمهما, وتقطع عنه دعمها المالي الذي يأخذه منها كل شهر ولا يُعيده, ليس هذا فقط, بل ستكف يدها عن كل ما تُقدمه له من خدمات في المنزل, وتقاطعه حتى يأتي بخطيبها ويعتذرا لها معًا وأمام أمها, ألا يخجل مما يفعل؟! بدلًا من أن يقف معها كأخ, ويساعدها لتتخطى المرحلة الحرجة في علاقتها بخطيبها, تجده يجره معه لتلك الأفعال الصبيانية!

ستنفذ كل ما في رأسها, مهما كانت ضغوطات أمها وصديقاتها, بل ستنفذ ما في رأسها حتى لو كان خطيبها هو آخر رجل في هذه الدنيا, وكفى ما فعلته بها طيبتها, كفى أن تتحمل, وتفوَّت, وتتجاوز بلا تقدير من أحدٍ, إن كانت أخذت حقها من خطيبها منذ معاكسته للسيدة الأولى, ما كان تجرأ ونظر وغازل الثانية, فإذا كان يراها نحيفة, لا تملأ عينه لماذا سعى وطلب يدها من الأساس! وفي النهاية يتركها بمفردها ويذهب ليلعب!

ببصمة سَّبابَتها فتحتْ تليفونها, فضفضتْ عبر(الواتساب) بكل ما حدث لصديقاتها, من أول تجاهلهما لها في الخطوبة, وحتى ما نوت أن تفعله معهما, أنهت كتاباتها بعد تفصيل وقسم إنها ستنفذ كل ما في رأسها مهما حاولن أثنائها, لأنهن لم ولن يشعرن بالمهانة التي أحستْ بها هذه الليلة, وانتظرت أن يأتيها على شاشة هاتفها الطويلة, تعليقاتهن ونصائحهن, لكنها سمعتْ أحدهم يُصفِر خلف أذنيها, في البداية ظنته شخصًا سمج يأتي في الوقت الخطأ ويُعاكس, فلم تتجاوب, لكن الصافِرة ارتفعت واقتربت أكثر من أذنيها, فنظرت بتوجس خلفها, لتجده خطيبها ينظر لها وهو يحمل في يده حقيبة نايلون كبيرة بها طعامٍ, وضعها على الطاولة: " لَمِ لم تُخبريني أنك متعبه؟" لم ترد عليه, أردف "أخوكِ قال أنكي لم تأكلي شيئًا من الصباح.. أحضرتُ لكي عشاء" نظرت بطرف عينيها فوجدت (ساندوتشات شاورما, وثومية, وبيبسي, وشيبسي بالجُبن المتبل الذي تحب), كادت تفلت منها ابتسامة, لكنها تماسكتْ وعادتْ وتجهمتْ, وبصوتٍ حاولت جعله جاد, قالت إنها لا تريد, فألتقط ما كان سيفلت منها وباغتها: " أضحكي يا عروسة أضحكي لن يأخذ أحدًا منها شيء.. ألا يكفيكِ أن أخاكِ فاز علي بالمباراة الأولى", لم تستطع أن تكبحها هذه المرة, فضحكت ضحكة صافية أنهتها من خجلها بكلمة:" أحسن", فضحك خطيبها على ضحكتها, وصمتا يرمقان بعضهما لثوانٍ, برقت الدموع في عينيها كما تبرق أضواء المدينة من حولها, فخفضتْ رأسها وابتلعتْ ريقها قبل أن تنهاه بصوتٍ مرتجفٍ من النظر لأخرى غيرها, حافظ على نظراته لها وابتسم, قبل أن يهز رأسه موافقًا بتُؤَدةٍ: "سأتركك تأكلين.. وأذهب لأخذ حقي من أخيكِ بمباراة سريعة.. ثم سألهيه بالذهاب إلى مشوارٍ بعيدٍ.. وأعود لأجلس مع أجمل فتاة بالعالم طوال الليل حتى لو اضطررتُ غدًا للغياب" تلقت آية كلماته بأساريرٍ متهللة قبل أن تتلقى نظرة أخيرة منه, لها بعدًا رقيقًا لمست قلبها ومست وتينها, وهي تراها لأول مرة في عينيه, ابتعد عن دائرتها فقربتْ تليفونها بكلتا يديها, بعدما زادت ابتسامتها فباتت أجمل, لتجد صديقاتها الثلاث قد أرسلن كلامًا مطولًا عن كيفية التصرف, ورأيهن فيما قررته لمعاقبة خطيبها وأخيها, لم تدع رائحة (الشاورما) النافذة لها فرصة بأن تقرأ كلامهن بتمعن, فالتقطتْ صورة لحقيبة الطعام, ركزت من خلالها على إظهار ما تحوي, أرسلتها, قبل أن تكتب لهن: "خلاص يا بنات عرف خطئه وأظهر محبته وأحضر لي هذا العشاء.. سأتناوله وأحكي لكن بالتفصيل ما جرى" ولم تنسَ آية إنهاء رسالتها لهن بصور قلوبٍ حمراء كبيرة وقبلات, وكانت مجرد لحظات فقط, قبل أن يبادلنها القلوب, والقبلات والابتسامات.

السِبَـاقُ

عند السادسة صباحًا في أجواءٍ منعشة لا تمت للقر ولا للحر بدأت, من مسكني بالمندرة قبلي تحركتُ, شمالًا لنصف ساعة حتى بان البحر, وتعالت في أذنأَي أصوات تلاطم أمواجه, وأصبح كل ما بيني وبينه صفرة الشاطئ, وقفتُ لدقيقتين أخمد فيهما أنفاسي التي نخمتْ, ناظرًا لصحو سمائي وزرقة بحري, مستمتعًا بصفعات الرياح لأذني, ورائحة البحر التي ضَافتْ أنفي, بشيءٍ من الظمأ شعرتُ, لكني فضلتُ استكمال برنامجي البدني كيلا يبرد جسدي؛ برنامجي البدني الذي قررته, ومن أجله أعطيتُ نفسي أجازة لمدة أسبوع, بدأته منذ يومين, استيقظتُ مبكرًا في اليوم الأول والثاني وحققت بجدارة ما انتويتُ, يبدأ تمريني بالسير الغير منقطع من مسكني جنوبًا إلى الشمال, حيث البحر وبداية كورنيش الإسكندرية من عند قصر المنتزه, أستغرق في هذا السير مدة تقل عن الثلاثين دقيقة, يسخن فيهم جسدي وتسخن معه شحومي التي أستهدف زوالها, قبل أن أتحول إلى الركض البطيء, على مشطيَّ القدم لخمسة دقائق, أتبعه بالركض السريع لمدة خمس عشر دقيقة, ثم آخر مرحلة؛ السير البطيء للراحة لمدة ربع ساعة, وبهذا تنتهي الساعة التي خصصتُ للنشاط البدني, وتبدأ بعد ذلك الساعة المخصصة للجمال والاسترخاء, حيث أستقل مواصلة قاصدًا كوبري (ستانلي), الذي يكون قد اقترب بفعل ركضي وسيري ناحيته, فأتوغل بذلك مبتعدًا باثني عشر كيلو مترًا عن مسكني, ابتعد لأتناسى قهري بعدما تجرعت مرارة الخسارة للمرة الثانية على التوالي ظلمًا, حيث هنالك أجلس مادًا قدمَّاي إلى الأمام, أتأمل البحر وأمواجه التي تتراطم, أماثل من يؤمنون بأن الأرض مسطحة, وأبحث عن عِلاتٍ لظهور الشمس في الصباح باردة بلا حرارة, وتتابع الأمواج المستمر بلا توقف, خلاف الأسباب التي يُظهرها (جوجل).

تغلبتُ على إرهاقي ولم أطل في التوقف لأكثر من دقيقتين, أوليتُ بعدهما سور المنتزه مؤخرتي, وركضتُ على مشطاي قدماي, قبل أن أركض على كاملهما بسرعة لم تخل من توقفات, "هووووه.. هووووه" زعق صدري وبات لشهيقي صوت, لكني ثابرتُ إلى أن انتهى الوقت المُخصص للركض, فتوقفت كليًا عند منطقة العصافرة, منتشيًا بأنه لم يعد يتبقى لي إلا المرحلة الأسهل؛ أن أسير بتريثٍ, محاولًا استعادت أنفاسي التي دمرها الركض, مع الحركة البطيئة هدأت, وبدأت أتأمل ما حولي كيومين نشاطي السابقين, شمس ابريل وقادة, كونت لجسدي ظل تحرك أمامي على الطِوَار, ككل المتمشين, والراكضين هنا, هواء البحر يُحيطنا, وبلاط الطوار القرمزي أسفل أقدامنا, والطريق واسع غير مزدحم أمامنا, لعله يوسع الأمل في الصدور, أما أنا فيوسع عينأَي لأرى أن الطريق طويل كالطريق الذي اخترته, أطول من قدرتي على البقاء والتحمل, بل يجعلني أرى أنه ما كان لي أن أمتهن بناء على حبي, فمحبتي لما امتهنت عذبتني وآلمتني وكأني عاشقًا تلوعه خائنة, وليس أمامي إلا أن أنسحب قبل أن ينتهي أجلي قهرًا, فربما أنا من أولائك الضالون سعيًا في الحياة حاسبون حسن ما يصنعون, زفرتُ همًا جال في رأسي وانتبهتُ, أحدهم من خلفي يسير بسرعة, شعرته في طريقه ليتجاوزني, وقد تخطاني بظله, نظرة بطرف عيني أفصحت لي أنه عجوزٍ عقيم, كنت منهك بالقدر الذي جعلني أتساءل ـ وهذا لم يحدث إلا نادرًا ـ أأتركه يفعلها؟ أم أسرع خطواتي ليظل ورائي, إجهادي أجابني بتركه يفوت من أمامي, فأنا بالتأكيد لدَّي القدرة لو أردتُ لهزمته, وحولته خلفي في أي وقتٍ شئت, فجافيته الاهتمام ليحظى بهذا الشرف الذي لم ينله طوال عمري الا شخصًا واحدًا؛ كان رياضيًا يسير بخطواتٍ واسعة للغاية, والأهم طوله كان ضعف طولي, هزمني وجعلني خلفه, فكان هو الوحيد الذي لوث سجلي الثلاجي, في سباقات المارقين بجواري في شوارع مدينتي الساحلية, الذين يجدون أنفسهم بلا علم ولا إرادة منهم في منافسة معي, ولا أمل لديهم إلا أن يسبقونني كيلا يتحولوا إلى أرقامٍ جديدة في قائمة ضحاياَّي, مر من جانبي العجوز وفاتني, فيما استمريتُ على نفس وتيرتي البطيئة, لكنه بعد خمس دقائق فقط, لم يعد له أثر, أعجبتني عزيمته وسرعته, وضحكتُ بداخلي متذكرًا قصة السلحفاة, التي لم تستسلم لسرعة الأرنب, وأخذت تحاول وتقاوم بطئها حتى تفوقتْ, قصة خيالية من وحي الحقيقة؛ كثيرين منا مثلها أحدنا يقاوم الفقر فيكون غنيًا, وأحدنا يقاوم السؤال فيكون عفيفًا, وأحدنا يقاوم اليأس فيكون إديسون, "مقاومة.. مقاومة" طنت في رأسي تلك الذكريات, وقتما كنا نلعب أنا وأشقائي, مكونين فريقين متقاتلين, أمسك بمسدسي, أطارد أخي الكبير, الذي يختبئ ولا أعرف أنه ينصب لي كمينًا, أبحث عنه, لا أجده, فجأة يظهر, يُصوب سلاحه بمنطقة منحسرة الملابس عن جسدي؛ ذراعاي, رقبتي, أو رأسي, يضغط زناده

فتنطلق خرزة صفراء بسرعة رصاصة, لا تُخطئني, يَشخص بصري, قبل أن تدرك أعصابي الألم, أصرخ, أنزل على الأرض, أتكور على نفسي كقنفذ, يسألني الاستسلام, أرفض معاندًا, يُطلق أخرى يصيب بها رأسي, أهتف بكلمة لا أعلم من أين تعلمتها "مقاومة.. مقاومة" أنطقها بمخارج حروفٍ وهنة, يسمعها, يهرب, وكأنه يخاف منها, أنهض بدموعٍ في مقلتي, ألاحقه.

بعد خمس عشر دقيقة كنت بمحاذاة شارع ميناء أغادير بسيدي بشر, منتشيًا بحق؛ وكأني نجمًا رياضيًا محترفًا حقق بطولة كبرى, وقد استعدتُ جزءًا من أنفاسي التي طاحتْ, وأنهيتُ مرحلة سيري البطيء, متممًا ساعة نشاطي البدني, قاطعًا منذ بداية تمريني مسافة تزيد عن الخمسة كيلو مترات, لم يعد أمامي إلا أن أستقل مواصله تنقلني سريعًا لكوبري (ستانلي), لكني شعرتُ بشخصٍ أخر قدميه تضربان الأرض بسرعة في طريقة لأن يتعداني, فاضلتُ بين أن أتركه يفعلها, وألا أترك اثنين يتخطياني في يومٍ واحدٍ, وقع قدميه السريع الواثق من الخلف أشعل الحماس بداخلي, وحسم قراري؛ لا بأس من إنهاء برنامج نشاطي البدني في هذا اليوم بأحد تحديات خيالي الجامح, لا بأس أن ألعب معه, ولا بأس من جعله آخِر ضحاياي, إذن يا من خلفي إن كنت لا تسمعني, فلعلك تشعر بما نحن عليه الآن, دع الفرحة تنبثق إليك, فأنت أضحيتُ منافسي الذي تُسابقني على تاجٍ من الذهب, ولكن لا تتركها تتغلغل بداخلك كيلا تُدغدغ آمالك؛ فهذا تاجي وأنا الملك الذي لا يخسر, أبطأتُ حركتي لأسهل وصوله إليّ, أنصتُ جيدًا, مواطئ قدميه واسعة, وسريعة والأهم لها ثباتٌ عظيم وكأنه يعزف برجليه أو يؤدي بهما مشية الإوزة العسكرية, منافسة لن تكون سهلة لكنها محسومة, حين أصبحنا على خطٍ واحد, نظرته بطرف عيني, عجوز عقيم هو الأخر, لو ظهرت خلفي قبل عشر دقائق كنت سأجعلك تعبر وتمر, كرفيقك بدار المسنين السابق, لكن لسوء بختك أني قررت العبث قبل أن أعرف عمرك, ولن أتراجع فأنا الملك وكلام الملوك لا يرد, بالتأكيد أنت من أولائك العجائز الذين ما إن تحدثهم حتى يبكون على الأطلال, ويخبروك بأنهم في شبابهم كانوا رياضيين يمتلكون السرعة والقوة, وبهما يحصدون البطولات والميداليات, حسنًا, الآن سأجعلك تتحسر على زمنك الغابر لأنه زمني أنا, حافظتُ على تجاورنا قليلًا وكأني أغريه بإمكانية التفوق, قبل أن أرفع رقبتي وأشد صدري وأفتح قدماي وأسرع حركتي, فوجدتني أتخطاه بسهولةٍ, لم أكتفِ؛ حيث تلاعب شيطاني بي, يُخبرني بأنه لا ضرر مع مزيدٍ من العبث, ملتُ بعض خطوات حتى بات خلفي تمامًا, تلكأت مرة ثانية, فعاد واقترب مني بنفس الثبات والسرعة, لنعود على خطٍ واحدٍ من جديد, ومن جديد كررتُ ما فعلته وأسرعتُ حركتي وتخطيته, فتراجع ثانية خلف ظهري بالضبط, هذا مكان جميع من يفكر في تجاوزي, أبطأت لثوانٍ كانت كافية لسرعته التي لا تهمد أن تجعله يقترب مني للمرة الثالثة, إذن فليرعاك الرب أيها العجوز فقبل أن تحاذيني كالمرتين السابقتين, سأنطلق بأسرع ما لدي؛ قتلًا لأملك في الظفر مني, أعلم أنها سنوات وسأصير مثلك, أبكي كيف كنت في زمني الماضي أسبق بترجلاتي الجميع, لكن حتى تحين هذه الأيام علي أن أجعلك تهرب من مقارعتي إن لمحتني صدفة, حثثتُ خطاي وتحركتُ أسرع من أي وقتٍ سابق, داومتُ على هذه الوتيرة هنيهة, حتى ظننتني ابتعدتُ, لكني وما إن عُدت لسيرورتي الأولى, وقبل أن أشرع في إيقاف مواصلة, وجدتني أسمع دبدباته بنفس السرعة والثبات, ما لك أيها العجوز؟ ألم تتعب بعد؟! لا بأس من جولة إضافية, فتحتُ قدماي أكثر وانطلقتُ "هووووه.. هووووه" عاد النحيت لأنفاسي ووغزني تعبًا باطن قدمي, لكني واصلتُ حتى ابتعدتُ عنه بأمتارٍ كافية, ومع ذلك نفس السيناريو تكرر؛ بمجرد أن أبطأتُ حتى شعرتُ به خلفي في طريقه لهزيمتي! تبددتْ طاقتي ولم أعد استطيع المداومة على نفس الوتيرة, توجستُ أنه إن فلت ومر مني ربما لن أستطيع زيادة سرعتي واللاحق به! لذلك شحذتُ الخطى كمرة أخيرة عزمتُ فيها الابتعاد عنه ببونٍ مريح, لكنه فاجأني بكدفه, وصوت قدميه اللتين راحتا تحتك بالأرض من فرط السرعة, وكأنه يُعلن دخوله حلبة المنافسة رسميًا وانتقال السباق من مخيلتي إلى واقعه, أو لعله يحاول أن يتخطاني ويفوز! إن كان يفكر كذلك فقد جُنَّ!

ألهمتني منافسته الحقيقية, بطاقة تناسيتُ معها التعب والإرهاق, وكأني أبدأ معه من جديد "هووووه.. هووووه" أغذّيتُ السير وأسرعتُ فيه, ورغم ذلك لم استطع الشطون عنه؛ نتيجة لسرعته الجديدة التي أزادها والتي لم تُمكنني من خلق مدى بعيدٍ فاصلٍ بيننا كما كان يحدث, كان خلفي مباشرة أفوقه بحوالي متر ونصف المتر فقط, بلا كلل ولا ملل يداوم التحرك والجري مشيًا, من فينة لأخرى يقترب ويسبقني بظل رأسه, فأتعمد الدَوّس عليه بقدمي إحباطًا لروحة المعنوية, وصلنا منطقة السيوف بعد حوالي ثلاثين دقيقة من دخوله المنافسة لم يهدأ فيهم

قط, وبناء عليه لم يجعلني أهدأ أو يترك لي فرصة لألتقط أنفاسي ولو للحظة, في البداية ظننته تحدي صعب, لم أَكُن أعرف أنه سباقٍ دموي, لم أعد أريد إلحاق هزيمة ثقيلة به أو حتى الفوز "هووووه..هووووه" فقط رحتُ أمضي بزحارٍ في صدري مجاهدًا للحفاظ على فرق المسافة التي بيننا, مسافة كانت متر ونصف وقُص منها المتر, هذا الرجل لو كان بنفس عمري كان تخطاني لا محالة, كدتُ ألتفت خلفي وأسأله ألم تتعب؟ ألم تأن مفاصلك؟ ألم تقعقع ركبتيك, لِمَ لم تستسلِم كغيرك؟ ماذا أكلت؟ وماذا شربت؟ وكيف حييت؟ أم تظنني من أولئك الذين يخسرون؟ مهلًا فيبدو أني لم أكمل لك الجملة, أنا الملك الذي لا يخسر لأني لا أيأس, استفقتُ من تفكيري الذي أبطأ حركتي على ظله يسبقني ويتعداني بشكلٍ كامل, بات في محاذاتي للمرة الثالثة, لكن هذه المرة بدون إرادتي, لم يَكُ أمامي غير أن أنفخ صدري بنفسٍ عميقٍ, حرقتُ به ما يتبقى في جسدي من سعراتٍ حرارية, وأسرعتُ حتى أعدتُ الفرق لحوالي متر ونصف مرة أخرى, لكنه أبدًا لم يكف عن ملاحقتي بسرعة ثعلب ودأب نملة سليمان, الغريب أنه في حين زادت احتكاكاتي بالأرض القرمزية تعبًا, وبِتُ بسببها أفقد قدرًا كبيرًا من سرعتي وطاقتي, خطواته عادت ثابتة دون احتكاك, رغم كل هذه السرعة والمسافة التي قطعناها, وكأنه يحرق وقود لا سعرات! من أين لك بكل هذا الجبروت أيها العجوز؟ يجب عليك أن تتوقف وتعلمني, فأنا أحتاج أن أكون مثلك, حركة تدفع بحركة لا راحة ولا هدنة, حتى تحطمتْ أرقامي القياسية في المشي والركض بعدما اجتزت حاجز الثمانية كيلو مترات ونصف, فيهم فنت طاقتي وخرج الأمر من يدي, وبدا أن العجوز على وشك إلحاق الهزيمة الثانية بي, إن كنتُ بررتُ الأولى بفارق الطول, كيف سأبرر هذه السبة في تاريخي؟! ثباته وسرعته يزدادان, وكأنه غيرنا طاقته تتناسب طرديًا مع ما يبذله من مجهود! شككتُ بنفسي لا يمكن أن يكون بهذا السن! هل خُيل لي أن الشاب الذي خلفي يمارس رياضة المشي بكل هذه الرشاقة والانتظام رجلًا عجوزًا؟! عاد بمحاذاتي للمرة الرابعة, لا فائدة لا يُمهلني أكثر من لحظات إلا ويُشقيني على قراري بتحديه, اللعنة على شيطاني العابث, لماذا لم أكتفِ بتخطيته الأولى؟ مواصلًا بعد ذلك طريقي بسلام, مذ قليل طافت برأسي قصة السلحفاة والأرنب لكني أغفلتُ بدايتها, أغفلتُ أن الأرنب هو من استفز السلحفاة لمسابقتُه, وأنا من أججتُ ما بداخل هذا الرجل لمواجهتي, أتسير قصتنا على نفس المنوال مع القصة المتوارثة وأجد نفسي خاسرًا في النهاية؟! لن أتحمل أن أراه أمامي يعبر ويمر, أنا ديك مذبوح الآن ولم يعد أمامي غير الرقص, تخليتُ عن استقامة ظهري, وعن خطواتي الرياضية, وهرولتُ لأفوز بل هرولتُ كيلا أخسر " هووووه..هووووه" مزيدٌ من الحركة, " هووووه..هووووه" مزيدٌ من المشي السرمدي فقدتُ من خلاله الأمل في أن يتوقف, وابتعدتُ قليلًا عنه وعدلتُ به أرقامي القياسية إلى تسعة كيلو مترات, لكني لم أعد أرفع ساقاي بل جوالين رمل, إلى جانب معاناتي من لحم قدماي الذي ضُرمتْ به النار, وظمأي الذي استحال غليلٍ, أحتاج معه إلى ماءٍ لا فرصة في اجْتَرَاعَه, لم يعد بيني وبين البحر صفرة الشاطئ فقط, بل بحر أخر من عرق لا أعلم أأسبح أم أغرق فيه؟! أم سألبث ببطن حوته إلى يوم يبعثون؛ فأنا لست من المسبحين بل أنا من المكذبين أُولئِك المؤلفين الذين كذبوا واقعهم وباعوا دنياهم وابتاعوا أقلامًا وأوراقًا, سطروا عليها مشاعر مَحَبَّة آباء تجاه أبنائهم في حين بقوا هم بائسين فُرَادَى بلا صاحبة ولا ولد, يُهزمون كلما يلتمسون الانتصار, رحتُ أترنح وكأنني على طريق السقوط, هذا ما أكدته عتبه أسمنتية عالية جعلتني أتعثر, كدتُ بسببها أسقط بالفعل, لكني تماسكتُ, بالتأكيد كنت ستفرح أيها الرجل الذي لا أعرف عمرك وأنت تجتازني, مهلًا كان عليك التأكد أني وإن سقطتُ سأزداد صلابة, وقتها سأقوم بأسرع قدر يُمكنني به جسدي, وأتحرك صوب هدفٍ محدد أن أعيدك خلفي كسيرتنا الأولى, اقترب من جديد بل كَرَب يلتصق بظهري, " هووووه..هووووه" شهقت مِلءُ صدري وزفرتُ وهرولتُ أكثر, لم أعد أشتم للبحر رائحة هل تجرد منها؟ أم أن حاسة الشم ذهبتْ هي الأخرى كطاقتي في خضم هذا السباق العتي, الذي يشبه السباقات الأولمبية, فقط ينقصه أن يُنقل من الأعلى بواسطة (كاميرا) طائرة, ليتجلى للعيان كيف أن المعركة محتدمة وصفرية بيننا, هذا ما أكده لنا شابٌ مارق من الجهة المقابلة ونحن بمنطقة لوران, حيث أخذ يتطلع إلى ما نحن عليه من بعيد, وحينما تواجهنا, اقترب مني, وهو يرفع إبهامه قاصدًا تشجيعي: "أنت الأحسن", لم يُفرحني ما قاله, فربما تدفع هاتان الكلمتان غريمي للإسراع أكثر والإطاحة بي, لأن كل المطلوب منه من الأساس, أن يستمر لدقائق إضافية حتى أقف وأصفق له حسن صنعه, وبالفعل ما تخوفتُ منه حدث!

أسعره الشاب المارق أكثر, عادت قدميه تحتك بالأرض, كَرَب مني يمر, قدرة لم تعد لدي, وكأني سأسقط المنديل لتكون النهاية, استسلمتُ لسرعته, وأبطأتُ حركتي فتوازينا للمرة الرابعة, لكني فجأة وجدتني صغيرًا, أرنمها لأحمس نفسي: "مقاومة.. مقاومة", عتبة أخرى على الطريق أسمنتية, لم أتعثر بها كسابقتها بل ضغطتُ

عليها بعنفوانٍ وارتفعتُ فوقها, "مقاومة..مقاومة" تجاهلته بسرعته وظله وثباته, وحضضتُ الخطى مهرولًا أردد: "مقاومة.. مقاومة" الحياة تعني المقاومة, رحلة نقضيها في المقاومة؛ نقاوم بداخلنا البغض والكسل والدناءة والكبر والجهل, نقاوم من حولنا البحر والصخر والمرض, نقاوم البرد والقيظ والشقاء, نقاوم في الآخرين حماقتهم وطمعهم وحبهم لذواتهم, نقاوم بالجمال والإبداع, نقاوم بالعمل والإرادة والعناد, نقاوم بالطعام والشراب والدواء, نقاوم بأيدينا وبالآلات وبغيرنا, نقاوم بالخطة والكر والفكرة والفر, نقاوم بالموجهات والمشاجرات, نقاوم بالنوم والصبر والهروب, نقاوم لنبقى بعيدًا عن الموت, ونقاوم لنبقى بعد الموت, خُلقنا لنقاوم, رحلة من المقاومة تبدأ حين نقاوم بالشهيق الهواء الراكد صارخين, وتنتهي حين نقاوم سكرات الموت صامتين, وها أنا أقاوم بالسير الجاذبية, وبالسير سأهزم منافسي أكان رجلًا عجوزًا لا يعرف القنوط, أم شابًا صغيرًا له من القوة والعزيمة الكثير, أو أيًا من كان, تُرى من الذي خلفي؟ أهو الفشل الذي يطاردني بإصرار, أم هو الحب الذي أبعد عنه بحماقة, أم ستكون الفجيعة وأكتشف أن كل ما أنا فيه محض خيال, لم أعد استطع التركيز في السباق وكأن عقلي من الإرهاق تركني وفر إلى البحر ليشرب ويغتسل, عضلات ساقاي تشنجت, وبات جسدي يهرول بطاقة بيضاء لا أعلم مصدرها, هذه حقبة ما بعد التعب, لم يعد لظله صورة! بل حتى لم أعد أسمع لخطواته هزلجة! وقتما نظرته لم أراه بوضوح, أيكون بسرعته وكينونته توهم مكانه رأسي, كعرض جانبي من الأعراض التي شوشتي وضربتْ اتزاني مذ علمتُ بخسارتي الثانية, أبطأت لا إراديًا, وقررتُ العد من رقم واحد إلى رقم عشرين إن لم يظهر فقد أنسحب, إن لم يظهر سأعلن نفسي فائزًا حتى وإن لم يكن له وجود, لكن على ما يبدو فقد ضاعتْ مني حاسة السمع مثلما ضاع الشم, حيث قبل أن أبدأ العد ارتسم ظله أمامي, لو كان لي هذا الجبروت, لو كنت أمتلك ما لديه من عزيمة, لكنت أنجزتُ ما أنجزته في نصف عدد السنين, كنت لن أقضِ الوقت مقهورًا حين أُظلم, لو كان لي كل هذا الجبروت, كنت سأستيقظ في اليوم التالي من هزيمتي أمسك بقلمي, أنسج حروفي, ألون كلماتي, أحط سطوري, أثث قصصي ورواياتي, وارتقيها غير عابئ لخسارة, أو إحباطٍ متعمدٍ أو غير ذلك, فندق سان ستيفانو لاح في الأفق متى تلوح نهاية هذا السباق؟ الذي يبدو أنه سيقسم ظهري قبل أن ينتهي "هووووه..هووووه", إضرام النار كان أفضل من الزجاج المنثور الذي استحال إليه باطن قدمي, ساعتي تشير إلى الثامنة, على معدة خاوية بدأت نشاطي البدني من السادسة, ومن قبل بداية كورنيش الإسكندرية, حققتُ كل ما أردتُ وأكثر, وأنا على مشارف يوم تاريخي لأني وإن ولجتُ كوبري ستانلي سأكون قطعتُ اثنى عشر كيلو مترًا بدون جلوس, أو شربة ماء, أما منافسي لعله يسكن بشارع ميناء أغادير, استيقظ قبل نزوله التمرين بساعتين, تناول إفطاره وأحتسى كوبًا مركزًا من القهوة, بث كافيينها بداخل أوردته طاقة من نار ليلاحقني بهذه الشراسة, لو تجاوزني وخسرتُ, سأخسر بشرف يكفي إني لم اتركه يسبقني ولو بخطوة!

لِمَ أفكر هكذا؟! يبدو أن عقلي بعدما أغتسل وشرب من البحر ماثل طبيعته وعاد يموج بالأعذار, وتلك مرحلة وقائية تسبق الخسارة, كمرتبة أسفنجية تمهد الأرض وتتلقف الجسد كيلا يتألم من السقوط, ولكن الأهم من تلك الأعذار, إن نجحتُ في الصمود, ووصلتُ الكوبري ماذا سيحدث بعدما أتوقف؟ هل سيحجم هو أيضًا عن السير فأفوز؟ هل سيواصل التحرك وهو يُحيني على ما بذلته من مجهود؟ أم سيمر ويرميني بشررٍ كنهاية حرب لا تعرف الشفقة بين خاسرٍ ومنتصرٍ, وقتها لن أملك إلا أن أرمقه بأنفاسٍ لاهثة بعد هذه المنافسة التي أجّ وطيسها, ولكن لِمَ لا أبادر وأقف أمامه, وأهتف إليه أن هذه هي محطتي الأخيرة لأفسد عليه فرحته؟ في خضم تفكيري تكرر المشهد للمرة التي لم أعد أستجمع رقمها أو ربما عددها, كَرَب يمرق أمامي, لكن هذه المرة على جثتي, على جثتي ستمر, حين تنفذ سعراتي الحرارية المختزنة بشحومي واسقط فاقدًا للوعي, وقتها فقط لك أن تمر من فوقي وتفرح, لم يكن ما فعلته منذ قليل رقصة الديك المذبوح, بل كانت هذه, بحلاوة روح تحول أمامي كل من في الشارع لأناس عُميان؛ لم يعد يهمني أحدًا منهم, أغمضتُ عيناي, انتزعتُ نَفَسًا وأخرجته مشيًا, "هووووه..هووووه" أسرعتُ وأسرعتُ بطاقةٍ وعزيمةٍ متواجدتين في مكان لم يتوصل له العلماء بعد, حتى عاد خلفي بالمتر ونصف المتر, مسافتنا الأزلية, وتجلى كوبري ستانلي ببرجي حراسته المرتفعين أمامنا.

ما إن بلغتُ وسط الكوبري حتى حاولتُ القيام بخدعة؛ تَوقفتُ ومن فوري ملتُ إلى السور الحديدي, قبل أن أقفز عليه وأجلس, إيهامًا له أني لم أتوقف تعبًا, منافسي العتيد تكشف لي, رجلًا عجوزًا كما شاهدته من البداية, قصير بشعر أبيض منسدل وناعم, و(تيشيرت) وسروال رماديان, لم يتوقف أو يهدا لتوقفي قيد أنملة, واصل

تحركه بصدرٍ مشدودٍ وقدمين نوويتين, تُزيح البلاطات من خلفه بمراسٍ لا يستكين, فتتاخمنا للمرة الخامسة, رفعتُ يدأَي وصفقت له, نظر إليّ وهو يركض مشيًا, محركًا سبابته أمام وجهي بعلامة النفي: "لا تتوقف لأنها مقاومة.. استمر.. استمر" حاولتُ إعلامه بأن هنا مقصدي ومحطتي الأخيرة, لكنه لم يستمع مرق من أمامي سريعًا كأيام الحياة, فرحتُ ألتقط أنفاسي على مهلٍ, مُرددًا الأعذار التي ماج بها عقلي, شاعرًا أن جملة قرأتها قديمًا عن حرب الخليج الأولى (انتهتْ بين الطرفين بلا فائز ولا مهزوم) تنطبق على نتيجتي معه, وترتفع أمامي في الأفق, لكن ما قاله رن من جديد "لا تتوقف.. هذه مقاومة" رمقته, كان قد ابتعد مسافة تجعل من المستحيل اللاحق به إلا ركضًا, شعرتُ بأن تلك الجملة وأعذاري تتهاوى على رأسي كسقفٍ قديم, وأحسستُ بغصةٍ في جوفي لأني لم استمر, لكن من أين أتى بكلمة مقاومة؟! من أين له معرفة أني أفكر فيها من الأساس؟! هل تطلع إلى أفكاري؟ أم هي محض صدفة؟ "استمر.. استمر" هل كان يقصد أن استمر بالسير؟ أم استمر بعملي الذي أمرضني وأفرغ طاقتي؟ "استمر.. استمر" نظرة أخرى إليه لم يعد له وجود! حاضر سأداوم وأقاوم واستمر, لن أعاود خطأي وأتوقف, ولن أدع الغصة تتكرر.

قصة / نور خافت

وقت الغروب, في البلكونة جلسة صافية جمعتني بأمي أخذنا نرتشف فيها مخروج حبيبات الشاي الأحمر على مهلٍ, تهللت أمي حينما رأت في الأسفل زوجتي صاعدة إلينا بصحبة ابننا محمد, سريعًا دخل محمد علينا راكضًا ينادي على أمي بحماس وحبور:(تيتة.. تيتة) فقامت أمي من فورها واحتضنته ترحيبًا وشوقًا, وانهالت عليه تقبيلًا, قبل أن تأخذه من يده إلى جلباب المرحوم أبي وتخرج منه ورقة بعشرين جنيهًا, أعطتها له, فرح ابني كثيرًا ولثم خدها المغضن, أما أنا فتساءلت ماذا إذا مُت مبكرًا؛ هل ستحتفظ زوجتي بالنقود في سروالي الجينز وتطلب من أبنائي أن يأخذوا احتياجاتهم منه, كعادة تخلدني في وجدانهم بأني رجل البيت والمسئول عنه مهما حدث, كما ربتنا أمي؟!

انتهت الزيارة, فغادرنا قبل أن أذهب إلى السرير مستسلمًا لإرهاقي, لكني ارتعدتُ في الثانية صباحًا بسبب كابوس موتر للأعصاب رأيتني فيه فاقدًا لساقي ويدي, فتحت عيناي أتأكد أني على سريري بكامل أطرافي لم يمسسني أذى, قبل أن أطيل سبابتي لأفتح النور الخافت بجانبي, ورحت أردد آية الكرسي, محاولًا السيطرة على روعي, حين أتاني صوت زوجتي الناعسة بجانبي متذمرًا أن أقفل النور.

رواية: الكابوس

على المصطبة المبنية من الطوب اللبن حين بدأت الشمس تبسط نفوذها كانت جالسة؛ في حوش البيت فسيح الجوانب ذي الطابق الواحد, خالتي تجلس بجلبابها الرمادي الصوف المتسع الذي يُمكنها من ثني قدمها اليسرى أسفل منها بأريحية كما تحب, تفصص كرات البسلة الخضراء وتنقي حبات الأرز الأبيض للغداء, بين الفينة وأختها ترفع عينيها وتبتسم ليّ, ابتسم لها وأنا على بعد خطوات منها أطعم زكي ـ ماعزي ـ الذي أتعلق, أنفاسه الساخنة تُدفئ كفي الصغير, يثغو بأذنيه المدلدلتين وأنا أداعبه بإبعاد وتقريب ثمرة الجزر من فمه؛ أقرب يدي إليه فيعض الثمرة ويشدها بقواطعه ليسحبها, فأتمسك بها وأبعد يدي فيكتفي بقضم جزء منها ويهرسه بين شدقيه, وحين يفرغ يقترب لينتزعها فأعود وأبعد يدي, استمر في مداعباته, حتى أرفع رأسي باتجاه خالتي فأجدها تدعي ليّ:

ـ يكفيك يا وليدي شر المستخبي

شيء يمسك أنفي لم تكن أسنان زكي بل هي أصابع ابنتي جميلة, هكذا تستدعيني من سويعات نومي وراحتي لعالم صباحي وعملي وما يتحتم علي القيام به.. كانت بجواري على سرير النوم العريض, ابتسمتُ لها وهي تقول بصوتها الناعم الذي به حدة أمها وإن كان أرق:

ـ هتتأخر على الشغل.. يا بابا اصحي!

نظرت في ساعة يدي مبتورة السوار, كانت متخذة زاوية حادة معلنة الساعة السابعة, مازال الوقت مبكرًا, وتلك فرصة لمداعبة جميلة, فغطيت وجهي بكفاي:

ـ لسه بدري .. هريح حبة.

الآن ستمد يدها وتحاول بكفيها الصغيرين إبعاد يداي عن وجهي, وهي تصيح "الشغل يا بابا يلا جوم هتتأخر.. هتتأخر", لكنها أفزعتني وصرخت وتحول صوتها الرقيق في لحظات لصوتٍ حادٍ يُصخب الآذان, وتشبثت (بفانلتي الحملات), إثر رؤيتها صرصورًا كبيرًا يتحرك بشاربيه الطويلين على الحائط, نهضتُ سريعًا, ومسكت فردة شبشبي البني, واقتربت منه راوغته بطرفها حتى غير مساره وبدأ في النزول, أنا متربص أترقب وجميلتي تتربص منكمشة على نفسها وحين نزل على الأرض أجهزت عليه وضربته ضربه قويه لم أشأ بعدها أن ألوث عيني ابنتي بمنظره:

ـ خلاص مات يا روحي .. هو وحش جاي من الشارع.. خلي أمك تديكي ميه بصابون عشان ننضف مكانه.

نزلتْ من على السرير وركضتْ, دقيقة وعادت كانت كافية أن التقطته بورقة نتيجة وأقذفه من (البلكونة) إلى بركة مياة آثنه كونتها المجاري, عادت ابنتي بماءٍ مضاف إليه مسحوق غسيل وممسحة طمأنتها:

ـ هنكب مية هنا ومش هيبقى فيه صراصير خالص.

هدأت ملامحها التي أربدت قليلًا, لكنها تكلمت وكأنها تُقسى على نفسها:

ـ هيجيني في الحلم يا بابا؟

ـ لا مش هيجيلك.. ولو جالك جولي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم واندهيني هموتهولك على طول, وجدتها تحتضني وتشب فرفعتها بيمناي وقبلتها, وأنا أمسد شعرها, وخرجنا معًا من غرفة النوم, حينئذ كانت حنان تخرج من المطبخ الضيق تحمل أحلام ابنتنا الثانية الصغيرة, وفي يدها طبق الفول المدمس ما إن رأت جميله تتعلق برقبتي حتى مازحتها:

ـ يا سلام على الدلع مش تيجي تساعديني.. جاعدة على كتف أبوكي يا روح ابوكي .. هاتي الجبنة من التلاجة.

نظرتُ لجميلة:

ـ غيرانه منك عشان بحبك أكتر منها.

فأخرجتْ جميلة لسانها لأمها, فتحت زوجتي عينيها على اتساعها:

ـ كدة يا بت وأنا جاعدة في المطبخ أعملكم الأكل.. طب أنا همشي ومش هتشوفوني تاني أبدًا.. خلي أبوكي ينفعك.

ضحكتُ وأنا اقترب من حنان وهمست لصغيرتنا أن تقول لها:

ـ كل سنة وأنتي طيبة يا ماما ..ربنا يخليكي لينا النهاردة عيد ميلادك وأنا هجبلك هدية.

رددتْ الصغيرة الكلمات, اقتربتُ منها وجعلتها تلثم خدها.. ابتسمت حنان ببراءة:

ـ طب يلا يا خويا عشان ما تتأخرش ..عملتلك بسبوسة تُفطر بيها, واستأذن النهاردة بدري وروح البوسطة.. وبعد كدة روح المدرسة جدم ملف البت.. ثم ضيقت عينيها وهي تنظر, نظرة بها شيء من العتاب والكثير من المكر من فوق شفتين تتهيئان للابتسام:

ـ وكمان عشان تناملك حبتين زيادة جبل ما تروح شغل المطعم, تلاجيك هلكان من انبارح.

ابتسمتُ لها وأنا أضيق عيناي أنا الأخر:

ـ مهو أنتي حلاوة

نظرتْ للطفلتين:

ـ البتين جاعدين ..خش الحمام.. يدوبك تلحج.

أنزلتُ جميلة من على كتفي طالبًا منها إحضار الجبن من الثلاجة, ودلفت الحمام, ليلة أمس, بعدما عدُت من المطعم وتمددتُ بجوارها, رغم أنها كانت ترتدي (بيجامة) نصف كم, لكنها قامت بوضع عطر جديد أوقد طاقتي ومدني بقوة, ورغم إنهاكي لم استطع المقاومة, وكما أفعل وقت الشغف حملتُ جميلة النائمة للخارج ووضعتها على الكنبة وعدتُ لأمها لحنان وأغلقت الباب, تمنعتْ في البداية كيلا أتأخر على العمل في الصباح, لكن لم يكن عمل كوزير للصحة, يمنعني منها, وكأني أغسل معها مشاكل اليوم, حيث كان سخيف في البداية تشاجر معي نادر زميلي وقام بسبي وسب ديني, لأجلس متبرمًا طوال فترة العمل, قبل أن استأذن من الأستاذ صادق عمه, ورئيسنا المباشر وأبي الروحي لأذهب لتقديم ملف جميلة إلى المدرسة الابتدائية المطابقة لسكننا الجغرافي, والتي على الرغم من أن موعد فتح باب التقديم بها يمتد من أول شهر يوليو وينتهي في أول أغسطس لكن حنان أصرتْ على أن نقدم لها في أول يوم, فوجدتني في هذه المدرسة انتظر دوري في طابور طويل أنا في نهايته, وفي يدي (دوسية) بلاستيكي أصفر شفاف, قامتْ حنان بجمع محتوياته, وجعلته جاهزًا للتقديم, وحينما وصلت للموظف المختص, اكتشفتُ سقوط طابع بريد من الثلاثة المطلوبين لأجده ينهرني, ويزيح ملفي بعيدًا وسواد العذاب بين عينيه:

ـ كمل ملفك يا أبوها

وفي الليل أُختتم اليوم بزعاق صاحب المطعم فينا جميعًا؛ من جراء شكوى قُدمت ضد المطعم بسبب النظافة ورغم أن دوري عنده لا يزيد عن (كاشير)؛ لا علاقة لي بعمل الطباخين أو محضرين الطعام لكنني طبعًا نالني من الحظ السيئ جانب, لذلك في نهاية اليوم عدتُ منهك لبيتي ورغم كوننا في منتصف الأسبوع وليس في

خميسه بالتحديد في ليلة يوم الاثنين, لم أستطع مقاومة عطر زوجتي الأخاذ الذي تسبب بخلخلتها وخلخلة نظام حياتنا الزوجية.

بداخل الحمام, وجدت كوع الحوض البلاستيكي ينُقط من جديد, نظرتُ عليه, الحالة تفاقمت ولم تعد معالجتي له بأنبوبة السيلكون كافية, لا مفر من العودة بكوعٍ جديد في المساء, سيطير معه خمسة عشرة جنيهًا ستوجع جيبنا, وتربك ميزانيتنا, خمسة عشرة جنيهًا كانت ابنتايَ جميلة وأحلام أولى بهم!

استحممتُ وعلى حنان ناديتُ, لتعطيني البشكير, تمنيتُ أن تقوم بعادتها التي ما انفكت تفعلها قبل مولد أحلام وازدياد المسئوليات, ناديتُ عليها فدخلت سريعًا وفعلت ما لم أصرح به وكأنها سمعت ما نبض في رأسي, أغلقت الباب وقامت بتجفيفي وانسحبتْ, ولمّا فعلت أكملتُ ارتداء ملابسي منتعشًا, توضأت, وخرجت لأرتدي بنطالي الجينز الذي وإن كان لا يحتفظ بصفته السوداء فهو لا يزال يحتفظ باسمه الأسود ـ لدي على الأقل ـ ثم تربعتُ على الأرض بجوار الطبلية, فجلست جميلة عليّ كما تفعل, فأخذتُ أطعمها, حين جلست حنان تُطعم أحلام, وأنا أحكي لهن أني في حلمي أمس رأيت خالتي ونفسي بعمر الخمس سنوات وكنت أطعم زكي ماعزي:

ـ يا خويا روحلها.. أنت يجيلك سنتين ما روحتلهاش.

قالت حنان ثم سكتت وأكملت بحذر:

ـ ومتجعدش عنديهم ..أنا عارفه أن ولادها مش كويسين.. بس الحاجة خالتك ملهاش ذنب روح وتعالى في نفس اليوم.

هززتُ رأسي لها موافقًا, أنهيتُ إفطاري, وانتصبتُ فتبعتني جميلة لتصلي كما تعرف, صليتُ معها متنغمًا بصوتها الساحر كلما قالتْ (الله أكبر), ثم ارتديتُ قميصي البيج وحذائي الأبيض الرياضي الذي عُدت أخجل منه, قبل أن أغادر ذكرتني حنان بقوة أم تخشى ضياع أبنائها في زحام مولد:

ـ ما تنساش تعدي على البوسطة وتروح المدرسة.. وخد من البسبوسة معاك.

ـ هستأذن بدري نص ساعة وأروح.. هاخد يا ماما ومش حته.. تلاته.. أنا والأستاذ صادق ونادر.

كالعادة تبرمت وركبها مئة عفريت, واستغفرت الله لذكري اسم نادر الذي لا تطيقه ولا تتوقف عن ذمه والدعاء عليه, فحاولت تهدئة غضبتها:

ـ كتر خيره من اللي شافه.

ـ عرفه ما تدافعش عنه..مهو من عمايله السودا.. مصيبة تاخده .. يطفحها بالسم الهاري.

اختصارًا لجدال طويل معها حق فيه:

ـ ربنا يهدي الكل.

ثم أنحيت بجسدي الطويل وشبت هي فقبلتها على رأسها وودعت البنتين, وتركتهن خلفي, نزلتُ في طريقي لأنتظر الأستاذ صادق رئيسي في قسم المخازن كالعادة لنذهب معًا لمديرية الصحة, الجو كان ساكنًا لا وجود لأي هواء, والسماء لبنية صافية بها فقط قرص الشمس يحشد طاقته ليصهرنا تحته وقت الظهيرة, سيارتي الزرقاء كانت على ناصية شارعي, شارع المهدي بمنطقة الشيخ هارون, مركونة ومغطاة بالأمس أدرت محركها لئلا تتعطب بطاريتها, لذلك اليوم فقط نظرة لأطمئن على وجودها سليمة, نظرة رغم أنها أصبحت روتينية كل يوم, لكنها لا زالت تنعش بدواخلي إحساس الفخر لشرائها؛ سيارتي (البيجو) هي حلمي الذي فعلت من أجله كل شيء, مع الأسف يوم بعد يوم يقترب ميقات بيعها, سأبيعها للمشتري الذي يدفع أكثر, صحيح أتلكأ في ذلك كثيرًا؛ على أمل بالفرج لكن لا مفر هذه المرة, حينما شرعتُ في الزواج وقررتُ بيعها لأتدبر بفلوسها مصاريف زواجي, شعرتُ إني أختنق وأفضت لحنان بهذا, أقسمت عليّ ألا افعل وسترضى هي بأي شيء,

وهذا بالتحديد ما جعلني أعرف معدنها, من المحظوظ الذي يجد إنسانه غير طامعة في شيء هذه الأيام! وقتها ارتضت حنان بدبلة وسرير عريض, وأثاث شقتي القديم الذي ورثته عن أبي لم أبدل فيه, لكن يوم بعد يوم المصاريف تزداد, (مريلاتان) لجميلة وحقيبة وبنطال لسنتها الأولى في المدرسة اقتطعوا من دخلي الربع, ولن يساعد على هذه المصاريف شيء غير ثمن سيارتي, حيث أخصص الجزء الأكبر لعمليتي التجميل الخاصتين بجميلة و أحلام كيلا يعيشا حياتهما بفك سفلي بارز مثلي, أو يضايقهما أحدًا بسبب شكلهما, وما يتبقى يقبع في البريد نصرف منه وقتما نحتاج, لعل الله يفرجها من عنده.

وصلت إلى الطريق الرئيسي, مكان انتظار الأستاذ صادق, حيث يأتي من "السيل" المنطقة المجاور "للشيخ هارون" وأشهر منطقة سكنية بمدينة أسوان, والمنطقة التي عشت بها عندما عدت من "كوم أمبو" في شقة مستأجرة, أنا وهو نتمشى معًا كل يوم حتى شارع الغازات مقر مديرية الصحة, حوالي اثنين كيلو نقطعهما في ثلث ساعة أنا أوفر بهذه التمشية ثمن المواصلات والبنزين, أما الأستاذ صادق يفعل هذا لنفس السبب لكنه لا يعترف بذلك ويُردد إنه يفعل هذا حتى يخس وينزل وزنه رغم أنه ينافس المقشة في نحافتها!

دقيقتان حتى وجدته يتقدم عليّ يحمل في يده الكيس الذي جلبه بناء على طلبي من محل صديقٌ له, محتوياته (بيجاما نبيتيه) وقلم (روج) أحمر كنت قد أوصيته عليهما بالأمس كهدية لحنان في عيد ميلادها, على أن أعطيه ثمنهما من فلوس الجمعية التي سأقبضها في أغسطس, كما اعتادنا على هذا التعامل منذ فترة, في طريق سيرنا فتح الأستاذ صادق ـ نطلق عليه هذا اللقب (أستاذ) نظرًا لأن معظم كلمات جمله في الكلام العادي ينطقها بالفصحى على خلاف الجميع ـ سيرة نادر ابن أخيه:

ـ لو الحيوان ده أتكلم معاك اليوم أيَضا.. لا تسكت له وأضربه باللي في رجلك.

ـ ما تجولش كدة يا أستاذ صادق.. نادر دة أخويا.. وهي يا عني أول مرة.. محنا لازم نتحمل بعضنا وهو كتر خيره من اللي شافه, أنا يا ما شوفت وهو بيعمل أيه يا عني؟! كلها شتمتين على زعجتين نتحملهم ربنا يهديه, أنا بس ادايجت انبارح.. حسيته بيشتم بغل, وما صدجش أن أنت اللي جولتلي أعمل كدة وماخليهوش يتعامل مع الحريم.

ـ أنا لا ينقصني المشاكل يا عرفه.. ده جن منذ توفيت زوجته, وكل شيء بيأتي في وجهي أنا.. ابن أخوك عمل ابن أخوك نيل.. ابن أخوك مُدمن برشام, يا ريتك أنت اللي كنت قريبي وجوزتك داليا.

رافقت أمنيته لمعة في عينية, جاءت تجتر ندم وأسى على ما حدث, أمنيته التي فات أوانها ولن يشملها الأمل بعطفه, فدعوت لابنته:

ـ الله يرحمها

وكأنه يطلقها ليشتت أثر جملته الأخيرة علينا فقال بصدق:

ـ بس أنت كمان ربنا كرمك بزوجة زيّ الفل.. صيناك أجعلها أنت كمان في عينيك.. واشتري لها مع "البيجامة" و"الروج" حاجة حلوة شوية زلابية ولا حتة بسبوسة تفرح بيها.

ابتسمتُ:

ـ الحمد لله.. أنا كنت فين.. ودلوجتي فين أنا دلوجت في نِعم, أنا كنت بطولي في الدنيا.. يتيم وبسببها بجا ليا بيت وعندي ولاد... شايلاني وشايلة البنات بصراحة من غيرها نتوه.. ثم أزدتُ ابتسامتي وقلت مُفرحًا أياه:

ـ وهي اللي عاملة بسبوسة, جايبلك نصيبك معايا تشرب بيه الشاي.. وجايب لنادر كمان حتة لما يجي يصالحني ويسلم عليا هدوجهاله.. هو أصله بيحب أكل حنان.

ـ خسارة فيه.. كتر خيرك يا بني.

هذه الأخيرة كانت بنبرته النادمة وكأنه عاد وتذكر موضوع داليا ابنته.

وصلنا مديرية الصحة, التي تتكون من ثلاثة طوابق و(بدروم) أكبر قسم فيه هو قسم المخازن, والذي كان يتكون من غرفة كبيرة ومتسعة ذات بابين وأربع نوافذ تُدخل للموظفين الهواء ودبيب أقدام المارين, قبل أن يقسمها الأستاذ صادق بلوح خشب عريض, ليكون لنفسه غرفة مدير قسم المخازن؛ وافق رؤسائه على هذا الإجراء فهو أقدم العاملين بالمديرية وأكبرهم سنًا ولهذا حسابه, أما في النصف الأخر وُضع مكتبين لإداريي قسم المخازن أنا ونادر, بعد الإمضاء, جلستُ على مكتبي وأخرجتُ أخشاب "الاركت" وأخذتُ أُشكل فيهم, انتظارًا لمواطن يطلب ورقة أو توقيع أو خدمة من قسمي, وانتظارًا لنادر الذي سيأتي ويُلقي السلام ويعتذر عما بدر منه لأنه لم يكن في حالته الطبيعية بالأمس, سأبتسم وأسلم عليه كالمعتاد, ليس على الأعمى حرج, ليس على المريض حرج, وليس على نادر حرج, لكنه عندما جاء نظر شزرًا ولم يُلقِ التحية أو يتكلم معي على عكس ما توقعتُ, انتظرت حتى الساعة الحادية عشرة, تعجبتُ كثيرًا وعندما رأيته يصنع كوبٍ من شاي قربت منه قطعة البسبوسة, ومددتُ له يدي لأبدأ بالسلام, فالسلام هو شخص ثالث بيننا إن لم يأت فعلينا استدعائه.

******

بعد أربع ساعات.. الأستاذ صادق لم يكف عن الاتصال منذ مغادرتي المديرية بعد ما حدث, سؤال باغتني وأخترق رأسي كرمح حرب ودفعني للرد على اتصالاته؛ هل كان يعلم بالحقيقة؟

ـ أنت فين يا عرفه يا بني؟

ـ أنت كنت عارف يا أستاذ صادق؟

- .....

ـ كنت عارف وما تكلمتش عشان تداري عليه صح؟

ـ أنت فاهم خطأ.. أنت فين؟ أفهمك..

ـ انا اللي هاجيلك وهجتلك واجتلها وهجتلهولك.

أغلقت الخط عاد يتصل وعدت لا أسمع.

*****

حنان

وأنا أحاول الغور على تلال الغسيل التي لا تنتهي ولا يُعرف من أين تبدأ, مبتسمة أفكر في هدية عرفه المحتملة التي في الغالب سيجلبها معه حين عودته من المديرية, تسربت جميلة من أمام قناة كرتونها التي تحب, إلى باب الشقة الموصد, فتحته مبتغية أن تلعب على البسطة, لكن قدمها خانتها وانزلقتْ على السلم, عرفت هذا عندما سمعتُ صرخاتها, فتركتُ ما في يدي, وركضتُ مفزوعة على صوتها, وجدتها في حالة جعلتني أصرخ أنا الأخرى؛ حيث تبكي متشنجة في حين الدم من جبهتها يبك, تلقفتها ودخلت بها الشقة, ومنها إلى المطبخ, كبستُ لها من عبوة البن في الجرح النازف, ولففتُ لها جرح جبهتها بقماشة نظيفة, لم يوقف ما فعلته سيلان دمائها نهائيًا لكنه أبطأ وحد من وتيرته السريعة بشكل ملحوظ, أرحتها على مقعد الصالة البني العريض, طالبه منها أن تكف عن البكاء, وأن تضغط على القماشة بيدها, استدرتُ إلى غرفة النوم وعلى عجل ارتديتُ عباءتي السوداء

المعلقة خلف بابها وانتعلتُ شبشب خروجي, وعدتُ إليها وحملتها على كتفي, ومسكت بيدي اليمنى (بوكي), أما يدي اليسرى فسحبت بها أحلام الصغيرة, تحركتُ, وهبطتُ وطرقتُ باب جارتنا فتحية كي أترك عندها أحلام لكنها لم تفتح ما يشي بنومها أو عدم تواجدها, خرجتُ بالبنتين من العمارة إلى الشارع تخطيتُ الجيران المارين والسائلين عن ما أصابها بثلاث كلمات موجزة:

ـ وجعت ..هاوديها المستوصف.

تاكسي كان يمر بالصدفة في الشارع, أوقفته وطلبت من سائقه أن يقلنا سريعًا إلى مستوصف مريم ـ القريب منا ـ وأنا أضغط على جرح جميلة بيدي, اتصلتُ بعرفه لكنه لم يرد, ولم يرد الأستاذ صادق أيضًا, بعد دقائق قليلة مرت بطيئة وثقيلة فتتت أعصابي, وصلتُ, فاكتشفت إنني لا أحمل أي نقود تزيد عن أجرة التاكسي الذي حاسبته, توغلتُ في زحام المستوصف, لم يكن أمامي فرصة للانتظار فوقفت أمام ممرضة الاستقبال التي تهاتف المرضى السائلين, وتجيب على استفسارات المرضى الحاضرين وباغتها بصوتٍ عالي حاد:

ـ حد ينجدني ..أروح فين بتي دمها بيتصفى في أيدي.

ـ تاني أوضة يمين.

أشارت بهدوء على غرفة دخلتها سريعًا كان بها ممرض وممرضة:

ـ شوفوا البت والنبي.. دراعها اتكسر ودماغها مفتوحة

أزال الممرض القماشة, ثم نظر وطمأنني:

ـ الجرح بسيط.. هيحتاج غرزتين.. جدعة إنك ربطتيه.

ثبت مع زميلته رأس جميلة النازف لا يزال, وإن كان بدرجة أقل بكثير, نظفه ومرر غرزه معدنية بين فلقتي الجرح الذي تبين أنه أعلى الحاجب الأيمن بالضبط, وفي هذه الأثناء زلزل صراخ جميلة المستوصف واعتصرت يد من فولاذ صدري, وبكت أحلام قبل يُنهي تخيّط الجرح, وتدخل طبيبة شابة رفيعة علينا الحجرة وتسألني بلهجة الخبيرة:

ـ حصلها أيه؟!

ـ وجعت على السلم دماغها اتفتحت ودراعها واجعها.

داعبت الطبيبة جميلة وأخرجت من معطفها الطبي حلوى, ثم طلبت أشعة على يدها التي كانت اكتست تمامًا بلون الطماطم, حملتها على كتفي إلى غرفة ملاصقة للغرفة التي نحن بها كُتب عليها (الأشعة) وبعدها انتظرتُ النتيجة لحوالي نصف ساعة, حاولت فيها الاتصال بعرفه, قبل أن تفصل الطبيبة في الأمر أنه لا كسور في يدها, هدأت وكررتُ الاتصال بعرفه, الذي رد أخيرًا لكنه لم ينطق بجملته المألوفة (أيوه يا ماما.. كله تمام؟), ولم ينطق من الأساس فقط صمت للحظات كانت كافية لأبلغه ما جرى, وأطلب منه أن يحضر ويُحضر معه مصاريف, كانت نبرته شاذة لم تتناهى إلى مسامعي من قبل بشكل مبالغ فيه, توقعتُ أنه وقتما يصل بالتأكيد سيتهمني بالتقصير والإهمال فخوفه على بناته لا حدود له.

انتظرتُ في الزحام على أحد المقاعد البلاستكية الملتصقة بالجدار والمصطفة بين جنبات حجرات الكشف, كانت سيدة ملكومة تصرخ باسم (عمر) ابنها الذي تُوفيّ, فجعلت أنيطة قلبي وقلوب الجالسين تتمزق رأفة بحالها, وما لبثت أن غادرت المستوصف محمولة على مقعد, وبدأت سيدة ثلاثينية بيضاء كشمعة تجلس بجواري تُعلق في أسى على ما جرى للسيدة المكلومة, وتشفق بكلمات لينه على جميلة, حتى أحسست بيدين زوجي عرفه الجلفُتين, تُبعدا جميلة عن صدري بقوة غير مبررة, ثم ضمتا ابنته إليه وهو يتحاشى النظر إلى عيني, يبدو أن العاصفة ستكون أكبر مما توقعت, كان عليّ أن أتحمله ومن تتحمله غيري؟! فحاولت بنبرة جاهدتُ لأخرجها هادئة رغم

كل ما بداخلي أن أطمئنه إنها بخير لكن محاولتي لم تزَ نورًا, والتصقت ببراثن الفشل فبمجرد أن حاولت إبعاد أحلام التي تمسكت به, دفع يدي بعنف كدت أصرخ منه, عنف أخرجني عن التفكير لدقائق وأنا أنظر لعيون من حولي التي تساءلت عن ما يحدث وكأني خاطفة للطفلتين ولست أمهما التي أنجبت!

أمرني بصوتٍ لم أسمعه منه من قبل ألا أتحرك من مكاني, لم أبدي ردة فعل غير الانتظار, صوت عرفه دفعني لأتساءل كم صوت لزوجي الذي أنام بجانبه على سرير واحد منذ سبع سنوات ويبدو أنني مازلت لم أعرفه بعد؟!

السيدة البيضاء تفوهت بكلام لم أدرك منه غير إنها منزعجة مما فعل زوجي, حيث أنني لم أخطىء في شيء, لم أدافع عني, أو عنه فقط كنت أتابعه حتى سدد المبلغ المطلوب, وخرج من البوابة الوحيدة المفتوحة للمستوصف مع جميلة وأحلام, قمتُ بخزوٍ من مكاني لأغادر بدون أن ألتفت لأحدٍ من الجالسين وكأني أخفي عنهم عار لحق بشخصي, ربما أجد مبرر لأفعاله العنيفة, أما أن يتركني هنا بمفردي ويعود بدوني هذا التصرف, أعاد في حلقي طعم الذل الذي كنت نسيته من بعد زواجي منه, فمهما كانت درجة حبه لبناته, ومهما كانت درجة إهمالي, فلا يمكن أن يكافئني على خدمتي له وما افعل معه ومع بناته بهذه الطريقة!

على أقدامي تحركتُ عائدة, الطريق كان كفيل بأن استرجع كيف كان عرفه قاسي معي حينما مرضتْ أحلام, وزادت الحمى عليها وراح يتهمني بالاستهتار والتهاون في حقها لكن هذا الأمر برمته كان كالزوبعة في فنجان القهوة ما لبثت أن انتصفت الساعة حتى انقشعت هبات غضبه وهدأ.

واصلتُ التحرك وأخذتُ أفكر بطريقة أخرى, وألتمس له العذر فربما فجعه منظر جميلة وهي منهكة زائغة العينين, وطوح هذا المنظر انفعالاته كيفما شاء بدون إرادة منه, ومع هذه الحالة التي عليها عرفه خشيتُ من سيناريوهات مرعبة حاصرت عقلي حيث إنني من الممكن حينما أحاول فتح باب الشقة اكتشف إنه غير كالونه أو لعله يطردني من البيت أو يطلقني, ورغم أن هذا صعب أن يصدر من شخص طيب القلب والجوانح كعرفه لكن من يعلم إلى أين ستأخذنا احتداماته وانفعالاته؟! انعطفت مع الشوارع, حتى وصلت شارع المهدي, وبدأت أتلقى الأسئلة من الجيران المستفسرين عما حدث لجميلة وأجيبهم بذهن مشوش كببغاء ينطق ولا يفهم:

ـ ربنا ستر

في مدخل البناية سألتني فتحية جارتنا الخمسينية التي تعيش بمفردها والتي وإن كانت تتصف بالفضول المحدق, لكنها ما فتئت أن تصنع الجمائل والخدمات من أجلنا طمأنتها أيضًا, فنظرتْ بريبه إلى الأعلى لتتأكد من أن عرفه لا يسمعنا, وأشارت أن اقترب وكأنها ستفضي إليّ سرًا, قبل أن تهمس في أذني:

ـ خدي بالك جوزك الديج باين عليه.. وعلى وشه غضب ربنا.. والشر رايح جاي في عينيه زي المتغيب.. ما شفتوش كدة أبدا.

جذبت ذراعي برفق وضغطتْ عليه, ثم غمزت وهي تضم أصابع كفها الخمس المفرودين للأعلى في أشارة معروف معناها أن أهدأ ولا أنفعل:

ـ طاوعي وهاودي واهتمي ببيتك.. ولو شخطله شوية أو شاكلك على الفارغة ما تجوحيش ومشي الأمور.

أثارت نصائحها غُمتي المتماسكة, وراحت تسقط أمامها كحقيبة يد ينفلت ذراعها بغتة في وسط الطريق, فحكيتُ لها باكية كيف بكتني في المستشفى وتركني كلبه ورحل, وأتساءل باستنكار معها:

ـ لو هو أبوهم فأنا أمهم؟!

فتحية التي أحتضنتْ وربتتْ ومسحتْ دموعي بكفيها المتهدلين, أفضتُ لها فسترحتُ, قبل أن أصعد الشقة متفهمه لكلامها ومهيئة نفسي لمشكلة سأفعل المستحيل لامتصاص شظايا غضبته فيها, دلفتُ الشقة اعتذر له وأخبره أني أتفهم سخطه وما به, وأبرر له أن جميلة تسببت في إيذاء نفسها بدون علمي, لم يستجب ولم ينظر

تجاهي وكأني أكلم حائط, فانحنيتُ على جميلة أقبلها وأمسد جرحها بيدي, فجأة هب عرفه واقفًا وكأنه سيضربني على وجهي, لكنه أخرج من جيبه جهاز تليفون يبدو مستعملًا, للوهلة الأولى جال في خاطري إنه هديتي في يوم عيد ميلادي لكن نظراته لم تكن تدل على ذلك نظراته كان بها الكثير من الكره, نعم, أنا متأكدة ودقيقة في تعبيري وقبل تعبيري دقيقة ومتأكدة من شعوري (الكثير من الكره)!

تجاوزتُ ألمي بما شعرتْ وسألته بأمل إن كان التليفون ذاك من أجلي, عكس كل ما تقوله عيناه, أومأ برأسه موافقة, فانبلج من بين ظلام الموقف أمل بداخلي كشعاع البرق, تُرجم في ابتسامة تمنيتُ أن تغطي على غبار ما يحدث في بيتنا, حاولتُ أن التقط التليفون, لكن ابتسامتي ما كادت تكتمل وأنا أمد يدي حتى أبعد يده فطاشت يدي في الهواء, كأملي الذي طاش مع نظرات كره لم أراها من زوجي يوم تجاه أحد وليس تجاهي أنا, تجاه زوجته.. وبصوتٍ لا يُستجلب معه خير ولا يعيش معه طير راح يُبلغني أنه سيُعطيني إياه حينما تُشفى جميلة, بعد ذلك طلب مني أن أقلي لها بطاطس, وطلب مني أن أعطيه تليفوني, فأخرجته له من (بوكي), وناولته إياه, واستمرارًا لسلسلة عنفه, قبض عليه بقوة وأدخله في جيبه مع التليفون الأخر الذي ظننته هديتي, ثم أعلمني بما أعرفه بوجود فلوس في الدولاب كتصريح أن أسحب منهم, ثم أردف لما قاله بأنه سيسافر وأمرني بشراء ما تحتاجاه البنتين وخص جميلة بشراء كبده قاصدًا أن تعوضها عما نزفته!

ما قاله عارفه أكبر من احتدامات وانفعالات وقتية, وأكبر من استيعابي فانبثق كلامي بطريقة غريبة عما يدور بداخلي انبثق بملمس وردة ناعمة نبتت وحيدة في صحراء بعيدة, وسألته بحنين السنين عما به ووجهته لكنه داس على حنين السنين, وأمرني ألا أغادر المنزل لأي شيء أخر, ثم أشعل حنين السنين وهددني بالحرق إذا أصاب البنتين مكروه, ارتجفتُ, تهديده ألجمني خوفًا وأصمتني رعبًا, وفجأة وجدتُ شهيقي يلاحق زفيري كمن ركضتْ لسنة, وهززت رأسي موافقة كمن تشاهد نفسها في حلمٍ تتكلم وتسمع بلا إرادة حقيقية منها, قبل أن أطيعه بجملة صدرت عفويًا من فمي, أخذتُ أشاهده مذهولة, وعلامات الاستفهام تتساقط عليّ كحجارة إن لم تقتلني رجمًا الآن فستفعل خنقًا لاحقًا, وهو يقبل جميلة وأحلام ويصك الباب من خلفه ويتركني وحيدة مع بنتيه ويرحل, كنت مأخوذة مشتته لم أعرف عن الأمر أمر, ولا أدري عما أفعل أمر, لماذا سافر؟ ولماذا أخذ تليفوني؟ والأهم لماذا يعاملني بكل هذه الخشونة والشظف, انتويتُ بعدما أطعم جميلة البطاطس, أن أنادي فتحية وأبث لها ما جرى, علها تدبرني, طرق الباب أحدهم, توقعت إنها هي, حينما فتحت, وجدت الأستاذ صادق وقف أمامي بصلعته منتصبًا ولم يكن على وجهه بادرة خير, حياني ودخل وسأل عن عرفه, ما كدت أحكي له ما حدث, وأشكو له هواني عليه, حتى صدمني أن زوجي عرف ما أخفيناه عنه يوم عهدنا, لم أقوى على ما سمعت غامت الدنيا من حولي, ونغزة باردة كالثلج جمدت قلبي عن العمل, وخضلت أطرافي وأحسستُ باقتراب الأرض من وجهي.

استفقتُ على ممرضة تمسك يدي اليسرى وتعلق بها المحاليل.. فلطمت بيمناي على خدي.

*****

الأستاذ صادق

كنت في مكتبي الملاصق لغرفة مكتبهما, الذي رُد بابه حينما ضجت أصواتهما كمدافع حرب, وبينما شرعتُ في النهوض وجدتني أسمع صوت زجاج يرتطم ويتفتت وتتناثر شظاياته, تُسايره أصوات زعاق وألفاظ نابية متبادلة بينهما, بأسرع ما سمحتْ به حركتي حثثتُ خطواتي ووصلت عندهما, عرفه كان يمسك نادر ويمدده كورقة على المكتب, متحكم به كتحكم رجل كبير متشنج يمسك بلعبه صغيرة يريد تحطيمها, يمُدده ويضغط على رقبته بعنفوان, استمرار هذه الوضعية لخمسة ثوان إضافية ستؤدي إلى إزهاق روح نادر ومقتله على يد عرفه بلا محالة, حيث أزرق وجهه تمامًا وأخذ ينزف من كل جزء فيه, صرختُ وكررتُ حتى شعرت أن حنجرتي عطبت:

ـ سيبه يا عرفه .. سيبه يا عرفه

واندفعتُ نحوهما بطاقة مراهق في الخامسة عشر, ومددتُ يدي أحاول جذب ذراع عرفه العريض وإبعاد يديه الغليظة عن رقبة ابن أخي, فباغتني بضربه في صدري قاصدًا إزاحتي فوجدت نفسي التصق بالحائط ويرتطم رأسي بالجدار وتندي الدماء منه وأترنح وعلى وشك السقوط, كان هذا حين وجه عرفه لطمه قوية لنادر بظهر يده غيبته عن الوعي, التقت عيني بعين عرفه, فرأيت ملامح شخص لم أتعرف عليه مرة, كيف يُحول الغضب الناس لأناس لا نعرفهم؟!

استمر يحدج فيّ وأحدج فيه, ترتعش شفتاه ولا يتكلم, وترتعش شفتاي ولا أنطق, وكأننا غير مصدقين ولا مدركين ما حدث للتو, قبل أن يُباعد عينيه ويصوبهما تجاه نادر الذي لحسن حظه بات كجثة خلفتها معركة, بعدها أنحنى عرفه وألتقط تليفون نادر الساقط على الأرض وخرج بخطوات متسارعة.

جسده المترامي الأطراف ووجه المتجهم المرسوم بخط الدماء السائلة من فمه بالإضافة إلى ما فعله معنا, جعله يتحرك وسط جمع الموظفين الذين تأبشوا وتحلقوا بسبب المشاجرة كسيارة نقل تجب من أمامها فأوسع الموظفون له الطريق ولم يجرؤ أحدهم على إيقافه, بل حتى لم يجرؤ أحدًا منهم على سؤاله.

نزل الدكتور محمود صبحي وكيل المديرية في غياب مديرها من عليائه, ليحقق فيما جرى وحدث, زعق في الجمع وأظهر شخصية المدير الآمر الناهي وهو يتساءل أسئلة كثيرة مفادها أن عرفه منذ تم تعينه لم يصدر منه أي شيء خاطئ .. ماذا جرى؟! هل جُن ؟!

ما كان أمامي غير تدبيج ما حدث ومحاولة التغطية عليه وإقناع وكيل المديرية, أن الأمر لا يستدعي تحقيق, وأن كل ما هنالك أن ابن أخي هو من استفز عرفه وأخرجه عن شعوره, وأن عرفه لم يمسسني بسوء كما وصله من بعض الموظفين الساعيين للفتنه والتهويل, وأن ما دفع عرفه لمغادرة المبنى بدون إذن هي ظروف وفاة والد أحد أصدقائه المقربين فقط, فيما ضغطتُ على نادر الذي أسترد وعيه, أن يُرجع هذه الإصابات إلى مشاجرة مع سائق ميكروباص حدثت في الصباح, قطعًا لم يقتنع الوكيل بكلامي أو ما سرده نادر خاصة بعدما رأى وجهه المزرق في أماكن وفي أخرى محمر وفي ثالثة متورم ومغصن بالجروح, لكنه مراعاة لمكانتي قرر فقط أن يكتفي مع عرفه بعقوبة ترك العمل, فهو يقدرني ويحترمني مثل كل العاملين بالمديرية وإن كان هو طبيب ومسئول كبير ورئيسي فهو في النهاية الأصغر سنًا.

عندما هدأت الفورة في المديرية, وتأكدت أن إصابات نادر سطحية اتصلت بعرفه لكنه لم يرد ولم يكن بمقدوري مغادرة المديرية قبل موعدها الرسمي حيث شد الدكتور محمود صبحي أجوائها:

ـ ما فيش حاجة أسمها استئذان أو أذن النهاردة كله هيشتغل للساعة 2 .. حتى لو حصل أيه!

بمجرد أن انصرفتُ توجهت إلي شقته حاملًا في يدي الحقيبة البلاستيكية التي بها "البيجاما النبيتيه" وقلم "الروج" الأحمر والتي تركها عرفه وغادر.

*****

لم أدر بنفسي إلا وأستاذ صادق ينزف دمًا من رأسه من فعل ضربتي له في الحائط, أجفلتُ وعدتُ لعقلي تقدمتُ نحوه ونظرت له عيناه بها زيغ وذهول وعيناي بها صدمة, صمتٌ يتغلب على ما أصابه ويدقق في وكأنه يتعرف عليّ, أخذ نهيجي يرتفع, نادر أمامي وجهه ينزف بلا حركة, ومن خلفي الموظفين تجمعوا والموظفات يصرخن, ينظرون مندهشون كلهم, لا يجرؤون على التقدم خوفًا من هيئتي ومن مصير الأستاذ صادق, بيدي الملوثة بدم نادر انتزعتُ تليفونه, وتركتهم خلفي مقررًا الوصول لبيتي بأسرع طريقة, فأوقفت تاكسي وأعطيته العنوان وطلبت منه السرعة رغم قرب المسافة, وصل تحت البيت, نادى عليّ أحد الجيران لم أهتم به ولم أرد, صعدتُ الشقة ودخلت, زعقت لترد لكنها لم تكن موجودة, من جيبي أخرجت تليفوني اكتشفت أنها اتصلت كثيرًا, قبل أن تعيد الاتصال, ففتحتُ الخط أنتظر قولها, لم تقل جملتها الآثيرة (الو يا خويا.. عامل أيه) لكنها صاحت: جميلة وجعت ورسها اتفتحت وجريت بيها على مستوصف مريم.. تعالى وهات فلوس معاك.

صمتُ برهة استوعب كل ما أنا فيه ثم وجدتني أرد بتلقائية: جاي على طول ..لسه بتنزف ؟

ـ ممرضة خيطت الجرح, هي غفلتني يا خويا والله.

لم أستمع لأكثر من ذلك, تهاويت من على السلالم متقافزًا فارتجت من تحتي.. الفلوس نسيتها!

عُدت إلى الشقة بنفس سرعتي, دخلت غرفة النوم, فتحت الدولاب الصغير, سحبت من التسع ورقات ذوات فئة المائتان جنية المطويات ورقتين, خطفت مفاتيح السيارة, ولم أغلق الضلفة ونزلت.

تحركتُ في الشارع مقتربًا من سيارتي, متجاهلًا كل كلمات السؤال والطمأنينة عن جميلة, رفعت غطاء السيارة بسرعة وعزم, فتحت بابها وأدرت محركها, دقائق وانطلقت, وصلت إلى المستوصف, مشهد مهيبًا على مدخله أوقفني؛ حيث سيدة بدينة محمولة على كرسي متحرك بواسطة ستة أشخاص يحاولون إنزالها من باب المستوصف المرتفع عن الأرض بسبع درجات في حين أن كلًا من قدميها ويدها اليسرى لفت بجبيرة, تصرخ بنفس واحد لا تسحب غيره

ـ عمر يا ولدي.. يا عمر يا ولدي.

أحدهم تكلم بصوت مرتفع بعدما (حوقل) وكأنه يُسمع من لا يعرف شيئًا عن الموضوع: ابنها كان سايج بيها وعمل حادثة ومات في الحال.

نظرتُ إلى عينيها المتوارية خلف عجيجها الحاد وصياحها الذي لا يُعرف له انقطاع, فأحسستُ برجفة هزت قلبي نسيتُ معها كل شيء إلا جميلة, وما إن ابتعدوا بها عن مدخل المستوصف, لم أراعِ أحد وأفسحت طريقي بيدي, مندفعًا بين الزحام حتى وجدت حنان جالسة تحادث سيدة أخرى, ولا تنظر باتجاهي, بدا من منظرهما إنهما ينعيان الأحوال, أحلام كانت بجوارها في حين جميلة المصابة مرتخية في حضن أمها دائخة, نظراتها تائهة أقبلتُ عليهن, وانتزعت جميلة منها واحتضنتها بدون كلام منيّ, وكأني أحاول أن أترجم ما أنا فيه لأتعايش معه.

ـ عايزة أروح

نطقتها جميلة وهي بين يداي, فاحتضنتها أكثر, وقبلت أنفها.

ـ ما تخفش يا خويا الدكتورة جالت بتك كويسة ما فيهاش حاجة.

قالتها حنان مطمئنه أياي, لم أنظر تجاهها ولم أعلق, فقط رددت على ابنتي:

ـ هنروح على طول يا ماما ما تخافيش.

تحركتُ لأدفع الحساب فتشبثت أحلام الصغيرة ببنطالي الأسود, حاولتْ حنان أن تثنيها, فمسكتُ يد حنان ونطرتها بشكل جعل جميع المرضى والمرافقين المنتظرين يلتفتون لنا, فُزعت هي من فعلتي.

ـ خليكي هنا

قلت لها آمرًا

دفعت الحساب عند ممرضة الاستقبال التي لا تكاد تفرغ من الرد على التليفون, وأخذت الطفلتين وخرجت بهما, صاحت الصغيرة تنبهني:

ـ ماما !

ـ عنها ما جت!

فتحتُ السيارة ومددتُ جميلة على الكنبة الخلفية, فغاصت فيها واستكانت, ووضعت أحلام بجواري وتحركتُ, تليفوني لم ينقطع عن الرنين منذ ما حدث في مديرية الصحة, ما بين الأستاذ صادق وزملاء آخرين وجيران وحنان, لم أرد ولم أنظر غير في الطريق, وعيناي في المرآة الأمامية متعلقة بجميلة, عندما عدت كان باب شقة فتحية مفتوحًا وهي خلفه قاعدة على الكنبة ويبدو أنها علمت ما حدث لجميلة من الجيران فسألتني عنها

بنصف نظرة تنهي أي رغبة أو أمل عندها في تكملة الحديث:

ـ جت سليمة

في الشقة, جلستُ بجانب جميلة أتابع عينيها السوداويين الغائمتين, أتأمل لون بشرتها المماثل للون بشرتي, فكها السفلي البارز الذي أورثته لها هي وأختها, حركات يداها السريعة التي لازمتني في الصغر, حرف الراء الذي تتعثر فيه كما كنت أتعثر في طفولتي.

ـ ماما راحت فين؟ أنا جعانة

ـ تاكلي جبنه؟

ـ عايزة بطاطس خلي ماما تعملي

ـ زمنها جايه.. تاكلي فول طيب

ـ لأ بطاطس

لم تتأخر؛ دخلت حنان تصيح بكلام يبدو أنها تدربت عليه في طريقها:

ـ أنا عارفه إنك زعلان والله أنا ما جصرتش هي فتحت باب الشجة من غير ما تجولي.

لم أرد عليها, فانحنتْ تطمئن على جميلة, وقفتُ, ورفعتُ تليفون نادر للأعلى والذي يبدو أنه استكان لصدمة جعلته ينغلق, كنت أفكر فيما سأفعل أكثر من ردت فعلها, واندهشتُ للفرحة التي سكنت عيناها بغتة وهي تتساءل:

ـ ده ليا ؟!

أومأت رأسي لها أن نعم فمدت يدها لتلتقطه, فأبعدته عنها:

ـ لما البت تخف.. جعانه اعمللها بطاطس..هاتي تيلفونك.

أعطتني أياه غير واجله من شيء فانتزعته ودسسته في جيبي:

ـ في فلوس في الدولاب .. أنا مسافر .. اشتري أي حاجة البنات يحتجوها وهاتي كبدة لجميلة.

ـ مالك يا خويا فيه أيه ومسافر فين؟

وكأنها لم تقل شيئًا:

ـ ما تخرجيش من البيت لحاجة تانية, لو البنات حصلهم حاجة هحرجك.

رعشة ألمت بها مما قولت, وكأنها إنسان يستفيق من النوم على وحش أمامه, وتهدجت أنفاسها وابتلعت ريقها وهزت رأسها موافقة:

ـ اللي تشوفه يا خويا

قبلتُ جميلة التي نعست والصغيرة أحلام, وانسحبتُ, مقررًا أن أتجه بسيارتي المركونة أسفل البناية إلى محطة البنزين لتعبئة خزانها والسفر.

*****

تحاشيتُ النظر في عيونهم حتى ركبت سيارتي وتحركتُ, يكفي ما في داخلي من خزيٍ فهؤلاء الجيران والمارة يعرفون الحقيقة يعرفون أني مغفل, مغفل بكل هذا الجسد, مغفل وأحمق وأبله أيضًا, مغفل لا حيلة ولا قوة ولا خوف منه, بالتأكيد جميعهم قالوها ورددوها كثيرًا لأنها الحقيقة, ماذا لو أدخلتُ نفسي في شجرة كل شيء سينتهي, سأموت وربما أفقد الذاكرة, وأكون كما لم أولد وقتها, سأنسى, فقدان الذاكرة لماذا يطلقون عليه مرض؟! وحتى وإن كان كذلك بالنسبة للأطباء والمعالجين فعلى خلاف هذا هو الراحة بعينها للمريض, ولمن هم مثليّ فقدان الذاكرة أفضل من أن أكمل حياتي وأنا مغفل.

لأول مرة أعرف أن الندم كالحزن بإمكانه أن يُبكي البشر, ويجعل أوردتهم على وشك الانفجار في رؤوسهم, لماذا لم أقتله وقتما كان تحت يدي؟! ولماذا أرجعني منظر جميلة عن قتلها؟! أسرعتُ فجرت الأمتار من تحت عجلات سيارتي, أسرعت أكثر فطارت السيارة, ابتعد عن مأساتي أكثر, وأقترب من خالتي أكثر.

مررتُ بدار "النور" للأيتام سألت الأستاذ صادق ذات يوم وأنا أمر بجواره وأتهجى بصعوبة حروفه المكتوبة بالأبيض على يافطة سوداء باهته عنه قال أنه المكان الذي يعيش فيه من ليس له أب أو أم, لثوانٍ صمتُ:

- اللي زيي؟

من الغضب عبس وبان له عرق أعلى جبهته, قبل أن يحتد وكأنه ينفي عني اتهام يُشين صاحبه:

- أنت ابن سيد نمر صديقي وأخويا.. وأحسن راجل في الدنيا, أنت لديك عائلة وفلوس وشقة وأنا جنبك.. أنت غيرهم .. أنت أحسن.

كلماته الحاسمة أشعرتني بالفخر وطمأنتني, وعدت كلما أمر بجوار الدار وأرى رءوسهم اليانعة المتطلعة لرؤية الشارع من خلف أسلاك نوافذ الدار, يتردد صوته كرنين العملة المعدنية في أذني وأتذكر أني أفضل منهم, تهب نسمه من الرياح ما ألبث أن أشعر بها, واشتمها فيتبين أنها رياح العظمة, تجعل عيناي تلمع بالفخر كأمير صغير تجري في عروقه دماء الملكية, أشعر أن الخارجين من هذا الدار يحدقون ويلقون نظرات عليّ كالتي يلقيها الناس على محارب وقف على شفير النصر بعدما دنجل الآلاف في حربه الأخير, ومع الأيام تطور هذا الإحساس ورحت أتشارك مع الناس كلمات التعاطف والأسى وأهز رأسي مؤكدًا, كلما أسمع المارين بالدار يلقون كلمات التعاطف على أطفال الدار؛ (غلابة), (مساكين), عشت سنوات طفولتي ومراهقتي أتوهم إني أحسن منهم حتى عرفت إنهم هم الأفضل!

أسأل نفسي الآن, ماذا يعرف هؤلاء المارة والمتكلمون والبشر جميعًا عن اليُتم؟!

ماذا يعرفون عن أم ماتت بعد خمسة أشهر من ولادتي, ماذا يعرفون عن أب كان يعمل سائقًا عند عضو مجلس الشعب, سافر إلى العراق ليُحسن من معيشته, عندما أقنعته زوجته الجديدة أن المستقبل هنالك وليس هنا, وأمرته ألا يصطحبني معهما وأنا الطفل الذي لم يبلغ إلا الرابعة, نفذ أبي الأمر ربما لأني شيء لا يخص زوجته لكن الأكيد لأني شيئًا من الماضي!

أخذني عند خالتي في قرية (الكاجوج) بمدينة (كوم أمبو) بلد أمي, وقتها تشنجتُ, بكيتُ, صرختُ, ناديته حتى لا يتركني, لكنه لم يبالِ واعدًا أياي بالعودة واصطحابي حينما يشتد عودي وأصير أكبر.

مع خالتي الشابة الأرملة لست سنوات حييت, في بيت متسع من دور واحد وحديقة أمامية وحوش خلفي ورثته عن زوجها عشت, في كنفها, ترعاني تبتسم حين أتقافز من حولها وتتبع ابتسامتها بضحكه لها نهاية مميزة, من يسمعها لا يملك إلا أن يضحك مثلها, عوضتني خالتي عن أمي التي لم أعرفها إلا فيما تبقى من صور, وكان

حلب ثلاث بقرات يعيشون في الحوش الخلفي وإخراج ما في ضرعهم من لبن, عمل خالتي الذي تسترزق منه ونعيش منه وعلمتني إياه, حيث ينعطف أهل القرية ناحيتنا, يطرقون على البوابة الخشبية ذات اللون الأزرق الفاتح والتي كانت تترك مردودة دائمًا, قاصدين شراء حليبنا, هذا إلى جانب ظرف أبي الذي كان يرسله كل ثلاثة أشهر مع أحد زملائه العائدين من العراق.

في بيت خالتي عشت سعيدًا بل كنت في أوج سعادتي ولم أكن أتخيل أني كمن يعيش في حلم جميل, لن يلبث الكثير حتى تتبحتر معالمه وتضيع شخصياته, هذا حدث حينما دخل عبد العال البيت, عَبر البوابة الخشبية مبتسمًا متوددًا, يُسلم ويقبل, وينفحني خمسة جنيهات, فأستشعر معها أن الأمر ليس ودًا أو كرمًا وليس له علاقة بشراء الحليب, بل إنه جاء من أجل غرض أخر, عبد العال مثَّل في حياتي الحالة الصلبة لعطر رخيص يُنعش الأنفاس في البداية قبل أن يتسبب بداء السرطان في النهاية, خرج من البيت, لتبلغني خالتي أنه جاء لعرض الزواج عليها, في البداية صعقتني بكلامها؛ بأنه لا وجود لفرص غيره, بعدما أورثها قطارها الذي لحقت لقب أرملة شابة, تملكتني الغيرة على آخِر من بقى يرعاني في هذه الدنيا, بكيتُ ليلًا وتجهمتُ صباحًا, غضبتُ ورفضتُ وابتعدتُ حتى أذعنتُ, ولسنة عشت راضيًا أو هكذا توهمت.

حتى انقطع ود زوج الخالة المصطنع, انقطع ودّ عبد العال مع انقطاع ظرف أبي الذي بدوره توقف, ولم يأتِ مع أحد العائدين من العراق, بل جاء بدل منه خبر أبي الذي قُضي في أحداث الجمعة الحزينة يوم الثامن عشر من نوفمبر لعام ألفٍ وتسعمائة وتسع وثمانين ميلاديًا, لم أشعر أن هناك رغبة تعتريني لبكائه, فلم أفعل ولم يمهلني عبد العال فرصة لاستجمع الذكريات؛ باغتني وخالتي سريعًا, فالرجل الذي دخل البيت متوددا متجملًا تحولت تصرفاته ودلت أن لديه قلبٌ فظٌ يُبكي الأخَرين, ويكيد لهم, قلبًا صلبًا كحافر الثور؛ عبد العال وقف عاري الصدر في منتصف الحوش الذي أفرغه من البهائم يزعق بصوتٍ أجش, ويُخير خالتي إما هو وابنيه أو أنا:

ـ أنا مش هربي بغل ما يخصنيش.

قال هذه الكلمات وكنت أنا المقصود بهذه الكلمة.. أنا البغل!

استغل أني في عمر الحادية عشر, كنت مقارب له في الطول وهو الرجل الطويل وقالها.

انتحت بي خالتي, وراحت تحتضني باكية أن هذا سيحدث على عينيها, لكنها لن تستطع أن ترفض, بعدما باع عبد العال البهائم وأصبح هو مصدر رزقها الوحيد هي وزين طفلها الذي أنجبت, وطفلها الأخر الذي لا يزال يتكون في أحشائها, على الدوام كلماتها في أذني أتذكرها لتعرفني من أنا في هذه الحياة:

ـ يا حبة عيني ما تخفش من حاجة الفلوس اللي كان بيبعتها المرحوم أبوك شيلتهالك في الدفتر ما خدتش منها مليم واحد, الدفتر فيه عشرين ألف هيمسكهملك الأستاذ صادج وهو راجل طيب وبيحبك.. هيصرف منهم عليك لحد ما تكبر وتشتغل, عرفه يا حبيبي أنت بجيت راجل جبل الآوان عمك صادج عنده بت.. دي أختك, ومش هي بس أي بنت زميلتك ولا جيرانك تعتبرها أختك على طول, أوعى يا ضنايا تتشاكل مع حد أو تضرب حد, أيدك تجيله يا عرفه ممكن يموت في أيدك يا حبيبي, ولو حد ضايجك جوله ربنا يسامحك.. سامح يا نضري عشان ربنا يسامحك ويوسع عليك من رزقه وصلي وصوم.. وأوعاك ما تروحِش الامتحانات أبوك كان بيحبك.. وفايتلك شجة في سوان.. ما تزعلش منه وأدعيله.. هكلمك على طول, وأحفض أنت رقمي لو رِدت أي حاجة كلمني هتلاجيني جتلك في نفس اليوم.

أغادر مع الأستاذ صادق بجملة واحدة على لساني: أنا بكره عبد العال

عُدت إلى مدينة أسوان بلد أبي التي تبتعد ساعة بالسيارة عن كوم أمبو, والمدينة التي عاش بها قبل أن يتركها ويتركني لرزقٍ جديد واعدًا أياي بوعدٍ لم يفِ ولن يفِ به.

الأستاذ صادق ما كدتُ أألف بيته, وأشعر فيه أني امتلك عائلة بها أب وأخت, حتى راحت زوجته التي لم أشعر لحظة أنها أم, تُطلق صفَّارات الإنذار التي صدحت من خلف باب غرفة نومهما:

- وديه عند حد غيري ولا أرميه في الملجأ.. الواد المعوق ده خطر يجعد معايا أنا والبت ولا أنت أيه حكايتك؟! مش راجل؟!

قالت هذه الكلمات وكنت أنا المقصود بهذه الكلمة.. أنا المعوق!

في البداية تمنع الأستاذ صادق عن الانصياع لكلامها, ربما لأنه يعرف أنه ينبثق من كرهٍ بلا دافع لا ينفك من احتلال قسمات وجهها كلما تعاملت معي, فراحت تُزيد في كيدها وتُبلغ زوجها أني أتلصص عليها في الحمام, هذه المرة انزاح تمنع الأستاذ صادق, فانزحتُ أنا من البيت, الذي توهمت لأيام أنه يخصنيّ, استأجر الأستاذ صادق شقة قريبة صغيرة يفصلها عن بيته شارعين وهي أقرب من شقة أبي التي تركها ورحل, وتأمينًا من موته مأساوية نزع عنها أسطوانة البوتاجاز, وغلف مقابس الكهرباء فيها بشرائط لاصقة, بعدها أبلغني أنه سيأتي كل يوم ويجلب معه الطعام, وأوصاني إن شعرت بجوع أن أشتري من مطعم الفول والطعمية الذي يستقر في نهاية الشارع, وبعد ثلاثة أيام توسط لأعمل في قهوة بلدي قريبة, فأصبحتُ أعمل بها وأذهب للشقة على النوم ليلًا..

يُعطيني صاحب القهوة أجرًا ضئيلًا, وأحيانًا بدل منه طعام, ومرات يمتنع حتى يتدخل الأستاذ صادق, الذي قلت زياراته حتى باتت شهرية, لكن ما كان حريص عليه حقًا, هو أن يأتيني في أيام الامتحانات ويصطحبني إلى اللجنة, يتلجلج صوته من التأثر وتنفجر دموعه في لحظة واحدة, ولا يكون الأستاذ صادق الذي أعرفه بل يتحول بين الغفوة والأخرى, ليحيى الفخراني حياتي؛ يبكي ويتباكى للمدرسين على حالي وكيف مات أبي في العراق وأمي قبله من المرض, وإني طفل أعيش بمفردي ولا أجيد من القراءة والكتابة إلا ما يميزني عن الجاهل, ويطلب منهم أن يساعدوني, فترق بعد مشهده التمثيلي العظيم قلوب المعلمين, ويكتبوا بدلًا مني في الورقات الامتحانية, بغية أن ينالوا ثواب اليتيم, فأنجح في سنتي الدراسية وأنتقل إلى التالية, أما خالتي كانت تستغل سفر عبد العال الذي يمنعها من زيارتي وتأتي لتطمئن عليّ وتكرر وصاياها (صلي.. اعتبر البنات زي أخواتك .. ما تتخنجش مع حد) وتختتم كلامها بدعوة:

- ربنا يكفيك شر المستخبي يا نضري.

كبرتُ وعرفتُ الطريق وأخذتُ أذهب في زيارات سريعة إلى بيتها, لكن القرية لم تكن ممتلئة برائحة زراعات القصب والمواشي كما عهدتها فقط, بل صاحبتهما رائحة الكره؛ التي زرعها عبد العال في زين وحمادة ولديه اللذين طالما شككت أنهما نضجا في بطن طيبة كبطن خالتي, ووسط الثلاثة كانت خالتي متحيرة بشخصية ضعيفة بينهم, فلم أعد أتحمل أن أضعها في ضغط أو أضعني, فهجرتْ الزيارة واكتفيتُ بتليفون أسبوعي أتصل بها فتوصيني دائمًا بنفس الأشياء الروتينية التي لم أملْ يومًا من سماعها, وتختتم كلامها بدعوتها المميزة, ليلًا كنت لا أنام قبل أن أمسك بعصا غليظة في يدي, أدخل بيت خالتي و أضرب عبد العال وزين وحمادة وأُكسر عظامهم وأعود وأعيش مع خالتي في البيت الفسيح, أهدأ وأنا أتذكر عيون داليا ابنة الأستاذ صادق الخجولة, التي كنت أحاول قدر المستطاع أن أتحاشى النظر إليها, حيث كنا أنا وهي نشعر بالخجل وثقل اللسان عندما تلتقي أعيننا, أنام فأقوم مفزوع على صورة أبي الذي أتخيله بوضعه الأخير وهو مخضب بدمائه.

أنهيت دبلوم تجارتي بسنواته الثلاث, وسنتان غيرهما قضيتهما في الخدمة العسكرية هنالك في وحدة بعيدة عن مسقط رأسي في محافظة الشرقية, هناك كان الأمر مختلف حيث لا يوجد من يمصمص شفتاه ويطلق عليّ لقب يتيم, ولا يوجد بنات لا ينظرون تجاهي, وإن كان زملائي يتصلون بآبائهم وأمهاتهم فأنا أكلم خالتي, في الأجازات كان زملائي يسافرون لبلادهم, فيما أجلس أنا في الوحدة وأفكر في أمرين سيارة حديثة, أقودها كما كان أبي يفعل وداليا.

بمجرد أن أنهيتُ الخدمة العسكرية, ذهبتُ مع الأستاذ صادق إلى عضو مجلس الشعب السابق الذي عمل عنده أبي وهو من بعده, طلب منه مترجيًا وظيفة كالتي أتى بها لابن أخيه نادر مذ شهور, لم يبد على أسامه بيه

الاهتمام بالأمر, وعندما شعر الأستاذ صادق بذلك, استدعى شخصية الممثل القدير التي يُتقنها وهرول إليه وقبل يده:

ـ سيادتك أنت الملاذ الوحيد لنا في هذه الدنيا, نرجوك لا تخيب طلبنا.

تأثر عضو مجلس الشعب ووعد فأوفى, وبعد خمسين يوم جاءت التأشيرة وتم تعييني بمديرية الصحة بأسوان في قسم المخازن, أخيرًا بات لدي عملًا يحكمه قوانين, عملًا لا يحكمه مزاج صاحبه, عملًا بلا إهانه, وبت رجلًا لا يُخشى عليه من إصلاح الكهرباء وفتح البوتاجاز, وتسخين الغذاء, وتبديل أنبوب الغاز, اختفت كلمة يتيم من حياتي وحلت مكانها عبارة (طيب وغلبان رغم شكله).

انتقلتُ لأعيش في شقة أبي, بدأت أشعر بالاستقرار فطلبتُ من الأستاذ صادق ابنته داليا زوجة, رد بعد ديباجة روتينيه سمعتها في الأفلام كثيرًا:

ـ صدقني هي لا تعز عليك يا بني لكنها محجوزة لابن عمها نادر..

مع مستوى مادي ضعيف, وشكل غير مقبول للكثيرات كان بحثي عن عروسة مناسبة كبحث غواص عن سمكة صغيرة في بحر كبير هائج, لكني تبعتُ الأستاذ صادق وأحيانًا خالتي ودخلت بيوت كثيرة, لكني كنت أرى في عيونهن الخوف وأحيانًا الاشمئزاز, خفن من ضخامتي ورفضن من دمامتي حتى كانت نهاية الرحلة عند فتاة وافقت في البداية ثم اعتذرت, لأن قريبتها حذرتها ضاحكة من ضحك الناس عليها, وهي بجواري في الشارع, غضبتُ ليلتها وصرخت بوجهها:

ـ أنا هاخد اللي أحسن منك 100 مرة.

عدتُ إلى البيت أتعجب حالي وأنا رجل بطول المائة وتسعين سنتيمترًا وأبكي كالأطفال, أغلقتُ صفحة الزواج وكرست حياتي لشراء سيارة حديثة, ضحك زملائي في العمل عندما أخبرتهم إني أريدها حديثة غالية, بدأت بجمع وادخار مرتبي الزهيد من مديرية الصحة, وعدتُ لعمليّ ليلًا في القهوة, وعملتُ في "بازار" يوم الجمعة ومع الثلاث أشغال تعلمتُ صناعة ميداليات "الاركت"؛ كنت اقتطع ما يزيد عن نصف مدة نومي يوميًا لأشكل من الخشب ميداليات لها شكل حروف اللغة الانجليزية, خمسة سنوات حتى اشتريتها حديثة كما تمنيتُ, صُنعت في سنة شرائي لها (بيجو 405 - 2005 زرقاء) فاتخذتُ منها رفيقةً وصاحبةً وولدًا, مثلت عالمي الجديد وحياتي كلها, كنت أركبها, أقطع بها الشوارع والمسافات طائرًا, أسافر كل يوم إلى كوم أمبو استنشق رائحة الزروع والبهائم, وأعود قبل أن تتسلل إلى أنفي رائحة الكره, وما يزيد عندي من فلوس أضعه في تنظيفها وتجديد "اكسسواراتها", وتسديد مخالفات السرعة التي أرتكبها بسببها, إحساس مجنون سيطر على مشاعري؛ إنها تحبني ولا تخاف مني ولن ترفضني ولو حدث ونطقت ستشكرني على ما أفعله من أجلها.

بعد شراء السيارة تركتُ عمل القهوة و"الاركت" و"البازار" واكتفيت بعمل الحكومة, صباحًا, وليلًا كنت أقضي وقتي مع أصدقاء القهوة, القهوة التي رقيت نفسي بداخلها من قهوجي إلى زبون.

حتى أتت.. فتاة جديدة للعمل اسمها حنان أعجبتني, هي الوحيدة الغير مرتبطة من بين من تم تعيينهن حديثًا, عندما أخبرني الأستاذ صادق بنيته في أن يفاتحها؛ لأنه يرى اهتمامي بها رفضتُ, أخاف ألا أعجبها كالعادة, فلم يعد يتبقى من ثقتي في نفسي شيئًا, خاصة أنني لم أشعر منها بأي شيء أو مبادرة تجاهي, ابتعدتُ ولم أتقرب, وبالطبع هي لم تقترب, يُغلق موضوعها قبل أن يُفتح, يمر عام أجدها تصنع الشطائر وتعطيني إياها!

حتى حدث وتزوجتها.. زواجي منها لم يكن مجرد زواج بين اثنين, حنان عرفتني على الجانب المفقود في حياتي, الجانب الذي لم أذق منه إلا سنوات معدودات في صغري عشتها مع خالتي ولم أعد أتذكر معظمها, الجانب الذي يتلخص في أن يكون بين جدران البيت سيدة, تبهج عليه لمسة من جمال لا تدركه الحواس الخمسة للرجال, الجانب الذي يجعل معدتك تقتنع أن الطعام في أصله ساخن, وعيناك أن مستحضرات التجميل لها مكان أخر غير أرفف الصيدليات, وعقلك أن هنالك شيء اسمه نظافة دورية للبيت.

أخذتني حنان من يدي إلى هذه الحياة وحينما بدأت أعتاد على هذه الأمور, حدث شيء أخر, كان قد ترسخ لدي أنه يحدث لجميع الرجال إلا أنا, وجدتني أب وأمسيتُ بسبب بنتيها أسمع (بابا) كثيرًا, سألتها وكررت عليها مئات المرات في لحظات صفائنا, حتى أسمع إجابتها الناعمة كجسدها, وكأني طفل لا يمل من المديح؛ عن مقدار دمامتي التي نفرت مني الكثيرات, أعادت إجابتها مئات المرات ضاحكة بأنهم لم يتعرفوا على قلبي الأبيض, ولأنها محظوظة بزواجي.

الآن أشعر بمعنى دعوة خالتي التي لا تنفك عن الدعاء لي بها : ربنا يكفيك شر المستخبي.

(المستخبي) عشت سنوات طفولتي ومراهقتي أتوهم أني أحسن من أطفال دار الأيتام, وأتشارك مع الناس كلمات التعاطف والأسى التي يلقونها عليهم وأهز رأسي مؤكدًا كلامهم.. حتى عرفت أنهم الأفضل!

فأسفل سقف دارهم, هم جميعًا بنفس الظروف وعلى قلب رجلٌ واحد, بينهم ووسطهم هم ليسوا أيتام ولا يسمعوا هذه الكلمة, أنا لست بمحارب, وما أنا بأمير وما كنت اشتمه لم تكن رياح العزة ولا الفخر بل كانت رياح الوهم. أنا مثل الجميع في عالم الأيتام الكبير, لم أأخذ فرصة لاكتشف أن الأم تُحب أكثر من الأب, أما في عالمي الصغير أنا البغل, أنا المعوق, أنا اليتيم, أنا الذميم, أنا الدميم, أنا عرفه الذي تنفر مني النساء, ويبغضني من يراني.

*****

منذ سنتين لم تطأ أقدامي بيت خالتي, الآن أنا عندها, مررتُ من البوابة الخشبية التي لم يعد لها لون, خمسة أطفال يلعبون في الحديقة الأمامية تحت النخلة التي باتت باسقة يرتدون الجلاليب, أكبرهم بعمر عشر سنوات من حولهم انتشرت الأغنام, وعاد خوار البقرات يدوي في الحوش الخلفي كما كان الوضع قبل مجيء عبد العال, فهكذا يقتات زين وحمادة ولدا خالتي, توقف صخب الصغار وبادرني أكبرهم:

ـ عايز مين؟

ـ إنت مؤمن واد زين؟

ـ أيوه

ـ أنا عمك عرفه

قطع حديثنا قصير الأمد زين بذات نفسه يدخل خلفي من البوابة الخشبية:

ـ عرفه .. فينك يا راجل .. لما شوفت عربيتك مصدجتش!!

تقدم إليّ بود صادق ليس به اصطناع كما كان يفعل أبيه, سلم وعانقني:

ـ تعالوا سلموا على عمكم عرفه, وخشوا ما تجعدوش هنا شمس.

تبادلتُ السلامات مع الصغار, وأدخلني زين إلى البيت ممسكًا بيدي وكأنه يُنهي صفحة توتر الماضي ولو على الأقل معه, جلسنا, أسئلة روتينية لا فكاك منها وأجوبه من نوعيتها لا خلاص بدونها.. حتى سمعته يعاتبني:

ـ حتى خالتك زعلانه منك عشان ما بتتصلش كتير؟

ـ هي فين؟

ـ في واجب.. على الصبح الحاجة أم دياب تعيش أنت.. وأنت عارف خالتك بدجج كأنها من جرايب المرحومة.. بعد العشا هوصل هناك أجبها.

ـ سلملي عليها.. أنا هبجى أجيلها تاني الصُبح.

ـ وده يُصح؟! .. والله عيب عليك.. ما ينفعش.. عبال ما تاكلك لجمتين معانا وتستريح.. تكون جت.. كمان الحاج وجع وما بجاش يتكلم ولا يتحرك ونفسيته زفت.. تعال سلم ..ده كان بيسأل عليك على طول.

قام زين من مقعدة وأدخلني ورائه!

متى أصبح عبد العال حاج؟ ومتى أردتُ أن أراه؟!

غرفته عطنه وجزيئات البول العالقة في الجو لم يشفع معها فتح الشباك, أما هو فكان مسطحًا على سريره يرنو إلى شيء ما في السقف, عاجزًا لا يتحرك ضامرًا في سريره كمنديل مستعمل, يحرك عينية ويديه بارتعاش, والقسطرة البلاستيكية مُعلقة بين فخذيه اللذين اقتربا على التلاشي, عندما رآني فتح عينيه المنخفستين على اتساعهما, حدق, وأشار بيد ترتجف أن أقترب تحاشيت النظر إلى عينيه, لا أعرف أأنظر إليه بعين الشامت أم بعين المسامح؟ كم كنت أتمنى أن يموت أو يتبخر لولاه لكنت نبت هنا مع خالتي كنخلة الحديقة.

اقتربتُ, فمد يده التي لم تعد قوية وربت على وجهي, شعرت بأنامله ساخنة, واهنة, متأسفة وكأنه هو الأخر كابنه الكبير يُنهي صفحة توتر الماضي, حاولتُ أن ابتعد فتشبث بقميصي البيج, وأشار بيده كأنه يُطعم نفسه قاصدًا أن أتناول الغداء معهما.

أستعزمني اليوم يا عبد العال من خيرك بعدما طردتني منه؟!

ـ هياكل طبعًا يا حاج.. وجاعد ويانا أسبوع كمان.. إحنا ما صدجنا شوفناه.

كانت هذه من زين.

وضعتُ يد عبد العال بلطف بين يداي, ونظرت في عينيه, نظره لا تتمنى أو تقول, خالية من كل شيء, وربتُ علي كفه: سلامتك يا حاج.

لحق مقابلة عبد العال تحية اضطرارية فاترة من حمادة, ومفاوضات طويلة مع زين انتهت بتأجيل واجب الغداء ـ مؤقتًا ـ حتى تعود خالتي, فتح زين غرفة خالتي وهو الطلب الذي لم أطلبه ولم أتمناه لكنه كان أسعد شيء حدث من سنتين, رائحتها تعبق الأجواء, ضحكتها أيضًا كانت حاضره, على الجدار معلقه, في صورة لها وهي في مرحلة شبابها تحت برواز زجاجي إطاره فضي, رفعته من الحائط ومسكته بيدي, ومسحت سفيف التراب العالق على وجهته, فتجلت ضحكتها أكثر, قبل أن أعيد تعليقه, ثم تمددتُ على سريرها الذي طقطق قبل أن أضع ساقاي على مسنده, ركزتُ في بقعة الشمس المنعكسة على الجدار المقابل للنافذة, هذه البقعة التي مصدرها شعاع شمس ينفذ من فجوة صغيرة صنعها الزمن في منتصف النافذة الخشبية, بقعة الشمس المنيرة هذه تمثلني تمامًا.. فلو قام أحدهم وأغلق الفجوة بورقة صغيرة أو وضع يده في طريق الشعاع ستخبو بقعة الضوء وتختفي, كحياتي التي خبأت وانطفأت, بسبب فيديو مدته أقل من عشرة دقائق وضعه نادر أمام عيناي.

قلبتُ بدقة في تليفون نادر, لم أعثر فيه على رسائل أو أشياء تخص حنان, اتصلت على تليفون حنان من رقم نادر, وعكست فعلتي فلم تظهر أسماء مسجلة لهما, ما ظهر هو أرقام مجردة, ولم يكن أي منهما في سجل مكالمات الأخر, أقدمتُ على الخطوة الأخيرة الثقيلة التي أجلتها عمدًا, ربما يتضح منها أن نادر أراد فقط أن يعبث بأعصابي ويتنمر, وربما أجد في الفيديو واحدة أخرى كل علاقتها بحنان أنها تتشابه معها في الشكل, شغلته في مشهد البداية, كانت هي حاضرة, زوجتي وليست أخرى, تدخل الشقة بعباءة لها أزرار خضراء كانت تواظب على ارتدائها وقتما تم تعينها فيما استغنت عنها فيما بعد, لم أتحمل غنجها وتعبيرات وجهها معه التي أحفظها منها, مسحت الفيديو قبل أن يُكمل ثانيته الثلاثين.

*****

الأستاذ صادق

هل انتهى حسابي بذنب عرفه في الدنيا أم مازال له ما له, هل انتهى أم يؤجله الله ليومٍ تخشع فيه الأبصار, قبلما يُسافر وعدني إنه لن يتركني هنا وبمجرد أن تستقر أحواله سيرسل ويُحضرني معه إلى العراق, رفيقي في المدرسة الفنية وصديقي الوحيد قبل سفره أوصاني على ابنه وقال أن خالته, ربما تتزوج ووقتها لن يقبل زوجها الجديد أن يعيش معهما عرفه, وكأنه كان يرى ما سيحدث!

وعاد كل ثلاثة أشهر يُرسل مع أحد العائدين ظرف به مبلغ غير ثابت لابنه عرفه وأحيانًا خطاب, طالبًا مني أن أعطيهما لخالته, لم يُرسل صديقي سيد دعوة العمل كما وعدني لا أعرف لماذا؟ ولكني أعرف أنني وجدتُ في الظرف الثالث ستمائة جنية, وأنا أحتاج إلى المال وهو في يدي, فأخذتُ منه ثلاثمائة, مقررًا أنني سأعيدهم حين تتحسن أحوالي, ولأن سيد لم يكن يُجيد الكتابة ولا يُعرف له خط مميز, سهل هذا الأمر على شيطاني أن أبدل الخطاب المرفق بأخر مستبدلًا قيمة المبلغ المذكورة فيه بقيمة أقل.

لم أعيد النقود كما كنت أنتوي, ما أعدته هو تكرار فعلتي مع المبلغ الرابع والخامس والسادس حتى بات ما أخذته عصيًا على الرد حقًا, فكنت أقف أمام المرآة يوميًا, أحضر الكلام الذي سأقوله لسيد عندما يعرف حقيقتي وأبدل فيه وأغير مثلما يذهب تفكيري:

ـ سيد أنا اقتسم من مالك لابنك, لأن بيتي يحتاج أنا أعرف كيف تراني وتظنني الآن وبما ستتهمني لكن صدقني الأمر ليس كما تعتقد تمامًا, أنا كنت احتاج إلى هذا المال وأعرف أنك لو كنت معي كنت أعطيتني إياه بنفسك ـ سيد أنا ارتكبتُ خطأ كبير, سامحني, لكن لا تخف هذه الأموال التي اقتطعتها من حق ابنك, دين في رقبتي يا أخي سأسدها لك حين يفرجها الله ـ سيد أنا أأخذ من فلوس ابنك, جزء صغير وتستطيع اعتباره مكافأة عن مشواري كل ثلاثة شهور لكوم أمبو, وأنت الذي دفعتني لذلك عندما بخلت عليّ بالنعيم مثلك في خيرات العراق ـ سيد أنا أدخر هذه الأموال لابنك عندما يكبر فهو ابني في النهاية, مثلما ابنتي هي ابنتك وما أرضاه عليها أرضاه عليه, فدعني أربيه كما أشاء.

لم أقل أيًا من هذه الجمل التي حضرتُ وهندمتُ؛ فقد مات سيد في غربته, مات ليحرمني من فضيلة الاعتراف بذنبي أمامه, مات صديق عمري الذي رشحني من بعده للعمل كسائق عند أسامه بيه دهب, عضو مجلس الشعب ليلًا لأزيد من دخلي, إلى جانب عملي في مديرية الصحة صباحًا, مات صاحبي وصاحب الأفضال عليّ, مات من وثق في شخصي واعتبرني أخوه, ومع كل هذا عندما سمعت الخبر إحساس آثم بالفرحة تملكني إحساس من ينال البراءة في قضية جزاءها الإعدام, شعرتُ أني تخلصتُ من الذنب, وإن كل شيء قد انتهى, لكن سرعان ما بدأت المتاعب, مع اتصال خالة عرفه, حيث أبلغتني أن زوجها عبد العال يرفضه, ولم يكن أمامي غير الرضوخ للأمر, فعرفه في النهاية ابن صديقي ولن أسامح نفسي لو تربى في ملجأ, خاصة بعدما اقتطعتُ من ماله ما يصل إلى النصف, لكن ربما في نهاية المكالمة اتضحت حقيقة نفسي أمام نفسي فلازلتُ أتذكر هذه الابتسامة القذرة, التي تشبه ابتسامات الغواني والتي طفت على وجهي ولازمتني طوال اليوم بمجرد معرفتي إنها تدخر لابن أختها كل مليم أرسله أبوه, وإنها لم تصرف قرشًا واحدًا من هذه الأموال, وهي تقنعني بأن معيشة عرفه عندي مهما كانت الظروف, ستكون أفضل من عندها لأنها تخاف إن قالت لزوجها على هذه المدخرات يسطو عليها كما فعل مع بهائمها.

ضحكتُ بعدما أغلقتُ الخط.. فإن كانت هذه السيدة لا تستأمن زوجها ماذا لو عرفت حقيقتي القذرة؟!

وقتها توقعت أن زوجتي ستعترض كثيرًا على هذا الوضع, فعرفه لم يكن طفلًا عاديًا مثل الأطفال الذين في سنه ومثل نادر ابن أخي, بل كان ضخمًا بحق؛ طويلًا وعريضًا ذا بشرة أبنوسية وعيب خلقي ورثه من أبيه جعل فكه السفلي يبرز عن العلوي, إلى جانب ملامح لا تجعل منه طفلًا يسر الناظرين, لكني عندما أخبرتها أنه يمتلك عشرين ألف جنية وافقت وإن كان على مضض.

أما أنا فجأة وجدتني أمتلك عشرين ألف جنية, وتوكيل يسمح أن أفعل ما أشاء بهم, بدون رقيب, إلى جانب شقة في منطقة "الشيخ هارون" القريبة يُمكن تأجيرها, أبلغني المحامي بتنازل زوجة سيد الرسمي عن نصيبها فيها لعرفه بناءً على اتفاقها مع المرحوم أبوه, في أيام عرفه الأولى في بيتي سحبتُ أول ألف جنية, واشتريت تلفازًا ملونًا ولأريح ضميري وضعت هذا التلفاز في الغرفة التي ينام بها عرفه.

بعد هذا اليوم بأربعة أيام فقط, قهرني عرفه للمرة الأولى, حيث شعرتُ في عشائي أني جوعان, وأن طبق الفاصوليا الذي أمامي لم يشبعني فطلبت كماله لكن زوجتي قالت إنها نفدت فقمت متبرمًا, لاحظ عرفه هذا, وفي اليوم التالي عدتُ متأخرًا, بعدما عزمت أصدقائي على مشروبات مما تبقى من ألف جنية عرفه, ووقفت أمام باب الشقة لأمد يدي لأسحب من جيب البنطال الغويط الذي ابتعته مؤخرًا, مفتاح الباب, فسقطت منه خمسين جنيه ـ آخر خمسين جنيه تبقت ـ بدون شعور مني وعندما فتحت الباب وجدته جالس ينتظرني سألته عما به, فهب كمارد يمد يده بنصف طعامه قبل أن ينتبه للخمسين جنية وينحني ويمسكها من الأرض, ويسلمها إليّ, إذًن في الوقت الذي أسرقه أنا, وألبس من أمواله يدخر هو طعامه من أجلي, وبيده يعطيني فلوسه التي تسقط مني.

يومها قُهرت وأقسمت على المصحف أني سأعتبره مثل داليا ابنتي بالضبط, ولن اقرب أمواله إلا فيما يخص مصاريف تعليمه, وهو الشيء الذي على الدوام توصيني به خالته.

زوجتي لم يعجبها هذا, وأخذت تُقنعني ضاغطة إما أن أتخلى عنه أو أصرف من ماله, لم أمِل إلى كلامها أو استجب, فراحت تلوي ذراعي فتارة تعامله بفظاظة وتهينه, وتارة تتهمه بسوء الأدب وقلته معها أو مع داليا, ثم ذهبت تُحاصرني من زاوية جديدة أن ابنتنا عندما تكبر هل سيتزوجها أحد إن علم بأن شابًا في الشقة عاش معنا ؟!

فرضختُ واستأجرت له من فلوسه شقة قريبة, مكانها أقرب من شقة والده حتى استطيع زيارته كل يوم.

وحتى أشغله عن التفكير والبكاء وأبعده عن وحدته, أخذته ليعمل في قهوة قريبة من الشقة, وكنت أتابع مستقبله التعليمي فأذهب كل سنة وادفع له المصاريف, أتأكد أنه مقيد في المدرسة في أول السنة, ومن إنه نجح في نهاية السنة, ظننتُ نفسي في النهاية بتوسطي له كما توسطتُ لنادر عند عضو مجلس الشعب ليعمل في مديرية الصحة, أني كفرت عن ذنبي تجاهه حتى قهرني عرفه للمرة الثانية, عندما ماتت داليا ابنتي الوحيدة في حادثة؛ حينما كانت في طريقها إلى بيتي بعدما أغضبها زوجها نادر, حدث هذا في طريق الكورنيش, طريق المدينة الرئيسي, عندما اصطدم شاب أرعن يقود دراجة نارية بسيارة الأجرة التي كانت تستقلها, طار الشاب وعاش, أما عن الركاب فلم يُصب أحدٌ غير ابنتي, ولم ينزف أحدٌ غير ابنتي, ولم يمت أحدٌ منهم غير ابنتي!

عندما احتضنني عرفه في العزاء, أخذتُ أصيح بجنون أن هذا ذنبه تفهم هو والحضور أن قولي سببه أني لم أزوجه ابنتي, وقتما طلبها لكن الحقيقة كانت في صدري تخنقني تتلوى كهرة محبوسة في جوال.

في الأولى قهرني بطيبته, وفي الثانية قهرني بإرادة الخالق الذي أمر أن يُفطر قلبي على ابنتي داليا بذنبه.

وها هو القهر الثالث بظلمه ليّ, أنا لا أخاف منه ولا خاف من تهديده أنا فقط أشعر بالخزي أمامه ومن إنه سيظلمني عندما يتصور أني خدعته في زواجه أو أني داريت على ابن أخي وبليته بحنان, أو أنني أكننت له شرًا في أمر زواجه, بالتأكيد لو كان عرف كان سيرفض, إذا كان رفض الزواج من فتاة لسوء سلوكها كيف كان سيرضى بحنان بعد ما فُعل بها ؟

أنا ربما لأول مرة كنت صادق مع نفسي في أمر يخصه, فأنا أردتُ مصلحته, وقتها فكرت أن حنان طيبه وستصون بيته وتتحمل أحواله, ونعم فعلتُ هذا, ثم هل كان من المفترض أن تعيش أسيرة لغلطة واحدة فعلتها ؟!

كما أني لم اسعَ لهذه الزيجة, أنا فقط لم أوقف المراكب السائرة, ولم أتخيل للحظة أن هذا الخنزير الذي أنا عمه سيفعل ما فعل بعد يوم عهدنا, نادر ابن أخي ولعنتي في هذه الدنيا قتل ابنتي وسوأ سمعتي, والآن جاء ليُفسد

الود بيني وبين عرفة الذي لم أتب من ذنبه الذي في عنقي؛ ذنب قرباني لماله, لعنة الله عليه وعلى كل الخنازير أمثاله.

أنا لا أخاف تهديد عرفه كل ما يهمني هو هذا الطفل ابن ابنتي المسكين, ذي الثلاث سنوات لو عرفه قتلني وقتل أبوة, سيصبح بلا عائلة ولن يكون أمامه غير بيت خاله, سيلعب القدر نفس اللعبة, وسيعيش في ظروف كالتي عاشها عرفه, وكأن اكتوائي بنار ابنتي الوحيدة لم يكفر عن قرباني لمال اليتيم فأتي الدور على ابنها!

متى أكفر عن ذنوبي في حقك يا عرفه؟

*****

ما كاد قلبي يكف عن التواثب, ويُستبدل الغَمّ بالخدر في عروقي حتى شعرتُ بأحدهم, مؤمن ابن زين يخبرني أن رجل في الخارج ينتظرني, لا وجود لبقعة الشمس, تبدلت وتبدل معها ضوء العصرية وحلت الظلمة..

خرجتُ فاستقبلني الأستاذ صادق بعتاب واضح:

ـ جئتك لتقتلني.. بدل ما تعاني وتيجي لحد عندي يا ابني.

- .....

ـ سكت يا عني؟ محتاج سلاح؟!

نظرتُ له وأمعنتُ حاولتُ أن أتلبس دور تمثال من خشب فأردف يدافع عنها:

ـ الذي شاهدته حدث قبل ما تُشبكها يا بني.. أقسم برحمة داليا أن حنان ما حدش لمسها من بعد معرفتك, وأنا عرفت عندما اشتكت لي من القذر ده وأنا اتصديتله.. والموضوع أُغلق أو هكذا ظننت.. لكن خطأي أني ما مشيتهوش من المديرية بس ملحوجة في الغد سأخذ توقيع الدكتور جمال مدير المديرية على نقله الكوميسيون الطبي وهو زي الكلب سينفذ الأمر, أهدى يا بني وأرجع بيتك.

- .....

لم أبدل نظراتي أو موضعي, أو أصفق على هذا النبأ العظيم الذي أنهى مشكلتي.

ـ هفضل أكلم نفسي كتير يا عرفة.

ـ انا لما أرجع هجتله واجتلها وأنت هتكون السبب.

ـ صلي على النبي يا عرفه ما تخليش الغضب يخليك تعمل مصيبه ..أنت..

قاطعته بمحاولة هدوء لم أفلح في اصطناعها

ـ ما جولتليش ليه لما سألتك عليها زمان؟ .. ما جولتليش ليه بعد ما عرفت طيب؟ .. ليه خلتني أخد واحدة زي دي؟!

ـ أقولك أيه بس إن الله حليم ستار, يا بني لو كنت قولتلك مش بس كنت هفضحها, أنا كنت هتسبب في حرمانك من نعمة أنت عايش فيها معها الآن.

ـ نعمه!.. نعمه أيه أنا كل حاجة في حياتي بنتها وجعت.. ولما أعرف أن مراتي هببت زفت.. دي نعمه؟!

ـ استهدى بالله يا ابني واعتبر نفسك مكانها.. لو أنت من أخطأت وندمت وتوبت كنت ترضى تعيش طول عمرك موصوم بسبب غلطة واحدة ؟! أنا عملت كدة عشانك وعشانها هي زيّ المرحومة ابنتي وأنت ولدي يا عرفه.

ـ أنت عملت كدة عشان تداري على ابن أخوك.. وجيت دلوجتي عشان خايف أموتهولك .. وأنا معملتش حاجة وسخة كده..

ـ يا عرفه...

حاول أن يُقاطعني فأكملتُ بحدة وصوت أعلى:

وأنت مش أبويا يا أستاذ صادق أنا أبويا مات في العراج.

بأسى مفرط قالها:

ـ ربنا يسامحك يا ابني دي أخرتها ؟!

أعلم قدراته على التمثيل, فاستطردتُ وكأني لم أسمع منه شيئًا:

عارف أنا شايف إيه دلوجتي من حياتي.. يوم ما فيهوش زباين, جعدت جدام التلفزيون اللي كان لسه جديد في الجهوة, اتفرج على فيلم مليان حب ومبسوط.. مرة واحدة لجيت المعلم صاحب الجهوة بيضربني على جفايا :

ـ التلافزيون والحب مش ليك ده للزباين.

في نفس اليوم زميلي كسر كوباية فصاحب الجهوة شتمه, تاني يوم أبو زميلي اتشاكل مع المعلم:

ـ أنا ولدي لا يتشتم ولا يتلمس.

ـ ساعتها كنت مستنيك تيجي عشان تجبلي حجي زي أبو الواد ده.. بس ما جتش غير بعد أسبوع وأكتر لما ناري بردت.. ساعتها بس عرفت أني يتيم كنت أسمعها كتير.. لكن ما عرفتهاش غير وجتها..انا مش ابنك يا أستاذ صادق .. أنا لو ابنك مكنتش هترضالي اتجوزها .. لو أنا ابنك وأنا اللي عملت العملة ديه كنت هتداري عليا وتحاول تلزجها لأي مغفل زي ما دريت على ابن أخوك ورضيت عليا إني أتجوزها.. لو ابنك ما كنتش هتجري عليا عشان تحوشني عنه وأنا بضربه, دمه اللي في عروجك هيخليك مهما عمل تبجى في ضهره.. أبوه اللي حجيجي بيساعده.. رغم أن داليا جالتلك لأ .. ضغطتْ عليها عشان تتجوزه .. وأنا جفلت الباب في وشي من أول كلمة.. عشان هو أجربلك مني مهما عمل.. عشان أنا يتيم.. كنت فاكر إن كلمة يتيم دية اختفت من حياتي بعد ما كبرت.. بس واضح إني يتيم وهعيش وهموت يتيم.. أنا حياتي كلها خربت في لحظة.. لو جتلتهم واتحبست بناتي هيروحوا فين؟

انفعلت في سؤالي الأخير فدخل زين على صوتي:

ـ مالك يا ولد الخالة.. خير؟

ـ امشي يا استاذ صادق دلوجتي, وبلغهم اللي هشوفه منهم هما الاتنين هدبحه.

ارتخى وجهه, وطأطأ رأسه وألتف وغادر بدون كلام, فيما سبحتْ في عيون زين أسئلة تستفسر عما يحدث.

*****

نـادر

مشكلة كبيرة, لا جديد, كالعادة في الفترة الأخيرة حيث غرقنا سويًا في المشاكل التي تتصنعها, هذه الأخيرة كانت بخصوص سفري لثلاثة أيام فقط.

فردتْ بأزيز مزعج كبالون يُفرغ من هوائه, وانفتحت كمذياع عند عودتي في الصباح؛ كيف لم أخبرها أو اتصل بها أو أرد عليها, لم تكن تدرك أني في الأصل أهرب من وجهها, الذي عاد كوجه الغراب, فلم تكف منذ

إنجابها لطفلنا الأول عن النكد والزن, وإتهامي طوال الوقت بالخيانة والاستهتار, وتحويل البيت لمورستان إن دخنت الحشيش به, وكأني الوحيد الذي يدخنه؟! فكان طبيعي أن أهرب.

وفي يومنا الأخير معًا ومشكلتنا بسبب غيابي عن البيت, وفي وسط كلامها هددتني أنها ستتركني وتذهب لبيت أبيها ـ عمي الأستاذ صادق ـ فما كان مني إلا أن قمت من على السرير وتقدمت وفتحت لها الباب:

ـ في داهية.. ما تنسيش ابنك

ودخلت لأنام, حينما استيقظتُ ليلًا وجدت رقم عمي وأرقام كثيرة وغريبة مسجله لم أرد عليها, لم يفت غير دقائق حتى عرفت إنها في العناية المركزة نتيجة حادثة, بعد كثرة مشاكلنا لم أكن يوم أتخيل إني سأخاف عليها أو أقلق ربما هذا بسبب شعوري بالذنب تجاهها, وربما بسبب العشرة التي كانت بيننا, لا أعرف, ما عرفته إنني ركضتُ وارتعشت أطرافي لأصل إليها, لكن بمجرد دخول المستشفى وجدت عمي يبكي بكاء نهاية الرحلة أو بكاء الموت, وفي يده ابني وبمجرد أن رآني صب جام غضبه تجاهي وأخذ يضربني بيديه, وزوجته تقف من خلفه تدعو بهلاكي, تحملتُ ما ألم بهما وهما يخبراني أنها ماتت وارتاحت مني.

وكأني أنا من قتلتها؟!

أما في دفنها جاءتني حالة من اللامبالاة لم تنته إلى الآن!

أخذ عمي وزوجته ابني لتربيته ليكون عوضًا لهما عن ابنتهما, فمن وجهة نظرهما أنا لا استحقه, ومع ذلك تحملت لأن طفل بعمر السنتين يحتاج إلى رعاية.

وقررت أن أبدأ حياة جديدة, فتزوجت من أخرى لا تربطني بها صلة دم حتى لا أكرر الغلطة الأولى, وتشكو كل شيء لأهلها كما كانت تفعل ابنة عمي داليا, لكن معها اكتشفت أن تصرفاتي كانت لا تغضب داليا فقط, بل إنها تزعج كل النساء, وأيضًا أني لا استطيع تغيير هذه التصرفات أو الابتعاد عنها وكأنها تلبستني إلى الأبد.

ثم تجلى للجميع أن زوجتي الثانية لا تُبقي على بيت أو عشرة كالمرحومة وطلبت الطلاق, وحتى لا تتكرر المأساة وافقت على الفور وبعد شهرين فقط من زواجنا, وأخذتُ أدير حياتي بنفسي أذهب إلى عملي بقسم المخازن بمديرية الصحة في الصباح وأسهر بالليل, وما بين العمل والسهر هو وقت النوم المقدس, استخدم بعض العقاقير التي لها تأثير السحر في مساعدتي على التخلص من هذه الأزمات, وإسراع وتيرة أيامي المملة, فيما تعلمتُ درس هام للغاية عن النساء إنهن كالعيش البلدي متعته وقت خبزه الأول, حيث يتعجن ويفسد طعمه إن تركته لليوم التالي, وهن أيضًا متعتهن وحلاوتهن تكمن فقط في المكالمة الأولى, واللقاء الأول حتى المشكلة الأولى لها لذة عما سواها بعد ذلك يتغير طعمهن وتقل فائدتهن, وعلى هذا بنيت أسلوب تعاملي معهن, ورغم أن النساء أمامي قليلات بحكم عملي في مديرية الصحة التي معظم من يعمل بها رجال, لكن يوميًا أنا و(الست الأبله) نتعامل مع عدد لا بأس به من الطبيبات, والممرضات, والموظفات اللائي يردن إنهاء أوراقهن, أحاول أن ألاطفهن عل منهن من تستجب, فاستمتع بأنوثتها التي تتجلى في ضحكة لاهية أو انحناءه عابثة تُظهر ما يحبه الرجال, لكن لأني قليل الحظ أصبحت مشكلتي هي (الست الأبله) ـ عرفه ـ وأنفه الطويل, في البداية كان يُعطيني النصائح, ويوجهني, كأني تلميذ طائش أو بني آدم أهوج غير مسئول عما يفعل, ويُزيد جرعة كلامه لو اشتكت إحداهن أو علت من صوتها, كنت استمع لكلامه على مضض؛ حتى ألاعبه بما يريد فأنا أعرف نيته فهو مثلي تمامًا لكنه يمثل ويدعي الفضيلة, ويُركب وجه الأخلاق, ولكي يكتمل الوجه يمثل أنه يُضحي من أجلي ليساعدني على الخروج مما أنا فيه, استمتع بذلك كصائد يراقب فريسته, وأتركه يتحرك من حولي, ويعتقد أنه أفضل مني وأحسن وهو يمارس عليّ دور الأخ الأكبر, معالجًا لعقد النقص التي تولدت لديه بسبب أنه عاش وحيدًا بلا عائلة, وطالما أجلت أن أكشفه أمام نفسه, وأصبر حتى لا أفجر القنبلة التي ستثبت مدى غبائه من ذكائي, وتجعله يتهدم كبنيان يسقط متفجرًا أمامي, فرغم ما يقوله ويفعله أنا المستفيد من صداقته, فهو يتحمل عني أعباء العمل وقتما أطلب, ونادرًا ما يرفض ـويكون هذا بسبب مصاريف حنان وبناتهاـ أن يُسلفني عشرين أو ثلاثين جنيًها, وبعدها لا يُطالبني بردها كبقية زملائي الشحاذين, إلى جانب شهامته معي في أكثر من موقف أتذكره له.

لكن في الفترة الأخيرة سقط وجه الأخلاق الذي يُظهره للناس, واتضحت نواياه للعيان بشكل فج وأخذ يحلق على السيدات أكثر مما أفعل أنا؛ وعندما تدخل إحداهن المكتب ينادي عليها لتتعامل معه وتتجنبني, وإذا كان المكتب مزدحم, ووقفت عندي سيدة بمجرد أن أجاملها, أجده يهب من مكانه ويعتذر لها, ويُسر إليها ما يشوه سمعتي, حاولت تحذيره أكثر من مرة والتلميح له أنه ليس أعقل ولا أذكى مني أو يفهم عني:

ـ بلاش تخليني أوريك حاجة هتعرف بيها مجامك.

بكلامي امتهان وبنصائحي استهان, ولم يكترث رحت أسبه بأهله, وبلده ودينه, كان يبتسم ابتسامه سمجة كالتماثيل الحجرية, ويُهادني مثلما يُهادن أطباء قسم النفسية والعصبية المجاذيب, ويربت على كتفي حتى أوصل روحي إلى الحلقوم, فرحت أغضب وأشكو لعمي ـ رئيسنا المباشر ـ لكن عمي الذي من يوم وفاة ابنته وهو منقلب علي ولا يوليني الإنصاف يقف في صفه ويدافع عنه مخبرًا إياي بأنه هو الذي طلب منه ذلك, لا أريد احتكاك بعمي يكفي ما جرى, وحاليًا هو يتحمل عني مصاريف ابني ولا يطلب مني شيئًا, ولا أريد أن تتصاعد الأمور معه, أفوت المشكلة فنحن في النهاية زميلان وأنا أحتاج له فأضغط على نفسي, وفي اليوم التالي من مشداتنا ـ التي باتت شبه يومية ـ كنت أسلم عليه وأحتضنه واعتذر, لكنه لم يدرك أن صبري ينفد وطاقة تحملي تتبخر, ولأنه كان بلا عائلة لم يعلمه أحد أن يتقي شر الحليم عند الغضب:

حتى قسمت ناهد ظهر البعير, ظهر صبري وتجلدي على ما يفعل حيث أتت مرتديه عباءة حمراء, تُجسم كل ما لا يُجسم في جسدها وطرحة لم تخفِ بداية نحرها, كنت أعرفها من قبل, جاءت وسلمت عليّ في عدم وجوده, طالبه الإمضاء على ورقة إخلاء طرف تخصها, حينما دخل عرفه المكتب, وبمجرد أن وجدها تضحك وتتبسط معي في الحديث, أستأذنها ودعاها إلى مكتبه, لم أتحمل, قمت وزعقت فيه أن يخرس, في هذه الأثناء دخل عمي هذا الأقرع البليد, الذي بدون أن يعلم من سبب المشكلة أو كيف بدأت نصفه, وقال لناهد أن تخلص ورقها عنده, لم أطق هذا, لعنت عرفه بأقذع الألفاظ لكنه جبلة, تركتُ لهما المكتب وعدت إلى البيت حانقًا عليه وعلى عمي وعلى الجميع, وحرقت من السجائر مائة, يبدو إنني عند محاولاتي تصفية النفوس, وعندما أذهب للكلام معه بعدما أسبه, يعتبر أن هذا ضعف مني, ولا يُقدر أفعالي ويتمادى في أفعاله, فقررتُ أن أريه ما أخفيه, وأن أكسر عينه وأزيح عنه ما يظن به أنه أفضل مني وأضعه في حجمه الحقيقي, لن يوقفني العهد الذي قطعناه منذ سبع سنوات, ولن أهتم بردة فعله أو ما سيقوم به عمي.

عندما استيقظتُ في اليوم التالي يوم الثلاثاء, كنت أهدأ قليلا وقررت ألا أريه شيئًا إلا إذا استفزني مجددًا, دلفت المكتب ولم أحييه كعادتي, لم يعلق أو يتكلم معي, واستمر هذا الوضع حتى الحادية عشر حين قرب إليّ قطعة بسبوسة من صنع زوجته حنان, وأنا أصنع الشاي وراح يعاتبني بلزوجة وكأني أنا المُخطئ ؟!

ليس هذا فقط, بل بدأ أسطوانة (الست الأبله) وأخذ ينبهني بضرورة المحافظة على سمعتي ووظيفتي, حتى إنني لم احتمل كلمة إضافية منه, رفعت له التليفون وببرود أعصاب ألقيت على أذنيه:

ـ لو فاكر انك بتفهم عني.. أتفرج

شغلتُ أمامه مقطع الفيديو الذي بيني وبين زوجته, وبدأت له بالدقيقة الخامسة حيث ترقص حنان عارية الصدر, فيما أقترب أنا لأحتضنها, كنت أتوقع أن تكون ردة فعله قوية وعنيفة, لكني لم أتوقع أن تكون بهذه القوة, بغتة تحول وجهه الداكن إلى اللون الأحمر, سبني بألفاظ لأول مرة أسمعها منه, وضربني بقبضة يده في أنفي فنزف, سحبتُ منفضة سجائري الزجاجية وقذفتها بوجهه دفاعًا عن نفسي, فأصابت فمه وسال الدم منه, ارتجف كثور هائج وقت ذبحه ودفعني إلى حافة المكتب, خنقني بيسراه وأخذ يضربني بيمناه, كل ما أتذكره صوت عمي يحاول إبعاده عني, بعدها فقدتُ الوعي لدقائق على أثر ضربة أقوى من كل ما سبق.

حينما استفقتُ وبدأت استجمع ما حدث كنت أشعر بنار في وجهي ورأسي وكأنهما بداخل فرن, إلى جانب الصداع والدوار اللذين تمكنا مني وكأني في جهنم, نظرة على وجهي في المرآة ارتعدتُ بسببها, فوجهي متورم ومشوه بطريقة مرعبة, طمئني أحد الأطباء المنتدبين أن جروحي سطحية وستلتئم قريبًا, ورغم أن عرفه هو المخطئ في كل شيء, ورغم وجهي الذي لم يعد فيه مكان خالي من الإصابات, ورغم تليفوني الذي سرقه لكني

أحسستُ أني تسرعتُ, سمعتُ لضميري نبضات من ندم, مثل التي يدق بها قلبي لأعيش, إحساس بالذنب تملكني كيوم وفاة زوجتي داليا, فمهما فعل فهو أطيب من أن أُبين له كم هو غبي وساذج, كما أني أحسستُ بالخوف من ردة فعله؛ فما فعله أظهر كم هو أحمق ومن الممكن أن يقتل حنان, أو على الأقل يُطلقها وربما يعود ليقتلني!

لذلك طاوعت عمي الذي تباكى لوكيل المديرية ليسامح عرفه, ولم أقل شيئًا حقيقيًا عما حدث حتى أبقى في مأمن من حماقاته, عندما عُدت إلى مسكني في منطقة أرض الجميلي, إلى جانب الصداع والدوار والألم كنت أشعر بالجوع, التقمت "باكو بسكويت" قبل أن أتمدد على سريري فاقدًا الإحساس بكل شيء ولم أحلم بأي شيء.

حتى استيقظتُ في العاشرة, فوجدتُ خمسة اتصالات فائتة من عمي ورسالة مطوله, يبدو أنه أرسلها بعدما فقد الأمل أن أرد عليه (أخذت الموافقة الشفهية على شغلك في الكوميسيون الطبي ..ريح غدًا ولا تأتي العمل وأبعد عن عرفه.. ناوي يقتلك ومعاه حق ياريته يعملها ويريحنا من قرفك) بوجهي الملتهب لم يكن لدي قوة حتى لأبصق على كلامه, اتصلت بمطعم الأسد:

- أيوه يا حوده ابعتلي مع نصر تلاته كفته.. وواحد شاورما.. وطحينة وزود الطرشي بسرعة أنا واجع.

لم يتأخر وبعد أُقل من عشرة دقائق, رن جرس الباب, رغم إجهادي تحاملتُ وقمت سريعًا, فتحت الباب لكنه لم يكن نصر عامل مطعم الأسد كان عرفه أمامي, يرمقني بشررٍ مشهرًا سكينًا ببدٍ حمراء في وجهي.

*****

حنان

بعدما تم تعييني في مديرية الصحة, كأي فتاة انتظرتُ الخطوة التالية في حياتي, وهي الزواج, كما إني كنت أتوق للهروب من بيت أبي, وتحكمات زوجته, لكنه تأخر ولم يأت؛ ابن الحلال الذي سيتزوجني, صبرتُ نفسي بأنه نصيبي, حتى خُطبت لأحدهم, وعلى الرغم أني تحملتُ منه فواحش وشتائم, والكثير من مد اليد على جسدي, تير بالضرب وأخريات لغير ذلك على أمل أنه سيتبدل حاله مع الزواج, لكن خطبتي لم تدم غير شهور, حيث انتهت عندما لطمني بقوة تحت عيني, وللحظ السيئ رأى أبي مكان ضربته المتورم, وبيد أني حاولت أن أكذب عليه, لكنه زعق وتعصب ونسلني من خطبته.

كان هذا الوقت نفسه الذي حلت فيه جملتين على لسان نادر زميلي في مديرية الصحة (أنا اتخنجت من داليا ومن نكدها وهطلجها) (أنا بحبك انتي وهتجوزك), كلامه كان لين فتساهلتُ معه, على أمل أن ينفذ وعده ورُحت أُرغبه في زواجي تارة بالكلام وأخرى بما يبتغيه الرجال من الإناث, بالقدر الذي أحافظ به على شرفي وعذريتي, لكنه أخذ يسوف ويسوف ويتحجج بخوفه من عمه, ويرفض أن أفصح عن علاقتنا حتى لزميلاتي بأي شكل, حتى جزعت, وطلبت منه أن يتزوجني بدون أن يُطلق زوجته وأنا سأرضى بهذا الوضع, فقالها صريحة قبيحة في ساعة تنطق بها الألسنة بالحقائق: أنتي (...) ورخيصة.

للأسف كنت أحبه ولم أستطع تركه, فقررت أن ابتعد لفترة عنه, وأنا أبحث عن فرصة تُشعل نار غيرته, وتجعله يندم على ما وصمني به, لم تكن هنالك فرصة مناسبة غير عرفه, فمن جهة هو زميل نادر ويرافقه في مكتب قسم المخازن, ومن جهة أخرى, الأستاذ صادق عرض زواجه عليّ من سنة وقال إنه يُعجب بشخصيتي, رفضت وقتها لمظهره الفظ, وملامحه التي لا تمت للجمال بصلة, وبناءً على ذلك دفعه لحبي لن يكون أمرًا صعبًا وسيحقق المراد؛ ويثير حفيظة نادر وغيرته, فأخذتُ أحشو له الأرغفه, وأسأل عليه بشكل منتظم, في البداية كان يتعجب من تصرفاتي تجاهه, لكنه سرعان ما وقع فيما أردت, الغريب أني وبلا سابق إنذار أو تحذير وجدتني أتعلق به, أتعلق به حقًا لا تمثيلًا كما بدأت, صدمتني كم الطيبة والبراءة وحب الخير للجميع الذي يتمتع به, والذي لم أقابله طوال حياتي بداخل أي إنسان, حتى عندما يتبرم يتركني ويبتعد, لا يشتم ولا يزعق ولا يضرب, بخلاف أي رجل عرفته من قبله وأولهم أبي, وجدت نفسي أفقد رغبة الانتقام من نادر, ووجدت أن اللعبة التي ألعبها انقلبت عليّ, كمن تنزل البحر لتسبح, فتجد نفسها تسقط في أعماقه وتغطس, سقطت في هيام جسده الضخم وملامحه, التي وإن كانت ليست جميلة لكنها غير منفرة أو قبيحة كما كنت أتوهم, عوضني عرفه

بطيبته عما عشته وحينما اقتربت لأقبله أسمعني كلمات لم أسمعها من قبل في موقف كهذا مع رجل غيره (بعد أما نتجوز)!

وجدتني أحب عرفه.

بل وفكرت مليًا أن عرفه كثيرًا على من مثلي, وأنه يستحق من هي أفضل, لكني طلبتُ منه أن يتقدم لخطبتي, فلم يتردد وفعل, شعرتُ أن ما يحدث حلم جميل سينتهي قريبًا كما اعتدتُ طوال حياتي, لكنه لم ينته ارتبطتُ بعرفه ومعه طويتُ صفحات الماضي ونسيتهم تمامًا, لكن يبدو أن الخطبة أوقدت النار بداخل نادر, وعاد يرغبني ويطلبني من جديد وطلب مني أن أذهب إلى الشقة التي كنا نتقابل فيها, وحينما رفضتُ, هددني وأظهر ما أطمره في إحدى لقاءاتنا؛ فيديو صوره خلسة وأنا في غرامه, وليقنعني بطلبه, أقسم إنها مرة واحدة فقط ولن يكرر طلبه, في الحقيقة أنا بدون عرفه لم أعد أكن لنادر غير كل كره, وبعدما عرفت عرفه احتقرت نادر كرجل, ولم أكن أريد إلا أن يذهب هو ومن مثله إلى الأدركة السفلى من الجحيم, ولم يكن أمامي غير خيارين لا ثالث لهما, إما المغامرة وإخبار عمه بكل شيء ليبعده عني, أو الذهاب إليه لمرة واحدة عله يكون صادقًا.

أيًا من هذين الخيارين مُر وبه مخاطرة كبيرة, غامرتُ واخترتُ الأول حتى لا أدنس نفسي بعدما بتُ أنظف مما كنت عليه وأنا بجانب عرفه, وفي اليوم الذي أبلغتُ فيه الأستاذ صادق صباحًا, توفت أم نادر في الظهيرة, وغالبًا هذا ما جعله يبتعد عني ويوافق على العهد الذي قطعه ثلاثتنا, بعد أسبوع من وفاة والدته في بيت الأستاذ صادق, العهد الذي مفاداته أن يمسح نادر الفيديو الذي صوره للقائنا, أن تنقطع أي علاقة بيني وبين نادر, أن أكون زوجة مخلصة لعرفه, ألا يخبر صادق عرفه بما علم, وأقسمنا على كتاب الله بذلك.

مرت الأيام الأولى بعد هذا العهد ثقيلة وبغبشة الخوف مغبرة, الخوف والقلق من أن يتراجع نادر عما وعد به ويحنث بقسمه, أعرفه كاذب حقير لكنه لم يفعل, حتى تزوجتُ, وقدمت على أجازة طويلة بدون مرتب وبدأ طعم الاطمئنان الذي لم أعرفه من قبل عرفه, يُحلي حياتي يوم بعد الأخر ويغمرها, واكتشفت أمورًا كثيرة وأنا معه في نفسي وفيه؛ فمثلا كان بمجرد أن يتناول الطعام ويثني على أكلي (تسلم أيدك) أنشط وأقوم أنظم البيت واجتهد في ذلك أكثر, رغم أني لم أكن أتخيل في نفسي هذه القوة, عندما يبتسم أشعر أنه أجمل رجل في الدنيا, عندما يُرخي جسده الضخم ويفضفض أشعر أنه طفل صغير, وأنا أمه التي ولدت, عشت معه سبع سنوات على كل حلو ومر, أنجبت فيهم طفلتين كنت أظن أن موت أبي هو آخر شيء يربطني بالماضي, لكن يبدو أن للماضي أراء أخرى.

ويبدو أن كل هذه أوهام في رأسي فقط, حدثت بسبب ما أصاب ابنتي جميلة, عندما استفيق سأجد عرفه بجواري وفي يده هدية أتى بها من أجل عيد ميلادي, لكني استفقت على ممرضة تمسك يدي اليسرى وتعلق بها المحاليل فلطمت بيُمناي على خدي, وانفجرتُ في البكاء, جائتني فتحية بناءً على طلب الأستاذ عرفه, حاولتْ في البداية بطبعها الفضولي أن تستخلص مني سبب المشكلة, لكني كنت أسمعها وعقلي في وادٍ أخر في مصيبتي, وما سيفعله عرفه معيّ, ولماذا قال له القذر نادر هذا الكلام بعد كل هذا الوقت, فتركتْ فتحية استجوابي, ومحاولات الاتصال بعرفه التي لم تثمر عن نتيجة, وقامت بما أتت من أجله أطعمت الطفلتين وراعت جميلة وجلست بجوارها, وجهزت طعام العشاء لكي يأكل زوجي حينما يعود, لا تعرف أنه ربما لا يعود, وربما يعود فقط ليمزقني أو يبصق في وجهي ويطلقني ويرحل مرة أخرى.

أخيرًا أخذت فتحية أحلام معها إلى شقتها, في محاولة منها لتهيئة الجو لنا للمصالحة ونزلت على وقع دعوة واحدة:

- ربنا يهدي سركم.

نامت جميلة بجانبي على السرير, فيما نهشني أنا القلق والرعب والخوف, حتى سمعت صوت فتحية من الأسفل يُناديني:

- بت يا حنان, تعالي كلمي جوزك.

ارتجفتُ وهرعتُ حافية ونزلت

ـ ألو يا خويا .. عامل أيه؟

****

توقفتُ أسفل بناية نادر بمنطقة (أرض الجميلي), واستللتُ من "تابلوه" السيارة سكين متوسط الحجم, اشتريته في طريق عودتي من كوم أمبو, أدخلتُ مقبضه الأحمر في إحدى عروات بنطالي الأسود, وأسدلت القميص البيج عليه حتى اختفى تمامًا, بعد ذلك صعدتُ إليه على مهلٍ, ضغطتُ على زر جرس شقته, وانتظرتُ, فتح سريعًا كمن يقف خلف الباب, وبدون أن يسأل عن هوية الواقف وكأنه ينتظرني, تجلى أمامي "بفانلة" نصف كم للنادي الأهلي, ووجه لا يوجد فيه منطقة سليمة أو غير مضمده, حين رآني ونصل السكين يومض في يدي بسبب المصباح الأبيض من فوقنا, أجفل وشهق وبان الفزع على مقلتيه, وحاول إغلاق الباب, لكني تقدمتُ خطوة ودفعتُ الباب في الاتجاه المعاكس, قبل أن أندفع وأمسك به من تلابيبه, وبمجرد أن زعق ليطلب الاستغاثة كتمت فمه بيدي ولويت ذراعه خلف ظهره, صرخ من الألم, فوضعت سبابتي على فمي في أشارة ليسكت, وأنا أخفف من ضغطتي ففعل, أغلقت الباب علينا من الداخل, وأخرجتُ تليفونه من جيبي وهمست فيه بنبرة حاولت جعلها مخيفه تثير الريبة في نفسه :

ـ التلفون بتاعك معايا.. هتاخده.. بس أمسح أي فيديو يخصني لسه عندك, وهسيبك وهمشي ولا تضرني ولا أضرك.

أشار بيده الغير ملتوية إلى جهاز كمبيوتر يقبع في منتصف الصالة, قديم تغير لونه بسبب قلة التنظيف:

ـ الفيديو على الجهاز.

ـ متأكد أنه مش موجود على فلاشة معاك أو تليفون تاني..

أزدتُ ضغطتي على ذراعه: أفتكر كويس لمصلحتك.

وعوع من الألم:

ـ والكعبة مش موجود غير على الجهاز, وما حدش يعرف اللي كان بيحصل ولا كان حد هيعرف.. إلا لما أنت زودتها معايا وحبيت أثبتلك أنك حتت بلونه منفوخة ومتخلف.. والفيديو همسحه جدامك دلوجتي.. وهشتغل في الكوميسيون ولا عايز أعرفكم ولا اشوف خلجكم تاني.

ـ ولا أحنا عايزين نشوفك, بس لو عرفت أن في حد شاف الفيديو أو عرف باللي حصل, مش هاجي وأسألك ولا أضرب فيك.. أن هدبحك وأدفنك في أي كوم زبالة.. وهروح البندر بنفسي وأجولهم جتلت كلب وريحتكم من نجاسته.

أزدتُ الضغط على يده, وفي أشارة لحنان سألته:

ـ الموضوع ده أتكرر بعد ما تجوزتها:

صاح وقد أحمر ذراعه وتعرق, وارتفعت سخونته في يدي حتى كاد ينخلع:

ـ ما تنيلناش من جبل شبكتكم.. وما شوفتهاش من ساعة ما أخدت الأجازة.. أنا هخاف منك؟!

تركت يده, تأوه من آلامها ككلب ضُرب في بطنه بحجرٍ, وتوجهتُ ناحية جهاز الكومبيوتر, ومسكت "كيسته", وبدأت أشدها وأحررها من أسلاكها فصرخ:

ـ بتعمل أيه أنا همسحولك!

ـ مش عايز اعطلك.. أنا هتصرف بطريجتي.

ـ طيب خد الهارد وسيب الكيسة والشاشة .

ـ لا ناصح يابن عمي.. مهو أنت ممكن تكون حاطط جواهم حاجة ومدريها.

ـ الفيديوهات والصور بتبجى جوه الهارد.. الكيسة والشاشة ما بيخزنوش حاجة وتمنهم غالي سبهم.

تركته يكذب ويعوي, وحملت شاشته في يدي اليمنى "وكيسته" في يدي الأخرى, برحتُ (أرض الجميلي) وتحركت بسيارتي إلى الضفة الشرقية للمدينة حيث كورنيش النيل الطويل, وأمام بوابة إحدى مراسي السفن السياحية توقفت, ألقيت نظرة على الضفة الغربية أو المقابلة حيث جبل (أبو الهوا) شامخ كما عهدته, مُضاء بكشافات صفراء قوية تنعكس إضاءتها على صفحة النيل, من حولي المارين أغلبهم أسوانيين يستمتعون ببعض النسمات الصيفية هربًا من حر بيوتهم وكتمتها, أقنعت نفسي أنهم لا يحدقون فيّ, ولا يعرفون حكايتي, أو ما أنا فيه ولا حتى اسمي, فقط أنا من أتوهم هذا, حملت جهاز الكومبيوتر بقطعتيه, ومررتُ من تحت يافطة المرسى المكتوبة بلغة انجليزية أجهلها, وانحدرت مع السلالم التي يستخدمها النزلاء للوصول للباخرة, لكن الباخرة بسبب أحداث يناير كانت مظلمة وراكدة كشاب عاطل بلا عمل, وهذا ما دعا حارس الأمن الرفيع الذي يجلس أمامها على مقعد كان يومًا "اسفنجي" أن يقابلني بنصف عين غير مكترث لأمري, قبل أن يُكمل استرخائه ظنًا منه بأني سأنقل الجهاز الذي أحمله إلى الباخرة التي يحرسها, لكنه بُهت حينما وجدني أرمي بالكومبيوتر في الماء المظلم, وأمعن النظر في النيل وهو يبتلعه مثلما أبتلع البحر فرعون وجنوده, فوقف من مقعده مندهشًا بلهجة قاهرية:

ـ بتعمل أيه يا جدع أنت؟!

ـ كابوس.. زهجت منه.. أصله ما بيتصلحش!

غيرت اتجاهي وارتقيت السلالم, وغادرت عائدًا لسيارتي, اتصلت بفتحية جارتي في الدور الأول التي بمجرد أن سمعت صوتي سكبت في أذني أن حنان تبكي وانهارت وعُلق لها محاليل الجلوكوز, واصفة حزنها بالدرجة التي تجعلها تكتم ولا تصرح بما أصابها على غير العادة, فطلبتُ منها أن تناديها:

دقائق حتى خرجتْ فتحية من شقتها ونادت عليها, لكنها ثوان حتى هوت حنان من الأعلى وبصوتٍ مرتجف آملًا لأقصى درجة:

ـ الو يا خويا .. عامل أيه؟

ـ أنتي لسه في البيت ليه؟ .. صادق ما جلكيش على اللي هعمله فيكي؟

صمتت ثوان تستجمع:

ـ أنا في بيتك.. ماليش مكان غير بيتك.. يا خويا أنا من يوم ما عرفتك والمصحف عمري ما عملت حاجة تعرك ولا بصيت لحد غيرك.. تعالى بيتك البنات وأنا ملناش حد غيرك.. واللي عايز تعمله أعمله.. أنا غلطت وغلطت أكتر أني خبيت عليك وراضيه بحكمك من جبل ما تجوله.

ـ جميلة عاملة أيه؟

ـ بتسأل عليك.

ـ اطلعي بيتك أنا في السكة.

ـ اللي تشوفه يا خويا.

في جملتها الأخيرة شعرت أن روحها ارتدت إليها, رحل ارتجاف صوتها وحل مكانه ابتهاج, كالذي سمعته منها وقتما بشرتني بحملها الأول حين أبلغتها طبيبة التأمين الصحي به, كلامي معها أشعرني بالحنان لها وللبنات فاسترجعتُ ما دار بيني وخالتي منذ ساعتين:

يا وليدي أحنا كلنا مفضوحين.. وفينا بلاوي وعايشين بستر ربنا علينا.. الجوي يا ولدي هو اللي يجدر يعمل ويكسر ويخرب بس يعفو ويسامح, لو جتلتهم هترتاح؟ لاه.. هتبجى جوي وأخدت بحجك؟.. يمكن.. بس هتعيش متعذب بذنبها وذنب بناتك اللي خليتهم يُتمى لا أم ولا أب في لحظة.. لو طلجتها.. وعملت هي العيب تاني .. هتبجى مبسوط؟ بناتك هيتبسطوا بأمهم, اللي هتبجى سيرتها لبانه في الحنك.. اللي حُصل حُصل خلاص يا وليدي, أحنا أجلنا جصير ما نضيعهوش في الكره والعداوة آخِرتهم وحشة وأديك شفت بعينك جوز خالتك.. لو سامحتها أنت أتغلبت على شيطانك.. الجنة صعبة واختباراتها صعبة.. وربنا كشفلك اللي حُصل بيشوفك هتمشي في أنهي سكة, وأنا ما رضلكش يا نضري تكون ضعيف وتخلي الشيطان يكسبك.. صادج ما كدبش لما جلك إنه كان عايز مصلحتك.. أستر وسامح الغُرب ربنا يكرمك وتشوف خيره جد الجبل.. فما بالك لو عفيت عن أم بناتك والراجل اللي زيّ أبوك.. والتالت مش محتاج إنتجام شِطانه عامل فيه العبر.. مرتك أصيلة وهتجدر ده ليك.. وهتحطك في عينيها الاتنين أكتر مهي عامله وزيادة.. أنسى اللي حصل يا ضنايا اعتبره كابوس جمت منه.. وجوم يلا ما تسيبهاش بايته لوحديها وبتك نازفه.. سامعني؟!

ـ كابوس .. سامعك يا خاله .. كابوس

عسكري مرور لا أعرف من أين أنبلج, اقترب بضجر يشير لي من أمام الزجاج بالتحرك, حالته تشي أنها لم تكن أول أشارة منه, فأومأت برأسي موافقًا ورفعت يدي معتذرًا:

ـ اللي تشوفه يا معالي الباشا.

كان هذا قبل أن أتحرك بسيارتي عائدًا إلى حياتي التي بنيتها, مارًا على تاجر أدوات صحية مشتريًا كوعًا بلاستيكيًا للحوض.

تَمَّت بفَضَل الله وحمده

محبّة

على رائحة دمائها الذي يشيط أخذا يتمازحان ويتقافزان، كادت من فعلتهما هذه المرّة أن تبكي، وأمرتهما بانفِعالٍ أن يُعيداها للبيت، فمسك كلّ منهما يدًا لها، وكأنهما سيعتذران لها ويحاولان تهدئتها، ولكن هيهات، فبدلًا من ذلك، طفقا يكيداها قولًا عن كيف كان مظهر تلك الفتاة وشكلها وقوامها وشعرها المموج، فشعرت آية بالاختناق ودقّت قدميها في الأرض كمسمارين، زادت عصبيتها وصممتْ على المغادرة.

ستايل للكتاب
23935656

فائز بالمركز الثّالث في المسابقة الثقافية الدولية لمؤسسة هبة بنداري للتنمية
الدّورة الثانية - 2021

الغلاف: بلقيس محمد

الطبعة الأولى